مصدر القرآن

دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين

حول الوحي المحمدي



د.إبراهيم عوض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمــة

هذا البحث يبين بالأسلوب العلمي أن الدراسة المدققة لشخصية الرسول وشخصية القرآن لا بد أن تؤدي إلي الإيمان الجازم بأن ذلك الكتاب يستحيل أن يكون من نتاج عقل محمد ومشاعره أو أي إنسان آخر ، وإنما هو وحي إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الرجل الذي جاء به لا يمكن أن يكون إلا نبيا رسولا.

وقد قسمته إلي بابين : الباب الأول لدراسة شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، والثاني لدراسة المحتوي القرآني وروحه . وقد قسمت الباب الأول بدوره إلي ثلاثة فصول درست فيها الشبهات التي يفسر بها المستشرقون والمبشّرون المصدر الذي جاء منه القرآن . وقد رتبت هذه الشبهات ترتيبا منطقيا بحيث إنه عندما يفرغ الدارس من مناقشة أولاها ويتبين أنها غير قائمة علي أساس تاريخي أو علمي يجد أنها تسلمه تلقائيا إلي الشبهة التالية ... وهكذا . وهذه الشبهات تتلخص في أن محمدا عليه السلام كان كذابا مخادعا ، أو أنه كان واهما مخدوعا ، أو أنه كان مريضا بمرض عصبي . وقد درست هذه الشبهات واحدة واحدة دراسة متأنية طرحت فيها كل لون من ألوان التحرج بغية الوصول إلي ما أعتقد أنه الحق الذي من شأنه أن يريح النفوس المتطلعة إليه والتي لا تألو في البحث عنه أي جهد ، واعتمدت في ذلك كله علي الروايات التاريخية الموثقة بعد أن أمررتها في مصفاة المنطق الإنساني العام ، وكذلك علي الدراسات النفسية والطبية ، وبخاصة تلك التي تتعلق بمكنونات اللاوعي والأمراض النفسية والعصبية . ولسوف يري القارئ كيف نظرتُ إلي الروايات التاريخية المتعلقة بعصر النبي عليه الصلاة والسلام وشخصه وأحاديثه من زاوية جديدة ، فإذا بها تفتح مغاليقها وتطلعني علي أسرار عجيبة ، مع أن هذه النصوص قلما يجهلها دارس للسيرة النبوية .أما الباب الثاني ، وقد قسمته هو أيضا إلي ثلاثة فصول ، فقد درست فيه شخصية القرآن ومحتواه ، ووجدت أنه لا يمكن أن يكون قد اسْتُقِيَ من أي مصدر بشري أو اقْتُبِسَ من أية ديانة أخري ، وذلك بعد مقارنته بغيره من أديان عصره التي اتُّهم

الرسول بأنه قد أخذ عنها أفكاره عن وعي أو عن غير وعي ، وبعد تحليل ما يتلألأ علي وجهه من لألاء العلم الشامل المحيط والنَّفَس الإلهي الذي لا يمكن أن تخطئه النفوس المحبة للحقيقة . ولعل القارئ يذكر أني أعلنت في مقدمة كتابي « المستشرقون والقرآن » عن نيتي في دراسة هذا الموضوع الذي يدور عليه كتابي الحالي . وفي الحقيقة لم أكن أتخيل أن ذلك سيتم بهذه السرعة ، ولكن الألطاف الإلهية تقرب كل بعيد ، وتيسر كل صعب ، فالحمد لله حمدا كثيرا يليق بعظيم فضله وواسع رحمته.

وفي نهاية هذه الكلمة أود أن أشير إلي أن هذه الدراسة هي بمثابة تفكير من جانبي بصوت عال ، فقد قمت بها لأرضي عقلي وروحي في المقام الأول ، ولعلها أن تشفع لي عند ربي يوم القيامة . وهو سبحانه رحيم يُقيل عثرات الضعفاء ويتجاوز عن زلاتهم .

الباب الأول

الرســـــول

الشبهة الأولي

أنه عليه السلام كان مخادعا كذابا

وُوجِه الرسول عليه الصلاة والسلام من قِبَل كثير من الخلق من أول يوم دعا فيه علانية إلي الإسلام ، ولا يزال حتي يومنا هذا يُوَاجَه ، بالتكذيب . وقد سجل القرآن في أكثر من موضع هذا الاتهام الذي رماه به مشركو قومه وردده النصاري واليهود . أما بالنسبة لخارج المحيط العربي فيقرر شارل لودي أن حكم الرومان عليه كان شديد القسوة ، إذ اتهموه بأنه استولي علي أموال خديجة وماشيتها ، ولما افتضح أنه مصاب بالصرع أراد أن يواسيها ، فزعم لها أن جبريل ينزل عليه بالوحي من السماء [١]. وإذا غضضنا الآن البصر عن تهمة الصرع (لأننا سنعالجها مع غيرها من الاتهامات التي تشكك في صحته الجسدية أو النفسية والعقلية في فصل لاحق) تتبقي أمامنا تهمة الكذب واضحة لا تحتمل لبسا . وليس الكتَّاب الرومانيون القدماء هم وحدهم من بين الغربيين الذين يرمون الرسول عليه السلام بهذه التهمة ، فإن طائفة كبيرة من المستشرقين، نصاراهم ويهودهم وعقلانييهم ، يدّعون أن القرآن هو اختراع محمدي نسبه محمد إلي الله [٢]، وإن دفع بعضهم عن رسولنا هذه التهمة ، كما فعل الكاتب البريطاني

---

(١) Charles J . Ledit, Mahomet, Israel et le Christ, p. 43.

(٢) Maxime Rodinson, Mohammed, p. 218.

توماس كارلايل حين ساق ما زعمه براديه من أن القرآن طائفة من الأخاديع لفقها محمد ليسوِّغ ما اقترفه لبلوغ مطامعه[٣] .وقد بني كارلايل دفاعه علي أساس أن الإسلام لو كان دينا كاذبا لما استطاع أن يعيش طيلة هذه القرون تعتنقه كل هذه الملايين[٤]، وكذلك علي أساس أن محمدا لم يحاول ، وهو في حرارة الشباب ، أن يحدث ضجة جريا وراء الشهرة بل عاش مع زوجته عيشة هادئة [٥]، أما ألفريد جيوم فإنه ينفي الكذب والادعاء عن الرسول ، إذ يطبّق عليه المقياس الذي يقاس به صدق النبي عند بني إسرائيل ، وهو يتلخص في القول الثائر الملتهب ، والشعر[٦]، والانشغال التام بالله وبالقضايا الأخلاقية ، والشعور بأن ثمة ضغطا يسوقه سوقا لإعلان كلمة الله ، فيجد أن هذه العلامات جميعها ظاهرة في حالة الرسول محمد عليه السلام . كما يري في شكوكه عليه السلام في مصدر الوحي في أول الدعوة ومحاولته الانتحار دليلا قويا علي صدقه ، مقارنا إياه في هذا بالنبي أرميا[٧]. وبالمثل يؤكد جب أن محمدا كان مقتنعا تماما بأنه مبعوث من لدن رب العالمين[٨].

وإلي جانب هذين الرأيين المتقابلين ثمة رأي ثالث يفرِّقُ بين الدعوة في مكة والدعوة في المدينة : ففي المرحلة الأولي كان محمد مخلصًا صادقًا : يتضح صدقه وإخلاصه في تحمسه الشديد ، وتحمله المشاق ، وإقناعه الأغنياء من أتباعه بالتواضع للفقراء والجلوس معهم ...إلـــخ . أما في الثانية فقد أعماه نجاحه لدرجة أنه أخذ يخترع الوحي تلو الوحي لتحقيق

---

(٣) توماس كارلايل / الأبطال / ترجمة محمد السباعي / ٢ / ٨٦.

(٤) المرجع السابق / ٢ / ٥٨ .

(٥) السابق / ٢ / ٧٢.

(٦) غني عن القول أن الكاتب مخطئ هنا ، فالقرآن ليس بشعر.

(٧) Alfred Guillaume, Islam, p. 28 - 30.

(وانظر أيضا العنصرين الأول والثاني من هذا المقياس عند مالك بن نبي الظاهرة القرآنية / ٤٤ – ٦١) .

(٨) Gibb, Mohammedanism, p. 25.

شهواته وتسويغ انتهازيته . وهذا هو السبب ، في نظر أصحاب هذا الرأي ، في أن القرآن مليء بالمتناقضات والمزاعم الكاذبة [٩].

والمقصود بالمزاعم الكاذبة هنا أن للرسول الحق في الاحتفاظ بأكثر من أربع زوجات ، وأن إبراهيم هو الذي بني الكعبة ... إلخ . ومن أنصار هذا الرأي الكاتب الأمريكي الشهير واشنجتن إرفنج، الذي يرد علي من اتهموا النبي عليه السلام بالزيف بأن النصف الأول من دعوته يكذّب هذه التهمة ، إذ ما الذي كان يبتغيه ؟ أهو المال ؟ لقد كان مال خديجة بين يديه ، وهو من جهته لم يكن حريصا علي الاستزادة منه . أهو الشرف إذن ؟ لقد كان شريفًا في قومه ، مُحْتَرَما لذكائه وأمانته ومكانة أسرته ، التي كان بيدها مقاليد الكعبة ، فلِمَ يغامر بفقدان هذا كله في وقت كان يصعب عليه فيه بناء ثروته من جديد ، وهو الذي فقد ماله كما فقد أصدقاؤه مالهم في سبيل الدعوة ؟ ثم يمضي متسائلاً : لماذا يتحمل كل ألوان الاضطهاد إذن إذا كان نبيا زائفًا ؟[١٠]. أما في المدينة فقد تغيَّر ، في نظر الكاتب الأمريكي ، هذا كلُّه ، إذ بعد أن كان كل همه عليه السلام أن يجد من يحميه إذا به يري أتباعه يقدِّسونه ويري حوله جموعا بها رغبة إلي الحرب . عندئذ ثار طموحه الدنيوي وأصبح القرآن يسوغ له كل شيء ، ووقع في كثير من المتناقضات . باختصار : زال عنه صدقه وإخلاصه[١١].

---

(٩) انظر: Joseph Hubby, Christus- Manuel d' Histoire des Religions, p. 795 - 797 , 800 .
وهذا الرأي لإدمون پاور (Edmon Power) .

(١٠) Washington Irving, Mahomet and His Successors, p. 195 - 196.

وأحب أن أنبه القارئ أن إرفنج ومن علي شاكلته لا يؤمنون بنبوة محمد مع ذلك ، فبرغم أنه يدافع ، كما هو واضح ، عن صدق الرسول ، نراه يعزو اعتقاده عليه السلام في أنه رسول من عند الله إلي شدة تحمسه ، وإلي الوحدة التي كان يميل إليها ، وكذلك إلي مرضه الجسدي ورؤاه . فهذه الأشياء كلها قد جعلته ، في رأي إرفنج ، يتوهم أنه رسولٌ حقيقةً ، وبخاصة بعد أن عضدته زوجته وشجعه ورقة بن نوفل.

(١١) المرجع السابق/١٩٧ . والعجيب أن إرفنج يعود بعد صفحتين اثنتين لا غير فيعترف بأن نجاحه الساحق وانتصاراته عليه السلام لم تستتبع غرورا أو غطرسة ، لأنها لم تكن لصالح أهواء أو مصالح شخصية ، بل كانت لنشر الدين . فأي تناقض هذا ؟ بل إنه في نهاية ترجمته للرسول يعلن حيرته في الحكم الدقيق علي شخصيته عليه السلام(صـ١٩٩ – ٢٠٠)

هذه هي النظرية الأولي التي حاول ومازال يحاول غير المسلمين تفسير ظاهرة الوحي القرآني بها . ولقد رد القرآن هذه التهمة عن الرسول وبيّن الباعث عليها ، وذلك في الآية ٣٣ من سورة« الأنعام »إذ يقول: « فإنهم لا يكذّبونك ، ولكن الظالمين بآيات اللّه يَجْحَدون » . بيد أننا لن نلجأ هنا إلي مثل هذه الآية ، وإلا كان هذا مصادرة منا علي المطلوب ، فإن علينا أولاً أن نتأكد بالدليل القاطع من أن القرآن ليس اختراعا محمديا ، وإلا كان محمد هنا ، وهو المتهم بالكذب والتلفيق ، يشهد لنفسه ، وهي شهادة بالطبع مردودة ، بل سوف نلجأ في مناقشتنا لهذه النظرية إلي سيرة الرسول في مصادرها الأولي ، متتبعين ملامح شخصيته عن كَثَب ، غير ملقين بالاً ، من أخبار حياته وأخلاقه ، إلا لما لاح عليه نور الصدق بمنطق العقل المجرد . وسوف نحاول أن تكون الزوايا التي ننظر منها إلي شخصيته والموازين التي نقيس بها أعماله عليه السلام زوايا وموازين جديدة بقدر الإمكان حتي لا تتحول هذه الدراسة إلي مجرد مضغ لآراء من سبقونا من الكتاب والمفكرين، وإن لم نقصد بأي حال من الأحوال ، في ذات الوقت ، أن نغمطهم حقوقهم ، فمن المؤكد أننا لولاهم ما كنا ببالغي شيء ممّا بلغناه في هذه الدراسة.

لقد اشتهر الرسول بين قومه بالصدق والأمانة حتي لقد لقبوه بالأمين ، ولم أجد أحدا من المستشرقين شاحّ في هذا . والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام ، حين أعلن دعوته لعشيرته الأقربين أول مرة ، قد اعتمد علي استفاضة هذه الشهرة فيهم فلم يشأ أن يفاجئهم بالدعوة إلي الدين الجديد قبل أن يحصل علي اعترافهم الصريح بصدقه وأمانته ، إذ سألهم وهو واقف فوق أحد المرتفعات المحيطة بمكة « : أرأيتم لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا

(يقصد : خيلا مغيرة عليهم) أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ » فردوا جميعا في نفس واحد « : نعم . » عندئذ دعاهم إلي الإسلام . لكنهم ، ولمّا تَنْقَضِ ثوانٍ علي إقرارهم بصدقه وأمانته ، عادوا فسفّهوا حِلْمه وانفضّوا عنه[١٢]. وقد كان أبو بكر نسَّابة يعلم ماضي كلِّ إنسان في قريش وأسرته وأخلاقه ، فلو كان

[١٢] انظر تفسير البيضاوي للآية / ٢١٤ من سورة الشعراء . والملاحظ أن عبد الله ابن سلام ، وكان حبرا جليلا من أحبار اليهود ، اعتمد خطة مشابهة ، فلم يشأ أن يعلن إسلامه علي قومه قبل أن يسألهم الرسول عليه السلام عن رأيهم فيه ، فأثنوا عليه وعلي علمه ومنزلته ثناء مستطابا ، ليرجعوا فور نطقه أمامهم بالشهادتين فيرموه بكل منقصة . انظر « سيرة ابن هشام/٢ / ١١٨

يعرف أقل مغمز في شخصية الرسول ما دخل في الإسلام ، فضلا عن أن يسارع فيه بدون ذرة من تردد[١٣].

وقد بلغ من ثقتهم به أنهم كانوا يأتمنونه علي أموالهم وودائعهم حتي بعد البعثة واستحكام عداوتهم له . ولو كان المؤتَمَن أحدًا آخر غير محمد لكان خليقا أن يحمل معه هذه الودائع ليلة الهجرة بعد أن وصلت هذه العداوة حد التآمر الخسيس علي قتله . لكنه ، وهو الصادق الأمين بحق ، لم يستحل لنفسه منها دانقا ، بل خلّف وراءه ابن عمه وربيبَه عليا ، وكان لايزال صبيّا ، فنام في فراشه تضليلا لهم حتي أصبح الصباح فغدا عليهم فسلم لكل منهم ما كان ائتمن عليه محمدًا عليه الصلاة والسلام[١٤]. وهذه الأمانة وهذا الصدق في التعامل مع الناس لم يزايلاه لحظة واحدة طول حياته لا في مكة ولا في المدينة ، علي عكس ما يزعمه هؤلاء المستشرقون من أن تيار الأحداث بعد الهجرة قد جرفه بعيدا عما كان يحرص علي الاستمساك به من مثالية في مطالع الدعوة . ولنترك ابن هشام يرو عن ابن إسحاق بأسلوبه البسيط التلقائي القصة التالية: « قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأسود الراعي ، فيما بلغني ، أنه أتي رسولَ الله صلي الله عليه وسلم وهو محاصرٌ لبعض حصون خيبر ، ومعه غنم له كان فيها أجيرًا لرجل من يهود ، فقال : يا رسول الله ، اعرض عليّ الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم . وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يحقر أحدا أن يدعوه إلي الإسلام ويعرضه عليه . فلما أسلم قال : يا رسول الله ، إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال : اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلي ربها ، أو كما قال . فقال الأسود : فأخذ حفنة من الحصا فرمي بها في وجوهها وقال : ارجعي إلي صاحبك ، فوالله لا أصحبك أبدا . فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتي دخلت الحصن ، ثم تقدم إلي الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ... إلخ›› [١٥]. والشاهد

---

(١٣) سيرة ابن هشام ١ / ٢٣٢

(١٤) المرجع السابق / ٢ / ٩١ - ٩٣ .وانظر كذلك كيف أن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان قد وقع أسيرا قبيل الفتح في أيدي المسلمين بالمدينة ومعه تجارة قريش وأموالها ، إذ كان مؤتمنا فيهم ، قد حرص علي ألا يعلن إسلامه إلا في مكة . وبعد أن أطلق المسلمون سراحه بما كان معه من أموال ردها كاملة إلي أصحابها قائلاً إنه لم يمنعه من إعلان الإسلام عند حَمِيه عليه الصلاة والسلام إلا تخوفه من أن يظنوا أنه أراد أن يأكل أموالهم(ابن هشام / ٢ /٢١٨ – ٢١٩) ، وهو ما يدل علي أن الشبيه ينجذب إلي شبيهه . فهذا هو الخَتَن ، وذلك حَمُوه.

(١٥) ابن هشام / ٣ / ٢٢٢ .

فـي هـذا أن رسـول الله صـلـي الله عليـه وسـلم لـم يـرد أن يلـوِّث مسلم جديد إسلامه بمثل هذه الخيانة ، مع العلم بأنـه بعد انتصـاره علـي يهود خيبر قد حاز من أموالهم وأرضيهم وماشيتهم أضعاف أضعاف هذا القطيع من الغنم .ولكن غنم الأموال في حرب شريفة شيء ، واتخاذ الدخول في الإسلام تُكَأَةً لمثل هذا الاستيلاء الغادر عليها شيء آخر لا تقبلـه أخلاق الصادقين المطبوعين علي الأمانة والوفاء حتي مع ألدِّ الأعداء.

وقد كان موقفه عليه السلام ، حين نزل عليه الوحي أول مرة ، دليلاً من دلائل صدقه التي لا تقبل المماراة . لقد شك في مصدر هذا الوحي ورعب منه . وقصته حين عاد من الغار إلـي بيتـه لـيلا وهو يهتف: « دثـِّروني . دثـِّروني » أشهر من أن نحتاج إلي سوقها بالتفصيل[١٦]. ووجه العبرة فيها ، فيما نحن بصدده ، أنه لو كان كاذبا في أمر جبريل والوحي لكانت لـه فـي ميدان الكذب مراغم واسعة يستطيع أن يصول فيها ويجول كيفما شاء . لقد كان الأحري به ، لو كان مزيفا دجالا ، أن يدعي أن جبريل ، بدلا من أن يغُطّه مرات ثلاثا حتي كادت روحه أن تزهق ، قد أخذ بيده أخذا رفيقا حانيا ، وسمر معه سمر الأصدقاء المتفاهمين بدلا من هذا الأمر الخاطف الجازم الذي لم يستطع صلي الله عليه وسلم أن يفهم كُنْهَه ولا المقصود به:

« اقرأ» . كذلك كان الأحري به عندئذ أن يعود إلي بيتـه مبتسما منشرح الصدر . أليس يزعم أنه قد نزل عليه وحي من عند رب العالمين ؟ إذن فقد اصطفاه هذا الرب خليلاً ورسولاً ، وإذن فالنتيجة المنطقية لهذه الكذبة العريضة أن يشفعها بكذبة أخري عريضة مثلها تبين كيف أن ربه تجلي لـه شخصيا ، وكلمه مشافهة ، وربّت علي كتفه ... إلي آخر هذا الهراء الذي هو بالكاذبين الدجالين أقمن ، وبصدوره عن عقولهم ونفوسهم الملتوية أشبه[١٧].

إننا حين نسوق هذا الدليل لا نفعل ذلك لمجرد أننا مسلمون ، فقد قمت بهذه الدراسة المضنية لتبرئة ضميري أمام نفسي وربي أولا وقبل كل شيء ، لأني أحب أن أتثبت من كل ما أعتقد أنه حق علي قدر ما تسع طاقتي العقلية

---

(١٦) يمكن الرجوع إلي أي تفسير للآيات الأولي من سورة « المدثر. »

(١٧) قارنه في ذلك بمسيلمة الكذاب والقادياني والباب وبهاء الله ، وضع خوفه ورعبه جنب ثقتهم المطلقة بأنفسهم وادعاءاتهم التي تتجاوز حدود العقل والمنطق.

والنفسية من بحث وتقصّ وتقليب للأمر علي وجوهه المختلفة . ثم إننا قد رأينا ألفريد جيّوم ، وهو مستشرق بريطاني لا يؤمن بنبوة محمد عليه السلام ، يعتمد هذا المقياس دليلا علي صدقه ورغبته في التثبت من أن ما تجلي له في غار حراء إنما هو حق لا ريب فيه . وها هو ذا واشنجتن إرنج أيضا يستخدم هذا المقياس ذاته دليلا علي صدقه وأنه لم يشأ أن يستسلم من فوره لما كان يمكن ، من باب الاحتمال العقلي المجرد ، أن يكون ضربا من الوهم[١٨]. ليس ذلك فحسب ، فإن مكسيم رودنسون ، وهو الشيوعي الذي لا يؤمن أصلا بقوي روحية ويرجع بكل شيء إلي البيئة المادية أو أثرها في النفس الإنسانية ، لا يفوته أن يبرز هذه النقطة ، إذ يعترف بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد شك طويلا قبل أن يطمئن إلي أن الذي يأتيه هو وحي من عند الله[١٩]. وهذا الشك وهذه الرغبة في التثبت هما بدورهما دليل قوي لا يمكن رده علي أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتطلع قبل الوحي إلي أن يكون رسولا ، وذلك خلافا لما يدعيه بلا برهان بعض المستشرقين من أن حادثة نقل الحجر الأسود جعلته يعتقد أنه مدعوّ لحمل رسالة[٢٠]، إذ فضلا عن أن أحدا منهم لم يورد من حياة الرسول ولا تصرفاته دليلا واحدا ولو متهافتا علي ذلك ، فإن استعانة قريش بمحمد ، عن طريق المصادفة المحضة ، في فض خصومتهم حول نقل الحجر الأسود ، لا يمكن أن تستتبع منطقيا اعتقاده في كون ذلك نذيرا بأنه مدعو لحمل رسالة ما . إن

---

(١٨) إرفنج / ٣٢ .
مرة أخري أود أن أنبه القارئ إلي أن هذا الكاتب لا يؤمن بنبوة محمد ، ولكننا الآن نناقش نظرية « الكذب والتدجيل » ليس غير

(١٩) رودنسون ٧١ – ٧٣ . هذا ، ولن أقف عند الرواية التي تتحدث عن رغبة خديجة رضي الله عنها في التثبت من أن الذي يأتيه عليه السلام إنما هو ملاك لا شيطان ، لأني في الحقيقة لا أطمئن إليها كثيرا ، وهو ما من شأنه أن يقيم جسرا من الثقة بين كاتب هذه السطور وبين القارئ الذي يبحث عن الحقيقة أيا كان معتقده ، إذ إن معني ذلك ، فيما أقدّر ، هو أنني لا أسارع إلي اهتبال أية فرصة سانحة ، بغض النظر عن قيمتها البرهانية ، للتدليل علي صدق رسالة الإسلام .
أما سبب عدم اطمئناني لهذه الرواية فهو استبعادي أن تكون خديجة في أول الدعوة ، وكانت قريبة عهد بالوثنية ، قادرة علي التوصل إلي هذا المقياس الذي استطاعت به ، علي حسب الرواية ، أن تميز بين الملاك والشيطان . وهو يتلخص في أنه إذا ظهر للرسول صاحبه وهو جالس علي فخدها أو في حجرها بينما يختفي إذا ألقت خمارها فمعني ذلك أنه ملاك . ألم يكن الرسول أحري أن يتوصل هو إلي هذا المقياس ، وهو الذي كان يقضي من كل عام الليالي ذوات العدد في غار حراء يتأمل الكون ويتفكر في الملكوت باحثا عن الحقيقة ؟ ونفس الكلام ينطبق علي الرواية الأخري التي تقول إنها أدخلته عليه السلام بينها وبين درعها ، فذهب عند ذلك جبريل ، فكان ذلك دليلا عندها علي أنه ملك وليس بشيطان(ابن هشام / ١ / ٢٢٣)

(٢٠) Kellet, a History of Religions, p. 335.

عقل محمد لم يكن في يوم من الأيام بهذا التهافت ولا بهذه الفسولة في الربط بين المقدمات ونتائجها.

ويتصل بهذا مسألة فتور الوحي بعد الدفقة الأولي إلي الدرجة التي وجدها قومه فرصة لإيذاء مشاعره مدّعين أن شيطانه قد هجره[٢١]، فينزل الوحي مطمئنا الرسول إلي أن حب ربه له باق لم يتغير ، مما يدل علي أن أثر هذا الادعاء قد وجد إلي قلبه سبيلا . تري لو كان كاذبا دجالا فما الذي يجعله يتوقف عن ادعاء الوحي ولو باللغو الفارغ من القول أو بتدبيج المدائح الإلهية الملفقة في شخصه ؟ ولو افترضنا أنه قد فاته هذا فِلمَ يتأثر بمثل هذا الادعاء كما تشي بذلك سورة « الضُّحَي » ما دام يعلم من نفسه أنه كاذب وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون تلفيقا في تلفيق ؟ إن ما داخله من حزن بسبب تقولات قريش عنه إنما هو حزن الصادقين . إن هذه السورة ليست دفاعًا عن محمد ولا مدحا له ولا شتما لأعدائه ، وإنما هي طمأنة له في جملة قصيرة: « ما ودّعك ربُّك وما قَلَي » (الضحي / ٣) ، وتذكير بنعمة الله عليه وأنه كان يتيما فآواه الله ، ضالا فهداه سبحانه ... إلخ . وكيفما كان معني الضلالة والهداية هنا فإن هذا الكلام هو آخر شيء يمكن أن يصدر عن كاذب محتال في مثل هذا الموقف . ثم بعد الطمأنة والتذكير تأتي الأوامر الإلهية التي نحسّ فيها نبرة علوية لا يمكن أن تكون صادرة منه عليه السلام إلي نفسه.

وعندما تنجلي مرحلة القلق الأولي بشكوكها وتوتراتها نجد محمدا عليه الصلاة والسلام طيلة حياته قوي الإيمان بربه وبرسالته ، عميق اليقين والاطمئنان لدرجة مذهلة . إنه برغم ألوان الأذي التي صُبَّت عليه وعلي أتباعه علي قلتهم وغربتهم في بلدهم ، وبرغم صنوف المؤامرات وتتالي الحروب التي فُرِض عليه خوضها ضد جميع القوي في الجزيرة العربية وخارجها بعد هجرته إلي المدينة ، فإنه عليه صلوات الله وسلامه لم يتزحزح قِيدَ شعرة عن شيء من معتقداته . ثم إنه لو كان دجالا مخادعا فما الذي أجبره أن يبقي في مكة وحيدا مع أبي بكر وعلي حتي هاجر كل من

---

[٢١] انظر البخاري/١ / ١٩٧.

أراد الهجرة ؟ لماذا لم يَنْجُ بجلده أولاً ، ولْيَنْجُ من يريد أن ينجو بعد ذلك ؟ [٢٢].

وإذا كان إرنج قد جعل أحد ركائز اقتناعه بإخلاص الرسول وصدقه في المرحلة المكية تحمُّله عليه السلام لألوان الاضطهاد المختلفة[٢٣]، فإن مستشرقين آخرين يهوّنون من مسألة الاضطهاد هذه ويقولون إنها قد بولغ فيها كثيرًا . وفي رأيهم أنه لو كان ثمة اضطهاد بهذه الدرجة لانتقمت للمسلمين المضطَهَدين قبائلهم جريا علي عادة العرب في تعصب كل قبيلة لأبنائها.

وهؤلاء المستشرقون ينسون أن هذا التعصب لم يمنع أبا لهب مثلا وزوجته من إيذاء النبي والتحريض عليه ، ولا عمر من البطش بأخته وزوجها ، الذي كان هو أيضا من أقربائه الأدْنَيْن ، وأين ؟ في بيتهما . كذلك لم يمنع هذا التعصب قريشا أن تقاطع بني هاشم وتحاصرهم في شِعْب أبي طالب أشهرًا عدة ثقالاً باهظات . أم هل ينبغي أن نكذب هذا كله ونكذب كذلك الحجارة التي رشقه بها ، وهم يطاردونه ، صبيان الطائف وعبيدهم

وسفهاؤهم ، ولا أحد من سادتهم يتدخل لمنعهم ولو من باب المجاملة الكاذبة ؟ ثم هل ينبغي علينا أيضا يا تري أن ننبذ ما جاء في القرآن عن ائتمارهم به ليقتلوه عليه السلام؟ (الأنفال/٣٠) . لقد نسي هذا الفريق من الكتاب [٢٤] أن القبيلة العربية كانت تخلع عنها من يخرج علي تقاليدها وأعرافها . وأي خروج علي هذه الأعراف والتقاليد أشنعُ في نظرهم من دين يسفه أحلامهم وأحلام آبائهم مِنْ قَبْلِهم ، ويسخر من

---

[٢٢] قارن ذلك بفرار كل من عكرمة بن أبي جهل يوم فتح مكة وصفوان بن أمية وتَرْكه زوجته وأولاده ، وهروب عدي بن حاتم الطائي إلي الشام ، عند اقتراب جيوش المسلمين من بلاده ، علي إبل كان قد أعدها لذلك اليوم وتَرْكه مُلْكه وأخته ، التي منّ عليها النبي بإطلاق سراحها فذهبت إلي أخيها في مهربه ولامته لوما شديدا (ابن هشام ٤ / ٤٥ ، ١٦٦) .

[٢٣] إرفنج / ٣٥ ، ١٩٦.

[٢٤] انظر چوزيف هبي / ٧٨٣ ، وألفريد جيوم / ٣٤ ـ ٣٥.

أسلوب حياتهم وأصنامهم ومعتقداتهم التي ضربت بجذورها الحديدية في نفوسهم جيلا بعد جيل ؟ لقد بلغ من إصرار قريش علي محاربة الإسلام وأتباعه أن تَعَقّبَتْهم خارج حدود الجزيرة العربية حين تركوا لها الجمل بما حمل وفروا إلي الحبشة نجاة بحريتهم في الاعتقاد وبحياتهم وأولادهم ، فأرسلت إلي النجاشي تحاول ، عن طريق الهدايا والتملق والإيقاع بينه وبين هؤلاء المهاجرين المستضعفين ، إقناعه بإرجاعهم إلي بلادهم . ولا أظن عاقلاً يتوهم ولو للحظة أن قريشا كانت حريصة علي استعادتهم لتفرغ عليهم حنانها وتذرف دموع الندم عند أقدامهم . ولولا أن النجاشي كان ملكا عادلا ومتعاطفا مع هؤلاء المساكين لدرجة أنه قد دخل معهم في دينهم لعادوا كرة أخري إلي التضييق والتعذيب . ومما يعطيك فكرة عن مدي خوف هؤلاء المهاجرين من قريش أنهم لم يرجعوا نهائيا إلي إخوانهم المسلمين إلا بعد أن هاجر هؤلاء إلي المدينة بعد سنين وأصبحت لهم دولة وشوكة[٢٥] .

أما في المدينة فكلنا يعرف أن حياة الرسول والمسلمين كانت كلها كفاحا متصلا ضد قوي الكفر والطغيان والنفاق سواء أكان ذلك في داخل المدينة أم خارجها ، وفي

---

[٢٥] انظر تفسير ذلك في " سيرة ابن هشام " / ٢٨٩ – ٢٩٣ و الذي حدي بي إلي تصديق رواية إسلام النجاشي ليس مجرد ورودها في المصادر الإسلامية ، بل التفصيلات التاريخية و التصوير الواقعي لهذه الفترة الحاسمة من تاريخ الحبشة بما فيها من منازعات استمرت زمنا بين النجاشي و شعبه . فمثل هذه التفصيلات و إيرادها علي هذا النحو الذي يقتنع به منطق العقل و التاريخ و الطبيعة البشرية ، و بالذات المشهد الذي ضم النجاشي و بطارقته و رسولي قريش (عمرو بن العاص و عبد الله بن أبي ربيعة) و المسلمين المهاجرين و علي رأسهم جعفر بن أبي طالب و دارت فيه المناقشات حول طبيعة المسيح عليه السلام كما يعتقد المسلمون ،و هياج البطارقة عندما أمَّن النجاشي علي ما تلاه جعفر من سورة "مريم " متعلقا بهذه القضية ، تبدو جد مقنعة ، وإلا فلو كان الرواة كاذبين لزعموا أيضا أن هرقل ، وكانت له قصة تحتوي علي مثل مشهد النجاشي مع القرشيين من بعض الوجوه ، قد دخل الإسلام ، أو أن أبا طالب ، وهو عم الرسول و حاميه ، قد أسلم ولو سرا . كذلك لو أن الأمور في الحبشة مرت علي غير هذا النحو لوصلتنا رواية مناقضة علي لسان عمرو بن العاص و ابن أبي ربيعة ، فإن الكتاب المسلمين مشهورون بالاستقصاء إلي درجة مرهقة . و انظر
"Dezobry & Bachelet , Dictionnaire de Biographie , d`histoire , de Geographie,des Antiquités et des institoires " , t. 2 ,p. 1683
مادة ("Mahomet") حيث يجد القارئ أن أصمخة نجاشي الحبشة رفض أن يعيد المهاجرين إلي مكة و اعتنق الإسلام سرا . ولا بأس أن أشير هنا إلي ما يقوله إرفنج من أن النجاشي لم يجد في رأي الإسلام في المسيح عليه السلام ، كما شرحه جعفر بن أبي طالب ما يخالف مذهبه النسطوري (ص ١٠٠ – ١٠١) و لكن إذا كان هذا صحيحا فلم هاج القساوسة ، في المجلس الذي عقده النجاشي للاستماع إلي عقيدة المسلمين اللاجئين إلي بلاده ،عندما أمَّن علي ما يتلي من قرآن ؟ كذلك فإن النساطرة لا يؤمنون للمسيح بطبيعتين فقط بل يؤمنون أنه شخصان أحدهما إلهي ، و هو ابن الله ، و إن كان لهذين الشخصين مظهر واحد فقط . فأين هذا مما تلاه جعفر علي النجاشي من آيات تنص علي أنه عليه السلام هو "عيسي ابن مريم "و أنه "عبد الله " و أن الله قد جعله نبيا ....الخ ؟ وانظر في عقيدة النساطرة مادة "Nistorians"
في "Hook`s Church Dictionary"

نطاق الجزيرة أم علي تخومها مع الدولة البيزنطية . إن المستشرقين عادة ما يتهمون الرسول بالعدوان علي الآخرين ، ولكن وقائع التاريخ تكذّب ذلك [٢٦] .

تري لو كان الرسول كاذبا فما الذي يضطره لتحمل كل هذا العناء والاضطهاد والاستهداف لعدوان قوي الشر وتآمرها عليه ؟ إن آية صدقه أنه ظل وفيا لعقيدته رغم هذه المحن المتلاحقة ، سواء في حالة الضعف والتعرض للإيذاء أو في حالة القوة والمقدرة علي رد العدوان ، فلم يهن ولم يتبدل . ولو كان كاذبا لَنَكَلَ عن هذا الطريق بعد قليل . ومع ذلك فإن المستشرقين يَأْبَوْن إلا أن يتهموه في قوة إيمانه برسالته وبالوحدانية المطلقة التي هي محور هذه الرسالة ، متشبثين في ذلك تشبثا غريبا برواية ضعيفة لا تثبت علي محك النقد التاريخي أو المنطقي تزعم أنه عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام قد قدم لقومه بعض التنازلات المتعلقة بعقيدة الوحدانية بُغْيَة كسبهم إلي صفه ، وذلك بعد ما يئس من أن يتّبعوا دينه علي ما هو عليه من عداء للأصنام والوثنية ، فأورد آيتين يمجد فيهما اللات والعُزَّي ومناة ويعلن أنها مناط الشفاعة يوم القيامة . ويستبعد ألفريد جيوم أن تكون هذه الرواية مصنوعة ، وإلا كان معني ذلك أن المسلمين قد أرادوا الإساءة إلي الإسلام والرسول ، وهو ما يستبعد العقل صدوره من المسلمين المخلصين كما يقول [٢٧] . أما مكسيم رودنسون فإنه يورد القصة بشيء من التفصيل بناء علي بعض المرويات الإسلامية ، ثم يعقب عليها بقوله إن القرشيين عندما سمعوا هذه الآية (يقصد هاتين الآيتين) سُرّوا سرورا عظيما وسجدوا جميعا مسلمين ومشركين [٢٨] .

---

[٢٦] انظر مثلا : Moulana Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular Jihad. وهي دراسة مستقصية لهذه القضية ، وإن خالفناه في بعض آرائه المتعلقة بحروب الخلفاء الراشدين مع القوتين العظميين في ذلك الوقت : فارس والروم . وانظر كذلك Mirza Abul Fazl , Life of Mohammed .
وقد أشرت إلي هاتين الدراستين بالذات لسببين : أولهما أنهما مكتوبتان بلغة أوروبية ، بحيث يستطيع مطالعتهما المستشرقون جميعا : من يعرف العربية منهم ومن لا يعرفها بل يعتمد علي كتابات عارفيها ، والآخر أن ثاني هذين الكاتبين، علي الأقل، ينتمي لطائفة الأحمدية ، وهي موضع اتهام من بقية المسلمين لممالأتها الإنجليز في أيام استعمارهم للهند واستظلالها بحمايتهم وترويجها لفكرة نسخ الجهاد . فلو أن المسلمين الأوائل كانوا هم المعتدين لما انبري مثل هذا الكاتب للدفاع الحار عنهم والبرهنة القاطعة علي أنهم هم المظلومون المعتدي عليهم . وهناك مستشرق روماني اسمه Virgil Gheorghieu قد ألف سيرة للنبي عنوانها في الترجمة الفرنسية "La Vie de Mahomet" ، وفيها يعرض الصراع بين الإسلام وقوي الكفر من وثنية ويهودية ونصرانية عرضا معتدلا لم يتجاهل فيه تلك الوقائع التاريخية الثابتة أو يلو عنقها كما يفعل كثير من المستشرقين

[٢٧] جيوم / ٣٥

[٢٨] رودنسون / ١٠٦ . ولابد من القول بأن الكاتبين قد أشارا إلي أن الرسول سرعان ما رجع عما قاله ونَبَذَ هاتين الآيتين . انظر كذلك كِلِتْ / ٣٣٧ ، وچوريف هبي / ٧٨٤ ، ٢٢٩، و Allan Menzies , History of Religion,

وقبل أن نناقش هذه الآراء أحبُّ ألا تفوتني الإشارة إلي أن بعض المستشرقين ، مثل كايتاني المستشرق الإيطالي ، قد رفضوا قبول هذه الرواية [٢٩]، وهو ما يأخذ به المسلمون بعامة ، وبخاصة المعاصرون منهم : تقليديوهم وعقلانيوهم علي السواء [٣٠] . والآن إلي مناقشة هذه الرواية . وأول شيء أفضل أن أتناوله هو ما ساقه جيوم مما ظنه حجة قاطعة علي صحتها ، إذ ما أدراه أن المسلمين المخلصين هم الذين وضعوا هذه القصة ؟ إن ابن إسحاق بن خزيمة قد عزاها دون تردد إلي بعض الزنادقة[٣١] ، علاوة علي أنها لم ترد في ابن هشام ولا في أي من كتب الصحاح علي هذا النحو . ومع ذلك فإني لن أعتمد علي شيء من هذا ، إنما سأعتمد علي التحليل المنطقي لمضمون الرواية ذاتها وللملابسات التاريخية التي أحاطت بأحداثها ، وهو منهجي العام في هذه الدراسة بل في كل ما أكتبه عادة . إننا لو أعدنا قراءة ما كتبه رودنسون في هذه المسألة فسنجد أن المسلمين والمشركين جميعا لدي سماعهم هاتين الآيتين قد خروا إلي الأرض سجّدا بهجة وسرورا . وإني في الحقيقة لا أدري كيف ولا لِمَ يسجد هؤلاء أو أولئك عند هاتين الآيتين : فأما المشركون فإني لم أقرأ قط أنهم كانوا يسجدون لأصنامهم . وإليك القرآن ، وإليك ابن هشام ، وقد تناول عبادة الأوثان في جزيرة العرب بالتفصيل ، وإليك كذلك ابن الكلبي ، الذي خصّ هذا الموضوع بكتاب مستقل هو كتاب « الأصنام » ، وقلّب هذه المصادر كلها علي مهل كما يحلو لك ، فلن تجد أن مشركا قد سجد لصنم . لقد كانوا يطوفون بالحجارة والأصنام والكعبة ، وكانوا يبنون البيوت لهذه الأصنام ويعينون لها السدنة ، ويُهْدُون إليها ، ويتقربون إليها بالذبائح ، ويَقْسِمون لها من أنعامهم وحرثهم ، ويحجون إليها ويحلقون رؤوسهم عندها ، ويتمسحون بها ، ويجعلون ما حولها حِمًي ، ويستقسمون لديها بالقداح ، ويُقْسمون بها ويتسمَّون بعبد اللات وعبد مناة ... إلخ ، ولكن لم يرد في أي منها أنهم كانوا يسجدون لصنم أو وثن ولا حتي في الكعبة . فإذا كانوا لا يسجدون عندها فكيف سجدوا إذن عند مجرد سماعهم أسماء اللات والعزي ومناة في آية

---

p. 229 ، وشارل لودي / ١٠٠ . أما بلاشير فإنه في الفصل الذي عقده في الجزء الثاني من كتابه "Histoire de la Litterature Arabe" يشير، فيما يبدو، إلي هاتين الآيتين ، ولكن علي نحو خاطف وامض (انظر كتابي « المستشرقون والقرآن » / ٨٢ ، وتعقيبي السريع عليه / ص٢٣٦ هـ٣ من نفس الكتاب) . والملاحظ أنه في ترجمته للقرآن لم يشر ، عندما بلغ هذه الآيات من سورة « النجم » ، إلي هذه الرواية من قريب أو بعيد علي رغم كثرة الهوامش التي أضافها إلي تلك الترجمة

[٢٩] جوزيف هبي / ٧٨٥.

[٣٠] راجع مثلا د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / ١٦٠ ـ ١٦٧ . أما الشوكاني فإنه يورد حديثا مؤداه أن المشركين عند مجرد سماعهم لقوله تعالي : «أفرأيتم اللات والعزي $ ومناة الثالثة الأخري ؟ » خروا ساجدين . والملاحظ أن هذه الرواية لا يوجد فيها أية إشارة إلي الآيتين المزعومتين : «إنهن الغرانيق العُلَي $وإن شفاعتهن لترتجي » (انظر الشوكاني / مجلد ٢ / جزء ٣ / ص ٩٧) .

[٣١] د . هيكل / ١٦٢.

قرآنية ؟ والمسلمون : ما الذي يجعلهم يسجدون عند ذكر هاتين الآيتين ؟ إن هاتين الآيتين ليستا موضع سجدة ، ومواضع السجدة في القرآن معروفة ولها قاعدتها التي لا تنطبق علي هاتين الآيتين ولا علي الآيات التي نزلت بعد ذلك ، بناءً علي هذه الرواية ، لتنسخها . والعجيب أن رودنسون ، الذي تحمس تحمسا شديدا لنقل هذه الرواية وما جاء فيها من أن القرشيين جميعا ، مسلمين ومشركين ، قد سجدوا لدي سماعهم هاتين الآيتين ، يعود بعد أقل من صفحة فيعزو رجوع محمد عليه السلام عن هذا التخاذل إلي تمرد المسلمين وحنقهم ، وهو ما لم يحدث . فهل ثمة اضطراب في الرواية أشنع من ذلك ؟ [٣٢] هذا علي الرواية كما عرضها رودنسون ، أما الدكتور هيكل فيقول إن الرسول بعد أن تلا الآيتين موضوع بحثنا مضي وقرأ السورة كلها وسجد في آخرها . هنالك سجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبي وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم[٣٣]. فالسجود إذن ، علي هذه الرواية ، لم يقع إلا في آخر السورة أي عند قوله تعالي : « فاسْجُدوا للّه واعبُدوا » لا عند سماع الحاضرين الآيتين المشار إليهما . وهو علي هذا النحو مفهوم من المسلمين ، أما من المشركين فكَلاَّ ، إذ إنهم لم يتعودوا السجود لأصنامهم ولا لله ، وليس يُعْقَل أن ينقبلوا هذا الانقلاب الفجائي لمجرد أن محمدا ذكر بعض أصنامهم بخير . علي أن هذا ، برغم كل شيء ، لا يهمني كثيرا ، بل المهم هو أن السورة كلها من أول آية فيها إلي الآية الأخيرة ترفض هاتين الآيتين بعنف كما يرفض الجسم عضوا غريبا عنه لا يمكنه التفاعل معه . إن الدكتور هيكل يرد هاتين الآيتين لأن الآيات التي تتلوهما تجري هكذا: « ألَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنْثي ؟ $ تلك إذن قِسْمَةٌ ضِيزَي $ إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ . إن يتبعون إلا الظنَّ وما تَهْوَي الأنفُس . ولقد جاءهم من ربِّهم الهدي » . وهي ،كما تري ، تعيب هذه الأصنام ، فكيف يتعاقب مدح وذم علي مثل هذا النحو ؟ [٣٤] والحقيقة أنه لا يُسْتَبْعَد أن يردّ مُورِدُو هذه الرواية ومشايعوهم بأن هذه الآيات الثلاث إنما جاءت في موضع الآيتين المشار إليهما فنسختهما ، ولم تكن موجودة منذ البداية[٣٥]. ومن ثم فإنـي لا أعوّل

[٣٢] رودنسون / ١٠٧.

[٣٣] د . هيكل / ١٦٠ ـ ١٦١.

[٣٤] د . هيكل ص / ١٦٥ .

[٣٥]) انظر مثلا ألفريد جيوم / ٣٦ ، حيث يقول: « وعندما حذف محمد هذه الكلمات (يقصد الآيتين المزعومتين) وأكد أن هذه الآلهة لا حقيقة لها(يقصد قوله تعالي: « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... إلخ») كان غضب أهل مكة أعظم من ذي قبل . وهو ما يوحي بأنه يري أن الآيتين المشار إليهما قد نسختا وحلت محلهما الآيات التي تعيب هذه الآلهة الزائفة . ومع ذلك فإن جيوم يري أن عدول الرسول عن هاتين الآيتين وعودته إلي

كثيرًا علي التناقص بين الآيات المتعاقبة التي تتحدث عن اللات والعزي ومناة مدحا وقدحا قدر تعويلي علي تحليل مضمون السورة كلها والجو النفسي الذي يخيم عليها من مفتتحها إلي مختتمها ، وهو جو عداءٍ مستحكم بين الرسول وقومه : فالآيات(١-١٨) ترد علي تكذيب قريش للنبي عليه الصلاة والسلام ورميهم إياه بالضلالة والغواية واتباع الهوي . وإن القارئ المتذوق ليلمح عنف الرد في قسمه سبحانه بـ « النجم إذا هوي » ، الذي يشير في رأيي إلي تهديد القرآن لمشركي مكة بأنهم سيلاقون مصير النجوم حين تنخلع من مداراتها التي كانت مستقرة فيها علي مدي الأحقاب المتطاولة وتهوي متبددة في الفضاء اللانهائي . كذلك يتبدي عنف الرد في التفصيل الذي تحدثت به الآيات عن تجلي الوحي للرسول ، وفي تعدد الصفات التي وُصِف بها جبريل عليه السلام ، وفي إعادة التأكيد علي أن ما رآه محمد عليه السلام حين نزول الوحي عليه إنما هو حق لا مرية فيه . ولا يَفُوتَنَّ القارئَ إشارةُ الآيات الأخيرة من هذه المجموعة(١٣ – ١٨) إلي حادثة المعراج ، وهي الحادثة التي كذّب بها أهل مكة تكذيبا شديدا . وإذا قفزنا فوق الآيات التي تتحدث عن الأصنام الثلاثة فإننا سنجد أن الله عز وجل ينفي أن يكون لملك من الملائكة أية شفاعة إلا بعد إذن الله ورضاه ، ثم تعود الآيات فتتهكم بمن يؤنثون الملائكة بلا علم أو تثبت ، وتأمر الرسول بالإعراض عنهم لتوليهم عن ذكر الله ولهاثهم وراء الحياة الدنيا [٣٦] أما الآيات (٣٣- ٥٨) فإنها تتحدث عن أحد القرشيين المفتونين بثرواتهم والباخلين مع ذلك بها ، وتقرّعه تقريعا شديدا مسفهة اعتقاده المنحرف في الجزاء والمسؤولية الأخلاقية ، ومهددة إياه بمثل مصائر عاد وثمود وقوم نوح، ومعلنة بصوت مجلجل أن هذا ليس إلا نذيرا من النُّذُر الأولي وأن ساعة الغضب الإلهي والعقاب المزلزل قد دنت . ثم تنتهي السورة بالتعجب من تكذيب قريش للرسول وللقرآن وتصلُّب قلوبهم حتي إنهم ليضحكون ولا يبكون ، وتأمرهم أمر تقريع وتهديد بأن« اسجدوا للّه واعبدوا ». أيمكن أن يَرِدَ في مثل هذا السياق الفكري والنفسي آيات تمجد بعض آلهة قريش ؟ إن ذلك هو المستحيل بعينه .ثم لو قبلنا جدلا أن هذا ممكن ، فكيف فات قريشا أن

تأكيد مبدإ الوحدانية دليل قوي علي صدقه وإخلاصه . ويري نفس هذا الرأي E. R. Appleton صاحب كتاب "An Outline of Religion for Children" (ص/ ٥٢٢) .والكتاب ، وإن كان مكتوبا للأطفال ، فإنه يتناول موضوعا أكبر من مداركهم ، بل إن مراجعه في الفصل الذي خصصه لدراسة الإسلام هي من طراز " Heroes and Hero-worship" لكارلايل و "A Short History of the World". ولذلك يراني القارئ قد جعلت هذا الكتاب من مراجعي.

[٣٦] هذا ، ولن أتعرض للآية الثانية والثلاثين لأنها ، عند علماء القرآن ، آية مدنية . وهي تتناول نقطة تفريعية متعلقة بالآية السابقة ، وليس فيها علي كل حال ما يصادم من قريب أو من بعيد أي شيء مما قلناه أو سنقوله عن تركيب هذه السورة وجوها النفسي . انظر في مدنية هذه الآية مثلا «القرآن المجيد » لمحمود الشرقاوي صـ٥٠ .

السورة جمعاء هي حملة عنيفة عليهم وعلي موقفهم من الدعوة الجديدة وتسفيه لعقولهم وتهديد جليّ لهم وانخدعوا ببعض كلمات معسولة عن آلهتهم وسجدوا مع المسلمين؟

فهذه واحدة . والثانية أن الآيتين المزعومتين تجعلان الآلهة الثلاث مناطا للشفاعة يوم القيامة ، وهو ما لم يسنده القرآن علي هذا النحو لأي كائن مهما تكن منزلته عند الله . ولماذا نذهب بعيدا ، وثمة آية في سورة « النجم » ذاتها لا يَفْصِلها عن الآيتين المزعومتين إلا خمس آيات جد قصيرة نصها كالآتي: « وكم من مَلَكٍ في السمواتِ لا تُغْنِي شفاعتُهم شيئا إلا من بَعْدِ أن يأذنَ اللهُ لمن يشاء ويَرْضَي » ؟ (النجم / ٢٦) .فكيف يقال هذا عن الملائكة في ذات الوقت الذي تؤكد فيه إحدي الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة السالف ذكرها جديرة بالرجاء من غير تعليق لها علي إذن الله ؟

أما النقطة الثالثة فهي أن الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليم لم يكن من شيمته التردد حتي يقال إنه قد تذبذبت قدماه في منتصف الطريق وتراجع عن بعض مبادئه . إن صلابة استمساكه بدينه لهي مضرب المثل في صفاء اليقين والشجاعة المثلي . بل إنه لم يؤثر عنه مثل هذا التذبذب ولا في الحرب حيث يعيد الإنسان دائما حساباته . ولقد رأيناه (وقد لبس لأمَته ووافق علي الخروج لملاقاة مشركي قريش خارج المدينة عندما عزموا علي مهاجمتها في غزوة أحد ، وكان يري البقاء فيها والتحصن بداخلها) يرفض الرجوع حين أبدي الندمَ من خالفوه في التحصن داخل المدينة ، قائلا قولته الشهيرة: « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَته أن يضعها حتي يقاتل »[٣٧] فما عدا إذن مما بدا ؟ ومن قبْلُ ترجّاه عمه أبو طالب أكثر من مرة أن يخفف من موقفه تجاه الأصنام وعُبَّادها فرفض رفضا قاطعا وصاح قائلا: « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر حتي يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »[٣٨] . أفبعد أن عضدّه عمُه كل هذه المدة ، وبعد أن وقف معه بنو هاشم وبنو المطلب مسلمُهم وكافرُهم (إلا أبا لهب) وتحمّلوا من أجله قسوة الحصار والمقاطعة في الشِّعْب شهورا عددًا ، يتراجع هو هذا التراجع المشين ؟ ومتي ؟ بعد أن عزَّ الإسلام بدخول اثنين من صناديد مكة فيه :عمر بن الخطاب[٣٩]

---

[٣٧] ابن هشام / ٣ / ١٦ ـ ١٧.

[٣٨] المرجع السابق / ١/ ٢٤٠ .

[٣٩] يخطئ شارل لودي (Ch. Ledit) هنا خطأ تاريخيا فاحشا ، إذ يؤخر إسلام عمر إلي مابعد حادثة الغرانيق المزعومة ، ويجعل لدخوله في الدين الجديد تأثيرا حاسما علي شخصية الرسول ، إذ بتّ عندئذ علاقته تماما بالأصنام وأصبحت دعوته خالصة للوحدانية حسبما قال (ص/ ٩٦ – ٩٧) . بل إنه أيضا يجعل سورة « الكافرون » تصحيحا لما جاء في سورة « النجم » قبل التعديل المزعوم الذي جري فيها . والصواب هو أن سورة « الكافرون » قد نزلت قبل سورة « النجم» ، لم تشذ عن ذلك رواية من الروايات التي وردت في الكتاب الأول من "مقدمتان في علوم القرآن" (نشر آرثر چفري / ٨ ، ١١) خاصة بترتيب سور القرآن علي حسب النزول . فتأمل ! وانظر كذلك « الإتقان » للسيوطي (١٣/١ ، ١٤)

وحمزة بن عبد المطلب ، وأخذ يفشو بين القبائل . ثم ما الذي دفعه إلي هذا التنازل وقد أتاه عتبة بن ربيعة موفدا من زعماء قريش يعرض عليه ، علي طبق من ذهب ، المال والرئاسة فرفض أن يجيبه ، مكتفيا بقراءة صدر سورة « السجدة » بآياته التي زلزلت قلب عتبة حتي لقد رجع إلي أصحابه بوجه غير الذي انصرف به عنهم ؟ [٤٠] . إن الرسول لم يتساهل يوما في مسألة التوحيد ، حتي ولا عندما كانت العرب تتهاوي أمام دعوة الإسلام قبيلة إثر قبيلة ، واتضح تماما أن دين الله غالب لا شك في ذلك . لقد أعفي قوما مثلا من الزكاة ، وأعفي بعض الناس من الالتزام بخمس صلوات كاملات ، ولكنه لم يوافق ثقيفًا علي أن يُبقي لها وثنها ولو شهرا واحدا يستطيع بعده أن يفعل به ما يشاء[٤١]. إنه لم يشأ التدرج في هذه المسألة مع ما عُرف عنه من أنه كان كثيرا ما يأخذ الناس به . فإذا كان لم يوافق علي شيء من ذلك ، وهو أقل ألف مرة من تمجيده بنفسه وفي قرآنه اللات والعزي ومناة واعترافه بأن شفاعتهن مرتجاة ، وكان ذلك في أواخر حياته وتمكُّن سلطانه واطمئنانه إلي أنه لا ردة بعد ذلك إلي الوثنية، فكيف مالأ الكفارَ علي وثنيتهم وهو لا يزال في أول الطريق وكله حماسة ونار مشتعلة ؟ ثم أيكون أتباعه الذين فروا بدينهم من تعذيب قريش إلي الحبشة أشجع منه وهم الذين كانوا يستمدون منه الثقة والإيمان والصبر علي البلاء ؟ لقد صمدوا في وجه المؤامرة التي دبرها لهم رسولا قريش عند النجاشي وبطارقته ، إذ جيء بهم ليعرضوا علي الملإ في البلاط الملكي دينهم وعقيدتهم في عيسي عليه السلام فلم يكتموا منها حرفا وهم الأغراب المشرَّدون المحتاجون إلي تملق مشاعر مضيّفيهم ولو عن طريق التعبير الروّاغ عن رأي الإسلام في المسيح صلوات الله وسلامه عليه.

لقد ذكر ابن السائب الكلبي في الصفحة التاسعة عشرة من كتاب« الأصنام »أن قريشا كانت تطوف بالكعبة وتقول: « واللاتِ والعُزّي ، ومناةَ الثالثة الأخري ، فإنهن الغرانيقُ العلي ، وإن شفاعتَهن لتُرْتَجي » ، وأنها كانت تعتقد أنهن بنات الله(عز وجل عن ذلك) وأنهن يشفعن إليه ، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه: « أفرأيتُم اللاتَ والعُزّي $ ومناة الثالثة الأُخري ؟ $ ألكم الذّكَرُ وله الأنثي ؟ $ تلك إذن قِسمة ضيزَي $ إنْ هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها مِنْ سلطان» . والحقيقة أن هذا هو الأشبه بأن يكون هو الصواب . ويبدو أن أحد الزنادقة قد أخذ هذه الرواية وحرفها ، واضعا كلام قريش في أصنامها علي لسان الرسول عليه الصلاة والسلام . ولنفترض أننا بعد هذا كله قد ضربنا عُرْضَ الحائط بكل هذا التحليل التاريخي والنصّي ، وقلنا إن هذه الآيات قد جرت فعلا علي لسان الرسول ، فهل يعني ذلك تذبذبا في إيمانه ؟ أم هل الأحري أن نفسرها بأنها زلة لسان مما نقع فيه جميعا كل يوم ، وعذره أن هذه الكلمات المزعومة ، من كثرة ما كان

للتأكد من هذه الغلطة البلقاء المريبة ! وأيضا « القرآن المجيد » لمحمود الشرقاوي (ص / ٥٠ ، ٦٥ ، ٥٥ بهذا الترتيب) ، ولسوف تري بعد هذا الاستقصاء أن « النجم » قد نزلت بعد « الكافرون » لا العكس.

[٤٠] انظر ابن هشام / ١ / ٢٦١ ـ ٢٦٢.

[٤١] المرجع السابق / ٤ / ١٣٧.

القرشيون يرددونها أمامه ، قد علقت بذهنه فجري بها لسانه في لحظة من لحظات السهو ولكنه سرعان ما تنبه لها فتراجع عنها قبل أن تلصق بدينه ؟ أقول هذا برغم تفنيدي لها ، وذلك قطعا للطريق علي ذوي اللجاجة المكابرين . ولكي أخفف المسألة علي ضمير المسلم أذكّره بزلة اللسان التي وقع فيها أحد المؤمنين الأتقياء ، وكانت قد ضلت ناقته كما جاء في الحديث الشريف ، فلما وجدها انطلق لسانه ليشكر ربه ، الذي ردها عليه، فإذا بـه من شدة الفرحة يضطرب قائلا: « شكرا ياعبدي ! أنا ربك »، والمقصود العكس طبعا . وهي ، لو حاسبناه علي طريقة المستشرقين ، أفدح من زلة اللسان المفترضة في رواية الغرانيق.

فإذا انتقلنا إلي المرحلة المدنية ، وهي التي يتهمه من يسلّم من المستشرقين بصدقه وأمانته في النصف الأول من تاريخ الدعوة بأنه اطّرح عن ضميره فيها مؤنة الصدق والأمانة ، وجدنا أن أهم ما اتُّهم صلي الله عليه وسلم به هو قسوته علي اليهود ، وعدم احترامه للمعاهدات التي عقدها مع المشركين ، وتساهله(مرة أخري ، لاحظ) في قضية الوحدانية ، إذ أبقي في فريضة الحج علي بعض الشعائر الوثنية ، ثم الانغماس في شهوات الجنس.

فأما بالنسبة لموقفه من اليهود فقد أدخلهم عليه السلام في المعاهدة التي عقدها مع كل الأطراف الموجودة في المدينة آنذاك وسوّي فيها بين الجميع ، وألزمهم أن يكونوا يدا واحدة علي من يريدهم بِشَرّ . ولم تكن هذه التسوية ، بالنسبة لليهود ، مع غيرهم من سكان المدينة فقط ، بل مست أيضا علاقتهم بعضهم ببعض ، إذ كانوا في الجاهلية ، قبل أن يقدم عليهم النبي عليه السلام ، متعادين منقسمين يري فريق منهم أن له فضلا وعُلُوًّا علي إخوان الدين والوطن حتي في الديَّات ، فأبطلت المعاهدة هذا كلَّه . فإذا أضفنا إلي ذلك أن النبي لم يجبرهم علي الدخول في الإسلام تبين لنا كيف أن ما ابْتُلِيَ به الرسول والمسلمون من قِبَل هؤلاء القوم من غدرٍ كان سخفًا شديدًا فوق كونه خيانةً لا تغتفر . ولقد كان الرسول رحيما مع بني النَّضير وبني قَيْنُقاع فاكتفي بالعقوبات المالية إلي جانب الطرد ، إلي أن جاء دور بني قُرَيَظْة ، وكانت جريمتهم هي الخيانة العظمي ، إذ انقلبوا أثناء حرب الخندق علي المسلمين برغم أُخُوّة الوطن وبرغم المعاهدة الوثيقة التي كانت تربطهم بهم ، يريدون أن يستأصلوا شأفتهم ويمحقوهم مع دينهم محقا ، مع أن هذه المعاهدة كانت توجب عليهم أن يحاربوا مع المسلمين [٤٢] فما الذي كان ينبغي علي الرسول أن يفعله ؟ هل كان عليه أن يربّت علي ظهورهم ويعتذر لهم عمّا ارتكبوه من خيانة بشعة في حقه وحق دينه وحق المسلمين ؟ إن أحد المستشرقين مثلا يتعجب كيف أن دينًا يدّعي أن إلهه هو الرحمن الرحيم يفعل ببني قريظة ما فعله الرسول[٤٣] ، متجاهلا أنهم قد خانوا العهد ، وكان تخطيطهم أن يزيلوا الإسلام والمسلمين من علي وجه الأرض . فمَنِ الجديرُ إذن بأن يشعُر تجاهه هذا المستشرق بالرثاء ؟ إنهم المسلمون بكل تأكيد ، الذين لو ، لا قدر

---

[٤٢] انظر نص المعاهدة في ابن هشام (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٨) . وانظر كذلك Virgil Gheorghiu في كتابه " La Vie de Mahomet " (ص/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) .
[٤٣] ألفريد جيوم / ٤٨.

الله ، استطاع اليهود تنفيذ خطتهم التي اشتركوا فيها مع قوي الشرك والوثنية من جميع أرجاء الجزيرة العربية وقضوا علي المسلمين ما رأينا من هذا الكاتب دمعة تُذْرَف ، بل ابتسامة تشفٍّ وابتهاج . إن المستشرقين يدّعون دائما (كذبا) أن التوحيد عند اليهود أظهر منه في الإسلام وأصفي [٤٤] أتعرف ماذا كان اليهود فاعليه بموجب حكم التوراة(التي أوحاها إلي نبيهم إلههم الذي يوحّدونه علي هذا الزعم خيرا مما يوحد المسلمون رب العالمين) لو أنهم هم الذين انتصروا وفتحوا بلاد المسلمين ؟ تقول التوراة: « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلي الصلح ، فإن ... لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلي يديك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا) . وهو ما لا ينطبق علي المسلمين ، لأنهم لم يكونوا بالنسبة لليهود، الذين يجاورونهم في نفس المدينة ، من الأمم البعيدة، بل ينطبق عليهم الاتي: (وأما هولاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما›› [٤٥]. أفلا يري القارئ أن إله المسلمين كان رحيما باليهود حتي بمقياسهم ؟ فما الذي أنسي المستشرق البريطاني هذا وجعله أكثر مَلَكِيّة من الملِك؟ إن واحدا من اليهود علي الأقل هو عمرو بن سعدي رفض أن يشاركهم في غدرهم الدنيء وقال : لا أغدر بمحمد أبدا [٤٦] . وهو موقف رجولي كريم ، إذ إنه لم يشأ أن يغدر بالرسول صلي الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، الذين لم تُؤْثَر عنهم غدرة ولو تافهة في حق اليهود . ولكي يري القارئ مبلغ دناءة القوم وغبائهم وجبنهم ساعة الجِدّ ، وإن انتفشوا انتفاش الدِّيَكة حين يتوهمون أنهم في مأمن ، أذكر له أن أحدهم ، وهو كعب بن أسد ، حين فرغ لهم الرسول عليه السلام بعد انفضاض الأحزاب من حول المدينة وحاصرهم ، عرض عليهم أن يُسْلِموا أو علي الأقل أن يكونوا رجالاً ويخرجوا علي المسلمين مباغتة من داخل الحصن فيحاربوهم مواجهة ، لكنهم رفضوا ذلك كله ، فما كان منه إلا أن قال حانقا : « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا››[٤٧]. وهنا العجب كل العجب ، بل هنا عبرة العبر يستخلصها الباحث الموضوعي من الصراع بين الإسلام واليهود . تري لو كان اليهود مخلصين في التمسك بدينهم والكفر بمحمد فلِمَ لَمْ يستعينوا بربهم كما كان محمد يستعين بربه ويواجهوا محمدا مرة واحدة في حرب صريحة شريفة ؟ لقد كان مشركو العرب ، برغم وثنيتهم ، أشرف منهم وأرجل ألف مرة . أم تري كان اليهود ينفذون أمر ربهم حين وضعوا أيديهم في أيدي الشرك والوثنية ليحاربوا محمدا ، الذي حتي لو سلمنا

---

[٤٤] انظر مثلا چوزيف هبي / ٧٨٧.

[٤٥] سفر « التثنية » ٢٠ / ١٠ – ١٦ .
[٤٦] ابن هشام /١٤٤/٣
[٤٧] ابن هشام / ٣ / ١٤٢ – ١٤٣

بأنه رسول زائف فهو علي كل حال يدعو إلي التوحيد ويؤمن بموسي وبقية أنبياء بني إسرائيل ؟ أتراهم كانوا مصغين للصوت الخارج من أعماق ضمائرهم حين أكدوا لقريش أن وثنيتهم خير من دين محمد وأنهم أولي بالحق منه ؟ (٤٨).إن إدمون پاور يدعي علي الرسول الكريم أنه أكل اليهود لينقذ بأموالهم أتباعه من الفقر ، وينكرُ أن يكون هناك دليل علي خيانة بني قريظة (٤٩). وهذا غير صحيح بالمرة ، وإلا لاكتفي الرسول بإجلائهم ومصادرة أموالهم أو لأبقاهم في المدينة بعد أن يستصفي ممتلكاتهم لحساب أتباعه . أما بالنسبة للخيانة فإنهم أنفسهم لم يفكروا لحظة واحدة في إنكارها . ومن المضحك إذن أن يأتي مثل هذا المستشرق بعد تلك القرون المتطاولة ويتظاهر بأنه مَلَكيّ أكثر من الملك . وأما ألفريد جيوم فإنه يعزو ما فعله الرسول بهم إلي أنهم رفضوا الإيمان به وأخذوا يسخرون منه ويكثرون من مجادلته ، وإلي أنهم كانوا متفوقين اقتصاديا . ثم أرجع عدم إيمانهم به إلي اعترافه بنبوة عيسي . والحقيقة أن الرسول لم يحاول قط أن يكرههم علي ترك دينهم ، كما أن نص المعاهدة التي سلفت الإشارة إليها يؤكد حرية العقيدة الدينية (٥٠) . أما اليهود أنفسهم فإنهم كانوا ، قبل مبعث الرسول عليه السلام ، يهددون به الأوس والخزرج ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وبدينه وتراجعوا عما كانوا يقولون . ولا يمكن أن يكون هذا مجرد ادعاء من المسلمين ، فإنه مسجل في القرآن الذي كان يتلي علي اليهود ولم يحدث أن اعترضوا عليه(٥١). وهذا يبين لنا حقيقة موقفهم ودوافعهم ، وبخاصة إذا علمنا أن بعضهم كان إذا لقي المسلمين أظهر الإسلام فإذا خلا إلي أمثاله من اليهود قرّعوه وطلبوا منه أن يخفي ما يعلمه من الحق (٥٢)، كما أن بعضا منهم كان ينتهج خطة جهنمية لتدمير ثقة المسلمين بدينهم ، إذ كان يعلن إسلامه أول النهار ولا يكاد النهار

---

(٤٨) المرجع السابق / ٣ / ١٢٧ . ولابد من مقارنة هذا بموقف المسلمين من الحرب بين الروم و الفرس في أوائل الدعوة ، ، وكيف تعاطفوا مع الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم ، مع إيمانهم بأنهم قد حرفوا دينهم ، ومع أن الروم لم يكونوا يؤمنون بمحمد ولا كان المسلمون ينتظرون منهم ذلك . صحيح أن يهودا من غير بني قريظة هم الذين قالوا هذا لقريش وهم يؤلبونها وغيرها من قبائل العرب علي الاشتراك معهم في حرب تقصم ظهر الإسلام وأتباعه إلي الأبد ، إلا أن ملة اليهود كلهم واحدة . والدليل علي ذلك هو هذه الخيانة السافلة التي اجترحها بنو قريظة والتي ليس لها عقاب إلا الإعدام ، وبخاصة أن حبال صبر الرسول علي اليهود كانت قد مُزِّقت تماما .وكان ينبغي عليهم أن يتعلموا الدرس مما فعله بنو قينقاع وبنو النضير من قبل . لكنهم ، بغبائهم وقصر نظرهم وسخف عقولهم وقلة أدبهم، وَهِموا أن مصيرهم لن يكون أسوأ من مصير إخوانهم السابقين ، غافلين عن أن المؤمن لا ينبغي أن يلدغ من ذات الحجر ثلاث مرات . وربما كان هذا هو السبب في أنهم لم ينصتوا إلي ما قاله لهم كعب بن أسد فنالوا جزاءهم.

(٤٩) انظر جوزيف هبي / ٨٠٣

(٥٠) ابن هشام /١٦٦/١ و ١٧٠/٢ وانظر كذلك كتابه عليه السلام إلي ملوك حمير بعد أن دانت له الجزيرة كلها ،فهو يؤكد ذات المبدأ (نفس المرجع /١٧٥/٤) .

(٥١) البقرة / ٨٩ ، وانظر ابن هشام /٢/ ١٤٠ .

(٥٢) البقرة / ٧٦ ، وابن هشام /١٣٣/٢.

يُوَلّي حتي يعلن كفره [٥٣] أفهذا هو المقابل للحرية الدينية التي منحهم إياها الإسلام ؟ أم هل هذه تصرفات ناس يعتقدون فعلا أنهم علي الحق ؟ لقد كان بـــاب الحِجَاج أمامهم مفتوحًا ، الحِجَاج العاقل لا الحجاج السفيه من مثل « إن الله فقير ونحن أغنياء » و « يد الله مغلولة » و « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » و « نحن أبناء الله وأحباؤه ... » إلي آخر هذا الهراء الذي لا يخطر إلا في عقول الهازلين المخرفين . لكن لا عجب ، فقد نزلوا في ذلك علي طبيعة الغدر والنذالة المتأصلة فيهم . ومع هذا فقد آمن منهم بالإسلام صادقًا طائفة كان من بينهم

بعض أحبارهم كأُبَيّ بن كعب [٥٤] ومـُخَيْريق وعبد الله بن سلام .أما بالنسبة إلي مسألة التفوق الاقتصادي فإن أموال الغنائم لم تكن لتترك المسلمين بحاجة إلي ما في أيدي اليهود . ومعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان زاهدا في المال ، وليس من المعقول أن يخطط لقتل بني قريظة ليوزع بعد ذلك أموالهم علي المسلمين ، الذين لم يكونوا حينئذ فقراء كما أوضحنا . ثم لو كانت الرغبة في الاستيلاء علي أموال اليهود هي دافعه عليه السلام إلي قتلهم فلِمَ لَمْ يقتل من قبلُ بني قينقاع أو بني النضير ؟ وإذا قيل إن مشاعر الغيظ والكراهية عنده تجاه اليهود كانت تتصاعد وتشتد مع مرور الزمن ، لقد كان الأحري إذن أن ينكّل بيهود خيبر ، الذين حاربهم بعد بني قريظة ، تنكيلا لا يغادر منهم كبيرا ولا صغيرا ولا رجلا ولا امرأة . بيد أن عقوبته لهؤلاء اليهود كانت أخف كثيرًا من عقوبات نظرائهم السابقين بل أخف مما طلبوه هم أنفسهم [٥٥] . وانظر عدله واحترامه عليه السلام لإرادة اليهودي الذي كان له دين عند جابر ابن عبد الله ورفض شفاعة النبي له فأعطاه عليه السلام حتي أرضــاه ، وكيف أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي كان قد استدان منه طعامًا . ثم إن الرسول لو كان طامعًا في ثروات اليهود لما أفلت أية فرصة يمكنه فيها أن يستولي علي أموالهم ، ومع ذلك فقد رأينا من قبلُ رفضه عليه السلام للغنم التي كان يرعاها خادم لليهود وأحضرها للرسول عند إسلامه أثناء حصار خيبر ، فأمره بأن يعيدها إليهم . وإليك قصة أخري تبين إنصافه وتحرُّجه عليه الصلاة والسلام من أخذ أي شيء منهم بغير حق: «أصيب عبد الله بن سهل بخيبر ، وكان خرج إليها في أصحاب له يمتار منها تمرًا ، فوُجِد في عين قد كُسِرت عنقه ثم طرح فيها ، فأخذوه فغيبوه ثم قدموا علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فذكروا له شأنه ، فتقدم إليه أخوه عبد الرحمن بن سهل ، ومعه ابنا عمه حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ابنا مسعود ، وكان عبد الرحمن من أحدثهم سنا ، وكان صاحب الدم ، وكان ذا قدم في القوم . فلما تكلم قبل ابني عمه قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : كبرِّ ، كبِّر (أي دع من هو أكبر منك يتكلم .) فتكلم هو بعد ، فذكروا لرسول الله قتْل صاحبهم فقال رسول : أتسمّون قاتلكم (أي

---

[٥٣] آل عمران /٧٢ .

[٥٤] الزركلي / الأعلام / مادة « أبي بن كعب » ، ونفس المادة في « القاموس الإسلامي » لأحمد عطية الله . وانظر قصة إسلامه في ابن هشام (١١٨/٢)

[٥٥] انظر ابن هشام /٣١٧/٣ – ٣١٨ .

هل تستطيعون أن تذكروا بالاسم أحدا تتهمونه) ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه إليكم ؟ قالوا : يارسول الله ، ما كنا لنحلف علي ما لا نعلم . قال : أفيحلفون بالله خمسين يمينا ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ثم يبرأون من دمه ؟ قالوا : يارسول الله ، ماكنا لنقبل أيمان يهود . ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا علي إثم . فوداه (أي دفع ديته) رسول الله من عنده مائة ناقة[٥٦]. إن رسولا يربي أتباعه هذه التربية السامية التي تمنعهم من أن يحلفوا علي قاتل لم يشاهدوه بأعينهم ، رغم تأكدهم أن القاتل واحد من اليهود ورغم العداوة التي بين الفريقين وانعدام الثقة في اليهود ودينهم لدي المسلمين ، لهو رجل جدير أن يعلو فوق الشكوك والاتهامات . وقد كان بمستطاع الرسول ، لو أراد ، أن يُلْزِم اليهود بدفع الدية تحت أية حجة ، وليس بأضعفها أن القتيل قد وُجِدَ في إحدي عيونهم وأنه لم تكن بينه وبين أحد آخر عداوة ، وإلا لذكر ذلك للرسول أولياءُ دمه ، ولكنه عليه السلام آثر أن يدفع الدية من ماله [٥٧].

أما الاتهام الثاني فهو عدم احترامه عليه السلام لمعاهداته مع مشركي مكة . والحقيقة أن هذا كلام من لا يجد شيئا يقوله ، وإلا فالدنيا كلها تعلم أن المشركين هم الذين نقضوا صلح الحديبية برغم أنهم هم الذين أملوا شروطها ، ووافقهم عليها النبي ابتغاء السِّلم وليكونوا هم الحكّام علي أنفسهم إذا غدروا . وكان من جَرّاء هذه الموافقة أن المسلمين حرنوا عليه ، ربما لأول مرة ، عندما أراد أن يحلق رأسه ويضحِّي الهَدْيَ الذي كان أحضره معه ليذبحه . ولولا أن أم سلمة عليها رضوان الله طيبت خاطره واقترحت عليه أن يقوم فيحلق شعره ويضحي هديه حتي يراه المسلمون فيستحوا منه ويصنعوا صنيعه لظلوا حَرِنين [٥٨]. ومعروف كذلك اعتراض عمر علي شروط الصلح وقولته المشهورة « : عَلاَمَ نُعْطَي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ . » لقد أملي المشركون شروطهم المتعنتة أشد التعنت ، ووفيّ لهم الرسول أعظم توفية أُثِرَتْ عن إنسان ، فَرَدَّ ، ولما تكن الاتفاقية قد جف حبرها ، مَنْ جاء من معسكر المشركين مسلما لأن شرط موافقة أهله علي هذا الإسلام لم يكن متوفرا . بل إنه لم يقبل ، ولو في السر ، أحدا ممن أسلم من أهل مكة بغير موافقة ذويه ، حتي جاء القرشيون إليه يترجَّوْنه أن يقبل كل من جاءه منهم مسلما ، إذ شكّل الداخلون من أهل مكة في الإسلام علي كره من أهليهم عصابة في طريق تجارة قريش فسببوا لها المتاعب .ومع ذلك كله فإن المشركين هم الذين نقضوا الصلح حتي لقد اضْطُرّ أبو سفيان ، بجلالة قدره ، أن يفد علي المدينة قلقا مذعورا يحاول أن يسترضي الرسول ، كأن الأمر لعب عيال ، فقوبل من ابنته حبيبة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام مقابلة جافة ، إذ رَبَأَتْ بفراش رسول الله أن يجلس عليه أبوها الكافر .وعبثا حاول أن يضحك علي المسلمين ، وكانت آخر محاولاته أن رجا فاطمة بنت رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام أن تأمر ابنها الحسن ، وكان طفلا صغيرًا يدب بين يديها ، أن

---

[٥٦] ابن هشام /٢٢٩/٣ ـ ٢٣٠ .
[٥٧] انظر في هذه الحادثة أيضا "الموطأ" /٣/ ٧٧ – ٧٨ .
[٥٨] انظر البخاري /١٢٢/٢ .

يُجِير بين الناس ليكون ، علي حد قوله ، سيد العرب إلي آخر الدهر[٥٩] ، ظنا منه أنه يستطيع أن يضحك علي ذقنها بمثل هذا الكلام ، وهو الذي أبي حتي تلك اللحظة أن يعترف لأبيها رسول الله بالسيادة علي العرب . فكيف يزعم زاعم ، وهذه هي الحقائق سافرة ، أن الرسول قد قام بهجوم غادر علي مكة بعد محاولات فاشلة سابقة ؟[٦٠] إن المقصود هنا هو الأحداث المسجلة في أول سورة « التوبة » ، مع أن الآيات هناك تغني عن كل تعليق ، إذ القرآن يفرق بين من وَفَّي من هؤلاء المشركين بعهوده مع المسلمين ، فهذا يُتمّ إليه المسلمون عهده إلي مدته ، وبين من غدر وفجر ، فهؤلاء يُمْنَحون مهلة أربعة أشهر ، وبعد ذلك يعامَلون معاملة العدو المحارب ، فأين الغدر هنا ؟ [٦١] . إن الغادرين هم المشركون ، الذين حَظُوا مع ذلك بفترة سماح أربعة أشهر كاملة يسيحون فيها في الأرض بملء حريتهم . ولو كان الرسول عليه السلام غادرا فلِمَ لَمْ يقتل رسولَيْ مسيلمة ، الذي نازعه الرسالة والسلطان ، وكان الرسول في أوج سلطانه وانتصاراته ؟ لكنه عليه السلام عفّ عن ذلك برغم تغيُّظه من صفاقة مسيلمة وصفاقة رسوليه وفداحة الأمر ، إذ يريد هذا المسيلمة الذي كان قد ورد عليه قبل ذلك بقليل مع من أسلم من قومه أن يأتي في آخر المطاف فيهدم الصرح الشامخ الذي قضي محمد عمره كله يضحي من أجل بنائه ورفع سمكه عاليا في السماء[٦٢] .

ونصل إلي التهمة الكبيرة الثالثة ، تهمة التساهل في قضية الوحدانية أو ، كما يقول بعض المستشرقين ، المصالحة مع الوثنية ، إذ تحول الرسول إلي الكعبة بعد أن كان يصلي نحو بيت المقدس [٦٣] . ويرميه بعض آخر بأنه زيَّف وحيًا في المدينة لربط الكعبة بإبراهيم عليه السلام [٦٤] ، علي حين يستغرب بعض ثالث أنه عليه الصلاة والسلام قد أبقي علي الحجر الأسود ، وهو شعيرة وثنية [٦٥] . ويستطيع القارئ أن يري أن المجادلة في تحول النبي من بيت المقدس إلي الكعبة ليست إلا مماحكة فارغة[٦٦] ، إذ ما الفرق بين اتجاه المسلم إلي هذه الجهة أو تلك ما دام الأمر كله رمزا علي طاعة الله سبحانه وعلي وحدة المسلمين ؟ هل استقبال بيت المقدس دليل علي التوحيد واستقبال الكعبة دليل علي الوثنية ؟ ولكن لم ؟ إن الله موجود سبحانه أينما تولي المؤمن ، والمهم الاتفاق علي وجهة ما ، ويا حبذا لو كانت مهوي الأفئدة المؤمنة . وإذا كان النبي قد صلي هو والمسلمون بعد الهجرة زمنا إلي بيت المقدس وقيل إن هذا كان تألفا منه لليهود كي يجتذبهم إلي الدين الجديد ، فما العيب إذن في ذلك ؟ علي أننا ينبغي ألا ننسي أن الرسول في صلاته في مكة قبل الهجرة

---

[٥٩] انظر في الصلح و نقضه ابن هشام /٣/ ٢٠٣ فما بعدها ، و ٢٢/٤ فصاعدا .
[٦٠] انظر أيضا كِلِتْ / ٣٤١ .
[٦١] التوبة /١- ١٣ .
[٦٢] الشوكاني / مجلد ٤ /ج ٨ / ص ٢٩ .
[٦٣] انظر جوزيف هبي /٧٩١ – ٧٩٢ .
[٦٤] ذاك لامانس (انظر جوزيف هبي / ٨٠٠) ، ويتابعه في ذلك إدمون باور (نفس المرجع / ٨١٢) .
[٦٥] مرجليوث /٤٨ .
[٦٦] انظر أمر تحول القبلة في البخاري / ١ / ١٦ .

كان يستقبل القبلتين معا . يتضح ذلك من عبارة ابن هشام « : وكان رسول الله بمكة وقبلتُه إلي الشام، فكان إذا صلي صلي بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام››(٦٧) . فما معني ذلك ؟ أليس معناه أنه كان يجمع بين التوجه إلي الكعبة وبيت المقدس معًا من قَبْل الهجرة ؟ لكنه لما انتقل إلي يثرب ، التي تقع في شمال مكة بينها وبين الشام ، وكان من المستحيل الجمع بين القبلتين ، ظل يصلي إلي بيت المقدس وهو يتوق إلي أن يستدير إلي الجنوب ، إلي الكعبة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . فلو كان الأمر مجرد عواطف شخصية تجاه اليهود ، فهل كانت عواطف الرسول نحو قريش في ذلك الوقت هي عواطف الحبّ والوله حتي يتحول عن قبلة بيت المقدس إلي الكعبة ، التي كانوا يقومون عليها؟ وهل كان موقف مشركي مكة منه صلي الله عليه وسلم ومن أتباعه في ذلك الوقت المبكر(بعد ٧١ شهرا من الهجرة) مما يبعث علي الأمل في إسلامهم كي يتبع قبلة البيت الحرام ، الذي مقاليده في أيديهم ؟ إن العلاقة بين الرسول عليه السلام واليهود لم تكن بَعْدُ قد تطورت إلي ما تطورت إليه من عداوة مستحكمة ، فليس ثمة وجه إذن للقول بأنه تحول إلي الكعبة من تلقاء نفسه يأسًا منهم . وفضلا عن ذلك فلو كان الرسول قد قصد حقا بالصلاة إلي بيت المقدس تألُّف قلوب اليهود ، وإن كنت لا أري في ذلك ما يشينه من أي وجه ، فلِمَ نفر من اتخاذ البوق أداة لنداء المسلمين إلي الصلاة ، وقد كانت اليهود تدعو به لذات الغرض ؟ ولِمَ لَمْ يعد إلي بيت المقدس عندما عرض عليه ذلك نَفَرٌ من أشرافهم ليؤمنوا به ؟(٦٨) . وهنا ينبري بعض المستشرقين يتهمونه بأنه اخترع قصة زيارة إبراهيم لمكة وبنائه الكعبة ، ناسين بذلك أمورا ثلاثة هامة :الأمر الأول أن العرب كانوا يؤمنون بهذا أجيالا بعد أجيال ، أي أن النبي لم يخترع هذه القصة . وقد جاء في تاريخ ديودورس الصقلي ، الذي كان يعيش في القرن الأول للميلاد ، أن من العرب في ذلك الوقت من كانوا ينتسبون إلي نبات بن إسماعيل ، وهو ما نجده في شعرٍ جاهلي لجد الصحابي حسان بن ثابت يفتخر فيه بوراثته مفاخر نبت بن إسماعيل(الذي ذُكِر في العهد القديم) . كما جاء في التوراة السامرية أن بَرّيّة فاران (موطن إسماعيل كما جاء في العهد القديم أيضا) تقع في الحجاز . ويذكر المؤرخ سوزومين أن اليهود كانوا ينظرون إلي العرب الساكنين شرق الحد العربي علي أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم وأنهم من ثَمّ من ذوي رحمهم . وهناك نص لتيودوريتو من النصف الأول للقرن الخامس الميلادي يصف فيه العرب بالقبائل الإسماعيلية(٦٩) . إذن فإبراهيم عليه السلام هو جد العرب ، وإسماعيل ابنه كان يعيش في الحجاز ، ومعني ذلك أنه هو نفسه قد زار ذلك الإقليم . كذلك كان الحنفاء يقولون لبعضهم البعض « : تعلّموا والله ما قومكم علي شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم .ما حَجَرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا

---

(٦٧) ابن هشام /١/ ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

(٦٨) انظر ابن هشام /٢/ ١١١ ، ١٤٢ .

(٦٩) من الفصل الخاص بـ "ترجمة النصوص القرآنية و التعليق عليها في دائرة المعارف الإسلامية " من كتاب "دائرة المعارف الإسلامية الإستشراقية – أضاليل و أباطيل "الذي سيصدر قريبا بإذن الله لكاتب هذه السطور .

ينفع ؟ ياقوم ، التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم علي شيء .» ويعقب ابن هشام قائلا « : فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ›› [٧٠] . وكان زيد بن عمرو بن نفيل، وهو أحد هؤلاء المتحنفين ، يقول « : أعبد رب إبراهيم » ، وقال يوما وقد أسند ظهره إلي الكعبة « : يامعشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد علي دين إبراهيم غيري ››[٧١]. والأمر الثاني هو أن المشركين كانوا قد صنعوا لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صورة في الكعبة مع ما صنعوا من صور للملائكة وفي أيديهما الأزلام يستقسمان بها[٧٢]. وإن دلالة ذلك واضحة تمام الوضوح، وهي أن الرسول لم يخترع العلاقة بين الكعبة وإبراهيم عليه السلام ، بل كانت العرب تؤمن بذلك إيمانًا جازمًا . وثالثًا : لو كان الرسول هو الذي زيف مثل هذه العلاقة ، أو لو كان العرب واهمين فيما كانوا يعتقدون بشأنها ، لما سكت اليهود وهم البارعون في إثارة الفتن ، ولملأوا الدنيا ضجيجا وعجيجا .وأخيرا فإذا كان النبي عليه السلام قد اخترع قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة فلماذا ، بدلاً من ذلك ، لم ينسب بناءها إلي هود مثلا أو صالح أو أي نبي عربي آخر ، وبذلك يكون البيت عربيا وبانيه عربيا، مادام المقصود هو تملق العروبة لكسب قلوب مشركي مكة ؟

وما قيل عن استقبال الكعبة أثناء الصلاة يقال مثله عن الحجر الأسود ، فإن الوثنية لا تقوم في الأشياء أو الأفعال ذاتها بل في العقل والضمير . والمسلمون حين يحجون إلي مكة ويستلمون الحجر الأسود لا يفعلون ذلك لأنهم يعبدونه كي يقربهم إلي الله زلفي (بل لم يؤثر عن عرب الجاهلية أنفسهم أنهم كانوا يعبدونه كما كانوا يعبدون الأصنام) . إنما هو سنة من سنن الطواف ، وكل ما يفعله الحاج هو أن يلمسه بيده ، فإن تعذر ذلك بسبب الزحام اكتفي بالإشارة إليه من بعيد . وقد قال الرسول لعمر رضي الله عنه « : يا أبا حفص ، إنك رجل قوي ، فلا تزاحم علي الركن (أي الحجر) ، فإنك تؤذي الضعيف . ولكن إذا وجدت خلوة فاستلم ، وإلا فكبِّر وامْض » .وقد روي ابن عمر أن رسول الله استلم الحجر ثم وضع شفتيه يبكي طويلا ، فإذا عمر يبكي طويلا ، فقال : يا عمر ، هنا تُسْكَب العَبَرات . ومن المأثور أن يقول الحاج عند استلام الحجر « : اللهم إيمانًا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك سيدنا محمد››[٧٣]. ويري القارئ كيف أن كل كلمة وكل حركة بل كل خالجة إحساس تدل علي الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالي وحده . فهذا هو الحجر الأسود الذي يدعي كثير من المستشرقين أنه بقية من الوثنية الجاهلية . لقد كان الرسول حتي في الجاهلية ينبذ العادات الوثنية في الحج . وقد شهدت السنة

---

[٧٠] ابن هشام /١/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

[٧١] المرجع السابق /١/ ٢٠٧، ٢٠٨ .

[٧٢] ابن هشام /٤/ ٤١ ، وابن كثير في تفسير قوله تعالي "و أن تستقسموا بالأزلام " (المائدة /٣) .

[٧٣] انظر "فقه السنة "السيد سابق /١/٧٠٠ – ٧٠١ ، و القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله / مادة " استلام الحجر " .

التاسعة بعد الهجرة القضاء علي هذه العادات السخيفة[٧٤] .إن شعائر الحج كلها ، مَثَلُها كَمَثَل شعائر الصلاة والصوم والزكاة ، هي عنوان علي طاعة الله والمسارعة في مرضاته . كما أنها تعبير عن الوحدة بين المسلمين ، إذ يرتبطون جميعهم علي تنائي البلاد واختلاف اللغات والسّحَن بقبلة واحدة علي كل منهم أن يحج إليها ويجتمع عندها بإخوانه المسلمين من كل صقع مرة في العمر . ثم أكان الحجر الأسود أهمّ من هُبَل أو بقية الأصنام الثلاثمائة والستين ، التي أطيح بها جمعاء غداة الفتح إلي الأبد ؟

والآن نصل إلي التهمة الأخيرة ، وهي تهمة الانغماس في شهوات الجنس واختراع الوحي بعد الوحي لتسويغها . والمستشرقون حين يتناولون هذه النقطة لا يلتزمون بحقائق التاريخ حتي لو كانت استنتاجاتهم خاطئة من وجهة نظرنا ، بل إن بعضهم ليخترع من عنده أشياء ما أنزل الله بها من سلطان : فإدمون پاور مثلا يزعم أن الرسول قد أعفي نفسه من الالتزام بحرمة زواج المحارم[٧٥] ، أما واشنجتن إرفنج فإنه يدعي أن آية « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة... إلخ » [٧٦] قد منعته عليه الصلاة والسلام من اتخاذ مارية حظيّة فاخترع وحيا خاصّا به[٧٧]، مع أن مارية كانت ملك يمين ، وهذا جائز في الإسلام لأي مسلم ، ولا تسبب حالتها أية مشكلة من أي نوع ، فضلا عن أن الرسول عليه السلام قد أعطي حسان بن ثابت أختها سيرين ، فهل اخترع له الرسول أيضا وحْيًا له ؟ أم ماذا ؟ ولقد أفاض الكتاب والمفكرون المسلمون في العصر الحديث في الرد علي اتهامات المستشرقين للرسول عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بزواجه مما لا أجد معه ضرورة لتناول هذه المسألة ، وإن كنت أري مع ذلك أن الأمر ، قبل نزول الوحي بتحديد الزوجات اللاتي يستطيع المسلم أن يحتفظ بهن في نفس الوقت بأربع ، لا يحتاج كل هذا العناء ، فما دام التزوج بأكثر من أربع كان قبل ذلك مباحا فما معني اختصاص أعداء الإسلام للرسول عليه الصلاة والسلام بالنقد ؟ أما احتفاظ الرسول بكل زوجاته بعد التحديد ، وهن أكثر من أربع ، فهو الذي يحتاج إلي بيان . وإن أهم سؤال في نظري هو : أكان الأمر هنا أمر شهوة وتلفيق وحي لتسويغها أم أمر سماح إلهي ؟[٧٨]. وأحب أن أبادر فأقول : لقد أُثِر عن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أُثِر عنه أن مما حُبِّب إليه من

---

[٧٤] انظر ابن هشام /١/ ١٨٤ – ١٨٨ ، و ٤ /١٤١ .
[٧٥] انظر جوزيف هبي /٨١٥ .
[٧٦] النور / ٢ .
[٧٧] انظر إرفنج / ١٣٣ .
[٧٨] في رسالة الدكتوراه التي حصل عليها من باريس (La Condition de la Femme dans la Tradition et l'islamisme ,P.18)
ردد الدكتور منصور فهمي رأي المستشرقين في هذه المسألة ، ولكنه سرعان ما عاد بعد رجوعه من فرنسا عن مثل هذه الآراء ، مما يدل علي مدي نما لتأثير المستشرقين علي أبناء المسلمين أحيانا من خطر شديد . انظر "الملل و النحل " للشهرستاني / تحقيق محمد سيد كيلاني /٢/ ٨٢ – ٨٣ .

دنيانا النساء ، وإن كان قد ذكر أيضًا أن الصلاة هي قُرَّة عينه[٧٩] .لكن حب الرجال للنساء ، والعكس أيضا ، ليس عيبا . إنما القضية هي : أكان الرسول متهالكا علي المرأة ؟[٨٠] . إن المعروف مثلاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعزف عن مصافحة النساء[٨١] .تري لو كان شهوانيا ، كما يحلو لأعدائه أن يتقولوا عليه ، أفما كان الأحري به أن يحرص علي مصافحتهن والتلذذ بلمس أيديهن الرَّخْصَة واستبقائها بين يديه أطول مدة ؟ بل لِمَ شَرَعَ الاحتشام في الملبس بحيث لا يظهر من المرأة إذا بلغت المحيض إلا وجهها وكفاها؟ أفما كان الأجدر بمثل هذا الرجل الشهواني كما تصوره كتابات هؤلاء المستشرقين ألا يفكر مجرد تفكير في وضع مثل هذا التشريع الذي سيوقف عينيه النهمتين عند حدهما ؟ إنه عليه الصلاة والسلام لم تؤثر عنه طيلة حياته ، لا قبل المبعث ولا بعده ، في مكة أو في المدينة ، ريبة قط

---

[٧٩] انظر مثلا / مجلد ١ / ج١ / ص ١٢٧ .أما ما ورد منسوبا إلي بعض الصحابة عن قوته الجنسية و أنه كان يطوف علي نسائه جميعهن في الليلة الواحدة فهو سخف لا يحتمل المناقشة ، فمن أين لهم أنه كان ينام مع كل منهن في نفس الليلة ؟ إنه لم يؤثر عن الرسول صلي الله عليه وسلم ولا عن واحد من أمهات المؤمنين عليعن رضوان الله كلام في هذا الموضوع ، فهل كان هناك إذن من يقتفي أثره و يتجسس عليه صلي الله عليه وسلم ليري ماذا يفعل إذا دخل عند كل زوجة من زوجاته ؟ ثم من أين لرجل ، كائنة ما كانت قوته الجنسية ، الوقت لمضاجعة تسع نساء في ليلة واحدة ، وبخاصة إذا كان كالرسول عليه السلام يقوم الليل يعبد ربه ، أما عندما ينام فكلما تقلب في فراشه و ظن الفجر قد حان قام فغسل أسنانه و أخذ يدعو ربه ثم يخلد ثانية إلي النوم حتي يطلع الفجر و يسمع صوت بلال ؟ (انظر مثلا الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ٣٧ ، حيث تقول عائشة ردا علي من سألها عن وتر صلاة رسول الله عليه الصلاة والسلام :" كنا نعد له سواكه و طهوره فيبعثه الله متي شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك و يتوضأ و يصلي تسع ركعات.....إلخ ". وانظر كذلك ، في كيفية قضائه عليه السلام الليل البخار /١/ ٤٦ ، ١١٧ ، ١٩٨ ، و ٣ / ١١٦ ، و٧٤/٤ ، والموطأ/١٠٣/٣) .ثم كيف أمكن هذا الشهواني العارم أن يفطم نفسه عن زوجاته شهرا كاملا كما سيأتي بيانه بع قليل ؟ و أيضا ما القول في أن ذلك يخالف ما هو معروف عنه صلي الله عليه وسلم من أنه كان يخصص لكل واحدة من زوجاته ليلة لا تشاركها فيها غيرها ؟لكل هذا أجدني غير مطمئن لهذا الحديث الذي يستطيع القارئ أن يجده في الشوكاني (مجلد ١/ ج ١ / ص ٢٣٠).

[٨٠] فلم إذن لم يتزوج علي خديجة وقد كان شابا لم ترهقه السنون ولا متاعب الدعوة والحروب ؟ إن المستشرقين ينبرون هنا زاعمين أن مكانة خديجة ومالها قد أخضعاه لها وجعلا لها الكلمة العليا في البيت ، كأن مكانته عليه السلام في قومه لم تكن أكبر من مكانتها ، وإلا فلم اختارته هي نفسها وأرسلت إليه من تعرض عليه الزواج بعد أن رفضت رجالات قريش الذين تقدموا لها ؟ ثم إذا لم يكن يستطيع أن يتزوج عليها أكان أيضا لا يستطيع أن يجد متنفسا لشهواته المنطلقة مع مومسات مكة مثلا ؟ أما المال فإن أبا بكر قد أنفق ماله كله علي الدعوة ، وكان تعضيده للرسول عليه السلام من العوامل الهامة جدا لانتصار الإسلام ، ومع ذلك فلم يمنع ذلك كله الرسول أن يتزوج علي عائشة ابنته (كانت صغيرة بكرا نضرة علي عكس خديجة)لا زوجة واحدة ولا اثنتين بل ثماني ؟ وأخيرا كيف نعلل إخلاصه لذكري خديجة إلي آخر حياته وتفضيله لها حتي علي عائشة ، التي كان يغيظها ذلك منه أيما غيظ ؟

[٨١] الموطأ / ٣/ ١٤٧ .

ولوكلمة غزل عابرة أو غامضة . وحياته الشخصية ، والحمد لله ، واضحة وضوح الشمس ليس فيها أسرار [٨٢] . ثم إن حياته عليه الصلاة والسلام كانت ، بوجه عام ، حياة متقشفة ، ولم يعرف عنه اهتمام بالغذاء ، بل كان يأكل ما تيسر ، وكانت الأسابيع تمر علي بيته لا يوقَد فيها نار ، ولا يتعدي طعامه أثناءها التمر والماء . وفي بعض الأحيان كان لا يوجد في البيت شيء أصلا . وهذا ثابت مستفيض لا أحتاج إلي أن أحيل القارئ علي مصادره . ولا يمكن أن يقول عاقل أبدا إن هذا سلوك المتعبدين لشهواتهم . كذلك لو كان الرسول عبدًا لشهوة الجنس أكان بمقدوره أن يفطم نفسه عن زوجاته شهرا حين أبدين شيئا من التطلع إلي عيشة أرفه مما كُنّ فيه ؟ قد يقال إنه أراد أن يعاقبهن . لكن السؤال هو : ولم يريد أن يعاقبهن أصلاً ، والشهواني في مثل هذه الحالة يعمل بكل ما في وسعه وما في غير وسعه لإرضاء من يهواهن الفؤاد ؟ ثم لو سلمنا بهذا ، وهو لا يمكن التسليم به ، أفما كان عليه السلام قادرا علي أن يتزوج خلال هذا الشهر الجاف جنسيا مَنْ تَبُلّ ريقه وتخفف عنه الحرقات التي بين الضلوع ؟ بل إن الولائم التي كان يصنعها في أعراسه عليه الصلاة والسلام كانت تتسم بالبساطة الشديدة ، مع أن أموال الدولة كانت كلها تحت يده يقدر أن يغترف منها بالكفين كما يشاء ليرضي زوجاته ، وهن بَعْدُ نساء لا يكرهن ، علي الأقل ، أن يعبر زوجهن عن رغبته فيهن بإقامة الولائم الفخمة التي تراق فيها الخمور ويكوَّم فيها اللحم تكويما . لا ، ليس هذا سلوك شهواني متهالك علي المرأة . وكذلك ليس شهوانيا لئيما من تستعيذ منه بالله إحدي زوجاته حين أراد الدخول بها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فلا يكون رد فعله إلا أن يقول: « مَنيعٌ عائذ الله » ثم يسرحها بإحسان ويردها إلي أهلها معززة مكرمة دون كلمة واحدة تسيء إليها أو نية في تأديبها علي ما بدر منها[٨٣] . للتفكهة ألفت نظر القارئ هنا لما زعمه واشنجتن إرفنج[٨٤] من أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا رأي امرأة جميلة سوي شعره ومسح علي حواجبه . ولا أدري من أين أتي بهذه الرواية التي لا تنطبق إلا علي المتعطلين الذين يقفون علي النواصي يعاكسون العابرات ويحتكون بهن . والغريب أن إرفنج نفسه قد وصف الرسول قبل ذلك بصفحة بأنه كان محبا للصوم ، بسيط الملبس ، يكره بطبيعته المظاهر الفارغة . كما وصفه في موضع آخر بأن الصلاة كانت سلوي روحه [٨٥] . وفي موضع ثالث يقف عند بساطة معيشته وبيته كما رسمها عدي بن حاتم حين وفد عليه [٨٦] ، وهو ما يتعارض تمام التعارض مع الشهوانية . أما بالنسبة لاحتفاظه بزوجاته جميعا بعد نزول القرآن بتحديد زوجات المسلم بأربع غير ما ملكت يمينه ، فأول ما ينبغي أن نذكره هنا هو أن هذا التحديد لم يتم إلا في السنة الثامنة للهجرة ، أي في آخر حياة الرسول ، وكان قد جاوز الستين وبَنَي بزوجاته جميعا فلم يتخذ بعد

---

[٨٢] قارن المبادئ الأخلاقية الصارمة في الإسلام بالتحلل الخلقي(كإسقاط الصلاة وإباحة الزنا والخمر) في دين مسيلمة حسبما جاء مثلا عند ابن هشام (١٦٥/٤).

[٨٣] نظر ابن هشام / ٤ / ٢١٧ . وانظر أيضا البخاري / ٣ / ٦٩ ، والشوكاني / مجلد ٣ / ج ٦ /ص ٢٤٣.

[٨٤] ص /١٩٣ .

[٨٥] ص / ١٩٩ .

[٨٦] ص/ ١٣٢ .

ذلك زوجة أخري . وإن المرء ليتساءل : تري لو كان الرسول متدلها في حب النساء فلِمَ حددهن حينئذ بأربع إذا كان لن يلتزم بذلك التحديد ؟ أكانت غايته أن يحرج نفسه بإصدار تشريع لا يلتزم هو به ؟ أم يا تري كان حتي ذلك الحين ، أي بعد ثماني سنين من التهالك علي النساء كما يصوره أعداء الإسلام ، يجهل هذا الضعف في نفسه وأخلاقه ؟ إن الرسول لو كان هو مؤلف الوحي لما أصدر مثل هذا التشريع أبدا حتي لو انطبقت السماء علي الأرض ، أو علي الأقل كان ينبغي عليه أن ينسخه إذا وجد أنه لن يستطيع الالتزام به كما ظن قبلا . ولا يقولن قائل إن النسخ في الشريعة إنما يكون تدرجا نحو الأصعب ، فإن القرآن قد توقع من المسلمين في بداية معاركهم مع الكفار أن يهزم الواحد منهم عشرة من أعدائهم ثم خفف ذلك إلي اثنين فقط [٨٧] . كذلك شرع القرآن في فترة من الفترات علي كل من يريد مناجاة الرسول علي حِدَة أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ثم نسخ ذلك [٨٨] . فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلم أصدر مثل هذا التشريع وقد كان التعدد بلا ضابط عُرْفًا متبعا ؟ أكان هناك حزب نسائي بين أتباعه يقوم بالضغط عليه ويلوح له بأنه لن يعطيه أصواته في الانتخابات إلا إذا حدد عدد الزوجات ؟ أم تمرد عليه أحبُّ أربع زوجاته إلي قلبه وخيّرنه بين التحديد أو تركه واللحاق بأهلهن ؟ ولكن من هن ياتري هؤلاء الأربع الواثقات بأنفسهن كل هذه الثقة ؟ ولِمَ لَمْ يسرّح الباقي من زوجاته ويحتفظ بهؤلاء وحدهن وله فيما ملكت يمينه مندوحة عن مخالفة التحديد ؟ بل لقد كان يستطيع ، مادام نوي أن يصدر هذا التشريع ، أن يطبقه علي نفسه مع إرضاء شهوته الجسدية بأن يطلّق كل زوجاته القديمات التي لم يكن له من واحدة منهن ولد يمكن أن يبقي عليها من أجله ويتزوج بدلا منهن أربعا من أجمل بكاري العرب . إن العجيب أن يكون محمد شهوانيا إلي هذا الحد الذي يتفنن في تصويره هؤلاء المستشرقون ويخترع مثل هذا الوحي المحرج مع أنه قبل ذلك بسنة واحدة كان قد تزوج صفية بنت حُيَيّ ، رضوان الله عليها ، اليهودية الأصل ، وكان يستطيع أن يُبْقِيها أَمَةً لأنها من السبي . وقبل صفية بسنة اتخذ جويرية بنت الحارث زوجة، مع أنها كانت من نصيب أحد المسلمين من سبي بني المصطلق ، فكان الأحري أن يتخذها عليه السلام أَمَةً ، ولكنه لم يفعل هذا أيضا . فهل كان يبحث عن المتاعب يخلقها لنفسه خلقا ليزداد إحراجا فوق إحراج بإضافة زوجتين إلي زوجاته اللائي سيصدر بعد شهور تشريعا لا يسري عليهن ؟ إن هذا إنما يدل علي التخبط، وهو لم يكن يوما من سمات الرسول عليه الصلاة والسلام .كذلك فإن الذين يأخذون عليه أنه أعفي نفسه من الالتزام بأربع زوجات يتناسون أن القرآن بعد

ذلك بقليل قد نزل يحرّم عليه هو وحده من دون المسلمين أن يستبدل بأي من زوجاته زوجة جديدة ، مما يدل علي أنه عليه السلام كان له وضع خاص في هذه

---

[٨٧] الأنفال /٦٥ ــ ٦٦ .

[٨٨] المجادلة / ١٢ ــ ١٣ .

المسألة ، فتارة يلتزم المسلمون بما لا يلتزم به ، وتارة العكس . وفي النهاية أود أن أشير إلي أن أحدا من المسلمين أو حتي من المشركين لم ينكر عليه صلي الله عليه وسلم ذلك .ولو قد أحس المسلمون أن في الأمر ما يدعو إلي الريبة لما سكتوا ، وفيهم عمر النقادة ، وكان حمًا للرسول ويهمه ألا يكون لبنته كل هؤلاء الضرائر ، فيضطر الرسول إلي إصدار تشريع يعفيهم مثله من الاقتصار علي أربع زوجات ليسكتهم فلا يسببوا له المشاكل .الحقيقة أنني كيفما قلّبت هذه المسألة لا أجد فيها ما يؤخذ علي الرسول ، فإن السماء هي التي شرّعت ، أما هو فلم يشرع لنفسه ولا للمسلمين من عنده شيئا . وأظنني كنت صريحا جدا في معالجة الأمر كله سلبا وإيجابا[٨٩] .

ويتصل بهذا الاتهام المتهافت ما تلقفه المستشرقون من رواية ضعيفة اخترعها ورواها بعض من ينتسبون إلي الإسلام ولا يقدرون المسؤولية فيما يقولون ويتناقلون ، وهي الرواية التي تتعلق بزواج الرسول الأكرم بابنة عمته زينب بنت جحش . وتتلخص هذه الرواية في أن رسول الله ذهب يوما إلي بيت زيد في أمر فلم يجده ، وكلمته زوجته زينب من وراء الستار وهي تلبس ملابسها علي عجل، فإذا بالهواء يرفع الستارة بغتة ليراها الرسول حاسرة ، مما كان له تأثير طاغ علي مشاعره فانصرف وهو يردد « : سبحان مقلب القلوب . » ! ولما جاء زيد وعلم من زوجته بما حدث فهم أن الرسول قد عَلِق زوجته ، فذهب إليه وعرض عليه أن يطلقها ويتزوجها هو فأمره عليه السلام أن يمسك عليه زوجته ويتقي الله . ولكن الوحي ما لبث أن نزل علي الرسول يكشف مشاعره التي حاول عبثا أن يخفيها ، ويأمره في صراحة أن يتخذ زينب زوجة . هذا ، وقد أضاف واشنجتن إرفنج من عنده بعض التوابل ، إذ ذكر أن الرسول عليه السلام هو الذي فاجأ زينب وهي في

---

[٨٩] أحب أن أشير هنا إلي رأي هربرت چورچ ويلز(الكاتب والعالم والمؤرخ الإنجليزي المشهور) في الرسول عليه السلام ، فهو ، وإن وصف الإسلام الذي صنعه - علي حد قوله - محمد نفسه بأنه دين عظيم ، يرمي رسولنا صلي الله عليه وسلم بالشهوانية ، ويستكثر عليه أن يوضع في مصاف عيسي عليه السلام وجوتاما وماني (The Outline of History, p. 234) . إن ويلز هذا المتقزز من خلق نبينا عليه السلام فيما يتعلق بالمرأة ، والمتدله في عفة المسيح عليه وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام ، يتناول حياته هو نفسه بالتشريح في كتابه "Experiment in Autobiography" ، كاشفا غسيله القذر في حديثه عن المومسات اللاتي كان يصطادهن من أزقة لندن ، وعن تكرار خيانته لزوجته في أول فرصة تسنح له ، دون أن يبدي أية مقاومة يسوغ بها هذا الترفع الكاذب ، كما حدث مثلا عندما خلا عليه البيت هو وآنسة كانت تساعده في بعض الأعمال حسبما جاء في الفصل الثاني من الباب السابع من ذلك الكتاب.

مباذل البيت ، وذلك حين اقتحم عليها خلوتها في بيتها بصفته أبا لزوجها بالتبني ، فرأي جمالها مكشوفا أمام عينه المحملقة[٩٠].

وأول شيء أحب أن أسارع فأقوله هو أننا لم نسمع بمثل حادثة الستار هذه في أية رواية أخري عن ذلك العهد ، بل إن الستور لم ترخ في بيوت الرسول إلا بعد زواجه من زينب[٩١] .الحقيقة أن هذه رواية من الروايات الغرامية التي هي بامرئ القيس وابن أبي ربيعة أليق . أما ادعاء إرفنج بأنه قد اقتحم علي زينب خلوتها فليقل لنا أولا من أين له به ، فإن مثل هذا السلوك ، فضلا عن أنه يجافي خلق الرسول والصحابة ، لم يرد ولا حتي في تلك الرواية التافهة التي هي محل كلامنا الآن.

وثمة نقطة هامة جدا في قصة زينب هذه هي أنها وأهلها كانوا قد رفضوا رفضا باتا أن تتزوج زيدًا ، الذي لم يكن إلا عبدًا للرسول أهدته إليه خديجة عند زواجها فأعتقه عليه السلام ، بينما زينب هي ابنة عمة محمد زعيم المسلمين وحاكمهم ورسول السماء ، وأسرتها من أرفع أسر قريش عزة ومكانة ، ولولا أن وحيا قرآنيا شديد اللهجة قد نزل في زينب وأهلها يعنفهم علي هذا الرفض ما رضيت ولا رضوا أبدا . والشاهد هنا أن هذه هي المرة الوحيدة تقريبا التي أرغم فيها الرسول امرأة علي التزوج ممن لا تريد[٩٢]، فإن الشريعة الإسلامية تتشدد في هذه المسألة حتي إن فتاة ذهبت إلي الرسول تشكو له من أن أباها قد زوجها من ابن عمها ليرفع بذلك الزواج خسيسته ، ففكَّ الرسول عليه السلام عقد الزواج بسبب رفض الفتاة، التي عادت بعد فسخ العقد فأعلنت موافقتها قائلة إنها إنما فعلت ذلك ليعرف الآباء أن لبناتهم إرادة مستقلة لا يجوز لهم أن يجوروا عليها[٩٣] .بل إن الرسول نفسه عليه السلام لم يحاول، ولو من بعيد ، إرغام زوجته التي استعاذت بالله منه(وكانت حديثة عهد بكفر) علي البقاء في عصمته ، وإنما سرحها تسريحا جميلا . وفضلا عن ذلك فلدينا حالة بريرة ، وكانت أَمَة فأُعْتِقت ، وعندئذ أعلنت أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، الذي أخذ يجوب شوارع المدينة وراءها وهو يبكي من فرط تعلقه بها ، وقلبها لا يرقّ

---

(٩٠) إرڤنج / ١١٢ . وقد أورد د .محمد حسين هيكل هذه القصة في « حياة محمد » (ص /٣٢٢ ـ ٣٢٣) علي نحو قريب من هذا . كما روي مكسيم رودنسون هذه القصة أيضا(ص / ٢٠٥ ـ ٢٠٨) ، وإن لم يرد فيها ذكر لستار بل قال إن زينب قد قابلته وهي شبه عارية . ولا أدري كيف واتت زينب الجراءة علي مقابلة الرسول صلي الله عليه وسلم بهذا الشكل . إن هذا لبِسُلوك ممثلات أدوار الإغراء أشبه .وانظر إشارة لهذا الأمر ساخرة في ص / ٢٧٢ من كتاب"Comparative Religion" لبوكيه (A.C.Bouquet) ، وهو رجل دين نصراني بريطاني.

(٩١) انظر البخاري /١٧٧/٣ .

(٩٢) هناك حالة أخري قابلتني في كتب الحديث التي رجعت إليها نجد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يتدخل لدي العروس لترضي بمن خطبها له . والطريف أن الرجل الذي رشحه الرسول في هذه المرة هو أسامة بن زيد بن حارث !
(الشوكاني / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٠٨) .

(٩٣) انظر " فقه السنة " لسيد سابق / ٢ / ١٣٠ . وانظر كذلك الشوكاني / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

له .وعبثا حاول الرسول عليه السلام الشفاعة له ، فقد أصرت علي أن ينفصلا ، فكان لها ما أرادت[٩٤] .فأين بريرة من زينب سليلة العز والشرف ؟ ولماذا ينزل وحي فيها هي وأهلها خاصة يرغمهم علي أن يرضوا بالزوج الذي اقترحه الرسول عليهم وهو عبد عتيق ؟ ألا إن في الأمر سرا سوف ينجلي حين ينزل وحي آخر يرغم الرسول عليه السلام بدوره علي أن يتزوج زينب هذه . ولكن فلننتظر قليلا.

ثم لو أن الرسول كان طالب شهوة فلِمَ لَمْ يدخل البيت عندما رأي زينب علي تلك الهيئة المزعومة(فهو علي كل حال ابن خالها) ويتودَّد إليها متظاهرا بأنه يريد أن يكفر عن إرغامه إياها علي الزواج من زيد ، وبخاصة أن العلاقة بينها وبين زوجها لم تكن علي ما ترام بسبب إحساسها أنها مغموطة في هذا الزواج ، ثم يتخذها(أستغفر الله) عشيقة ؟ وهي بعدُ ليست إلا زوجة لمن كان في يوم من الأيام له عبدا فمنَّ عليه بالحرية وقربه منه ، أما هو فزعيم الأمة وحاكمها المطلق علي زعم المستشرقين ، أمره مطاع ولا يتورع عن تلفيق الوحي لتسويغ ما يريد . إن القارئ يمكنه أن يتصور منطقية هذا الحل إذا وضع في ذهنه أن مَلِكًا حَسُنَتْ في عينه زوجة خادمه أو سائقه مثلا ، وكان هذا الملك لا يبالي بخلق ولا عُرْف كريم ، فماذا تراه فاعلاً إلا أن يأمرها بأن تتبعه إلي فراشه فتفعل ؟ وذلك بدلا من أن يتزوجها وينزل في نظر الناس من عليائه إلي اتخاذ امرأة خادمه زوجة له . ثم إن هناك في المسألة جانبا خطيرا أشد الخطورة ، فإن العرب لم تكن تُقِرّ قط مثل هذا الزواج ، لأن التبني في نظرهم كان هو والأبوة الطبيعية شيئا واحدا . وهذا هو لب المشكلة كلها ، ومن ثمة نستطيع أن نفهم تردد الرسول وعدم رغبته في إتمام هذا الزواج ، كما هو واضح من قوله تعالي « : وتخشي الناسَ ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه››[٩٥] ، الذي فهمه رودنسون علي أنه إشارة إلي أن محمدا قد خاف أن يعرف الناس تعلق قلبه بزينب ووقوعه في هواها منذ تلك النظرة المزعومة[٩٦] ، مع أن له تفسيرًا آخر يتسق مع تحليلنا هذا الذي نراه أقرب تماما إلي المنطق ، ولا ندري لِمَ لَمْ يشر إليه بكلمة واحدة ، وهو أن الرسول لم يشأ أن يواجه الناس بأن عليه أن يتزوج زينب . لكن وحي الله ينبغي أن يُبلَّغ للناس مهما تكن مرارته، وشرع الله لا بد أن يطبَّق مهما يتعارض مع التقاليد الحديدية .وليكن أول من يطبق هذا التشريع هو الرسول نفسه علي رغم ما سوف يثيره من لغط لما سيسببه للناس من صدمة شديدة . أما الادعاء بأن نظرة واحدة مباغتة لزينب ، ولما تكن قد استكملت ارتداء ملابسها ، قد زلزلت قلب محمد فمن الصعب جدا قبوله . لماذا ؟ لأن الرسول هو الذي أرغمها علي الزواج من زيد ، وكان ذلك منذ وقت قريب . فما الذي تغير فيها في هذه المدة القصيرة جدا حتي ترج كيانَه نظرةٌ إليها ؟ لو أنه عليه السلام لم يرها منذ طفولتها ثم فوجيء بها امرأة ناضجة الأنوثة لقلنا : هذا معقول ، فإن فترة المراهقة تُحْدِث من التغييرات في الفتيات الأعاجيب . أما أن تتغير امرأة ناضجة فعلا في هذا الزمن الوجيز فهو غير

---

[٩٤] انظر« رياض الصالحين» /٩٢ – ٩٣ ،و الشوكاني /مجلد ٣ / ج٦ / ص ١٥٢ .
[٩٥] الأحزاب / ٣٧ .
[٩٦] رودنسون / ٢٠٦ – ٢٠٧ .

معقول ، وبالذات إذا عرفنا أن زينب لم تكن راضية عن زوجها ودائما تعيّره بأنها أشرف منه ، لأن مثل هذه الزوجة لا تجد في حياتها الزوجية دافعا إلي الاهتمام بشكلها أو ملابسها أو زينتها ، وهي الأشياء التي يمكن أن تجعلها تبدو جميلة إذا لم تكن كذلك ، أو تزيدها ، إن كانت ، جمالا فوق جمال.

إن القصة تمضي فتقول إن محمدا عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام ، عندما وقع بصره عليها وهي في حالتها تلك ، قد انصرف من فوره وهو يردد « : سبحان مقلب القلوب . » ! فقف معي هنا أيها القارئ وقل لي : علام تدل هذه العبارة ؟ ألا تدل ، حتي بفرض صحة هذه الرواية ، علي أن الإيمان بالله كان يملأ قلب محمد عليه السلام ، وأنه كان يري ربه مطلق المشيئة ؟ تُرَي أهذه مشاعر دجال يزعم كذبا أنه متصل بالله يأتيه الوحي من لدنه بينما هو في الحقيقة يلفق هذا الوحي ليحقق به شهواته ؟ علي أية حال لقد رجع محمد ، بناء علي هذه الرواية ، ولم يفكر ولو لحظة في الدخول علي زينب برغم أن البيت كان خاليا عليها . إن رد الفعل الطبيعي هنا ، مادام محمد أسيرًا لشهوته كما تصوره كتابات المستشرقين ، هو أن يدخل وينفرد بمن زلزلت كيانه ، حتي لو كان كل ما سيفوز منها حينذاك هو مجرد الأنس بالحديث معها ساعة ومَلْء العين من جمالها إلي أن يعود الزوج المسكين من الخارج.

ولنفترض أن محمدا قد أخطأ خطأ العمر حين ترك هذه الفرصة الغالية تفلت منه فانصرف بدلا من أن يدخل ، فلِمَ لَمْ يهتبل تلك الفرصة الأخري التي قدمها إليه في منديل من حريرٍ الزوجُ الساذج السادر في حب سيده غفلة منه وحمقا ، أستغفر الله، حين أتي إليه توّ علمه بالحادثة وعرض عليه بإخلاص السذّج وحرارة الحمقي أن يتنازل له عن زوجته، التي وقعت في قلبه موقعا؟ لقد كان جواب الرسول علي هذا العرض هو « :أَمْسِكْ عليْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّه . » أتراه كان يتردد خوفا من كلام الناس ، حتي إذا ما تهيأ الرأي العام لذلك لم يجد غضاضة في قبول العرض ؟ لكن هذا الأمر قد ظل سِرًّا بين أطراف هذا المثلث فلم يبلغ آذان الرأي العام ، ولم يتهيأ من ثمة هذا الرأي العام لذلك الأمر الجلل . ثم ألم يكن أفضل من هذا كله وأسرع وأبلغ بمحمد إلي غرضه وشهوته أن يتفاهم مع زوجة عبده السابق علي ترتيب لقاء سري بينهما كلما سنحت الفرصة بدلا من وجع الدماغ هذا والدخول في هذه المتاهات المعقدة والتعرض لألسنة الناس ؟ أم تراه حين أخطأ وأفلت فرصة الخلوة بها قد فاته أيضا أن يلجأ إلي حيلة داود علي حسب ما يرويه الكتاب المقدس ، الذي يتهم هؤلاء المستشرقون أنفسُهم سيدَنا رسول الله بالسرقة منه ، فيرسل زيدًا في غزوة من الغزوات المهلكة بعد الاتفاق مع واحد من أصحابه الذين يغارون منه علي أن يضعه في مقدمة الصفوف عرضة لرماح الأعداء وسهامهم وسيوفهم كي يموت ، بالضبط كما فعل داود مع أوريا قائده المقرب إليه عندما وقع له شيء مشابه لما وقع لمحمد علي حسب هذه الرواية الملفقة ، علي رغم أنه ، علي عكس محمد ، قد أروي غلته من امرأة هذا القائد قبل أن يرسله إلي الحرب ليموت هناك ويخلو له بذلك وجه الزوجة ؟ لقد فعل داود هذا بقائده المقرب إليه ، فلم لَمْ يفعله محمد مع عبده السابق ؟ إن التخلص من عبد سابق لأهون ألف مرة من التخلص من قائد له مكانته الاجتماعية

والسياسية الرفيعة مثل أوريا[٩٧] .أم تراه عليه السلام لم يكن يسرق من اليهود إلا الأفكار الطيبة بينما يعف عن الأفكار الشريرة ؟

علي أنني مازلت أري أن من المستحيل أن يكون الأمر قد تم علي النحو الذي تزعمه تلك الرواية المتهافتة ، فقد كانت علاقة الحب المتبادلة بين محمد وزيد من المتانة والعمق والرسوخ حتي إن زيدا في صباه قد فضله علي أبيه وأمه وكل أهله الذين لم يكن قد رآهم منذ اختُطِف وبِيعَ بَيْعَ العبيد وتقاذفته المقادير حتي استقر في يد محمد ، ورفض أن يرجع معهم حين خيره النبي بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله [٩٨] .ولم يُؤْثَر عنه بعد ذلك قط أنه حنَّ إلي أهله مرة . تري أيمكن أن يبلغ الحب من قلبه هذا المبلغ المستحيل لو أنه شام من محمد ريبة علي مدي هذه السنوات الطويلة ؟ أم تري كان يبقي بعد هذه الحادثة معه عليه السلام لو أن مجرد صدي هاجس خافت قد عبر قلبه ؟ أم تري محمدا ، وهذه أبوّته لزيد الذي رباه علي يديه وسقاه من كؤوس حنانه الصافية منذ كان صبيا حتي أصبح الآن رجلا فأرغم بنت عمته هو الزعيم والحاكم المطلق السلطان علي الزواج من هذا العبد السابق ، يمكن أن يقع في مثل هذا الغرام المشتعل فجأة مع زوجة ابنه ؟ أم تراه ، بافتراض صحة وقوعه في هواها من مجرد نظرة عابرة ، كان يرضي أن يتزوجها لولا أمر السماء له بأن يكون أول من يطبق ذلك التشريع الجديد علي نفسه ليحطم التقليد الجاهلي الذي كان يَعُدّ الابن بالتبني مثل الابن الحقيقي تماما ؟

علي أن هناك شيئا فات هؤلاء المسارعين إلي تصديق كل ما من شأنه أن يلطخ سمعة الرسول الأعظم محمد ، وهو أن تلك الرواية المتهافتة تقول إن زواج محمد من زينب بعد طلاقها من زيد قد أثار زوبعة شديدة لأن الناس لم يستطيعوا بسهولة أن يهضموا زواج رجل من مطلقة ابنه ، حتي لو كان ابنا سابقا بالتبني . أفلم يكن المنطقي إذن ألا يفكر زيد في عرض تطليق زوجته علي أبيه السابق ليتزوجها ما دام الناس كانوا يستنكرون مثل هذا الزواج إلي هذه الدرجة العنيفة ؟ ثم أليس من المنطقي أن ننكر نحن إمكان حدوث ذلك ؟

ثم عائشة ! لقد كانت زوجة غيورًا ، ولو أنها أحست بشيء يحاك في الخفاء لما سكتت . ولقد سمعته عليه السلام يقول عن رجل جاء إلي بيته في أمر ما « : بئس أخو العشير هو » ! ، فلما قابله وهشّ له وألان الكلام لم تسكت علي ذلك رغم تفاهة الأمر ورغم أن هذه هي المرة الوحيدة (فيما نعرف) التي وقع ذلك فيها من الرسول عليه السلام وسألته عن سر هذا التناقض التّافه[٩٩] .فأحري بها هنا ألا تسكت لو شعرت بشيء مما يتقوله المستشرقون .لكن كان لعائشة الجريئة ذات الدلال علي

---

[٩٧] انظر ، في قصة داود وأوريا ، الكتاب المقدس / صموئيل الثاني / ١ / ٢ ـ ٢٧ . واقرأ في تفنيدي لها كتابي « المستشرقون والقرآن» / ١٣٠ .
[٩٨] انظر ابن هشام /٢٣٠/١ – ٢٣١ ، و إرفنج/ ٣٤ .
[٩٩] انظر في هذه القصة مثلا "الموطأ" /٣١ /٩٦ .

رسـول اللـه رأي آخر ، إذ قالت : لو كان رسـول الله كاتمـا شيئًا لكتم هذه[١٠٠] .ذلك أنها كانـت تـدرك تمـام الإدراك فداحـة الصـدمة التـي سيخلّفها زواج رسـول الله عليـه السلام من زينب كما مر بيانه.

مما سبق يتبين لنـا أن المستشـرق البريطـاني مـونتجمري وات كـان علـي حـق عنـدما اتفق رأيه في هذه القضية مع آراء المسلمين المعاصـرين ، وأنـه لا معنـي لاسـتغراب مكسيم رودنسون رأي رصيفه البريطاني هذا[١٠١] .ثم فلنفترض أن وقائع القصة كلها صحيحة ، فما الذي يؤخذ علي الرسول فيها ؟ أيؤخذ عليه أن نظـره وقـع عفـوا علـي زينب فكان لذلك تأثيره علي قلبه ؟ أم يؤخذ عليه أنه بدلا من أن يدخل انصرف وهو يتمتم « : سبحان مقلب القلوب » ؟ أم يؤخـذ عليـه نهيـه زيـدًا أن يطلـق زوجتـه مـن أجله[١٠٢]، وقوله له« : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتقِ اللَّه » ؟ أم يؤخـذ عليـه أنـه تـزوج زينب زواجا شرعيا بعد أن طلقها زوجها بملء إرادته وحريته ؟ ألا يري القـارئ أن الأمر كله عراك في غير معترك ، وأن ما يتقوله المستشرقون إنما هو ضجة فارغة ، وأن الآية محل النقاش ليست إلا وحيا إلهيا نزل يأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يكون أول من يطبق علي نفسه التشريع الجديد؟

ومن دلائل صدقه عليه السلام في دعوته أنه كان أول الناس وأشدهم التزامـا بمبـادئ الإسـلام عقيـدة وعبـادة وتشـريعا . إن إيمانـه بربـه وشـعوره بقدرتـه وعظمتـه ومجده ورحمته ونعمه وأنه محاسب عباده يوم القيامة علي ما اقترفت أيديهم من خير أو شر كان يُفْعِم عقله وقلبه وضميره ، وينبجس دائمـا علـي لسـانه فـي كـل سـاعة . لقـد كـان يدعو دائما ربه في كل وقت وفي كل مناسبة : فهو إذا استيقظ دعـاه سبحانه بمـا يـدل علـي تقديره نعمـة الحيـاة ليـوم جديـد ، وإذا أخلـد إلـي فراشـه دعـاه عـز وجـل دعـوة المطمئن إليـه المسلم لـه نفسـه وكـل كيانـه . وهـو إذا هطـل المطـر دعـا ، وإذا كسـفت الشمس أو خسـف القمـر صـلي ودعـا ، وإذا أجدبـت السـماء صـلي ودعـا ، وإذا سـافر ابتهل إلي ربه ، وإذا عاد رفع صوته بالحمد والشكران ، وإذا حجَّ لَبَّي ورددت تلبيتَـه الجبالُ والفجاج والوهاد . وهو لا ينسي ربه ولا يكف لسانه عن اللهج بذكره في سلم أو حرب . وهو يدعو للموتي ويدعو للأحياء في ضوء النهار وفي جوف الليل . لقد كان عليه الصلاة والسلام إذا ركب دابته هتف « سُبْحان الذي سخر لنا هذا ، وما كُنّا له مُقْرِنين ، وإنا إلي ربِّنا لمنقلبـون . اللهم إنّـا نسـألك فـي سـفرنـا هـذا البِرَّ والتقوي ،

---

[١٠٠] البخاري /٤١ / ٢٨١ .

[١٠١] انظر رودنسون /٢٠٧ .

[١٠٢] هذا ما يدعيـه المستشـرقون ، أما الروايـة القديمـة (كمـا فـي تفسيـر الطبـري والزمخشـري مثلا لهذه الآية) فتقول إن زيدا ذهب إلي الرسول عليه السلام وعرض عليه أن يفارقها ، فهتف به : «أرابك منها شيء ؟ » ، فقال له: «لا والله يا رسول الله مـا رابنـي منهـا شــيء ولا رأيـت إلا خيـرا ، ولكنهـا تتعاظـم علـي لشـرفها وتـؤذيني »، فقـال لـه الرسـول : «اتـق الله وأمـسك عليـك زوجك » ، فأمسكها زيد ، ولكن تعاظمها عليه اشتد حتي نفد صبره فطلقها ... إلخ . فـانظر الفَرْق وافهم السبب في هذا التحريف . وأصل الرواية ، كما تري ، يؤكد ما قلناه قبلا من أن زيدا لم يكن ليجرؤ علي أن يعرض علي الرسول الزواج من زينب .

ومن العمل ما تَرضْي . اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطْو ِعَنّا بُعْده . اللهم أنت الصاحبُ في السَّفر والخليفة في الأهل . اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المُنْقَلَب في المال والأهل والولد . » وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون››[١٠٣] .وكان إذا قفل من الحج أو العمرة كبَّر ثلاثا كلما أوْفي علي ثَنِيّة أو َفْدَفد ثم قال« :لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علي كل شيء قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده››[١٠٤] .وكان إذا خاف قوما قال « : اللهم نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم››[١٠٥] .وعند لبسه ثوبا جديدا كان عليه الصلاة والسلام يقول « : اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ما صُنِع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له››[١٠٦] .وإذا أوي إلي النوم قال « : اللهم أسلمتُ نفسي إليك ، ووجهتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا مَنْجَي منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت››[١٠٧] ، وإذا استيقظ قال « : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور››[١٠٨] .ومن أدعيته عليه الصلاة والسلام « : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردتَ في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون››[١٠٩] .وكان يدعو وهو داخلٌ المرحاض أو خارج منه .وقلما قام عليه السلام من مجلس إلا ودعا قائلا « : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تُبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم متِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا علي من ظلمنا ، وانصرنا علي من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا››[١١٠] .تري لو كان محمد كذابا أكان يعترف هكذا أنه ، وهو رسول الله الذي يتنزل عليه الوحي من السماء ، يحتاج إلي بذل الجهد للفوز بالجنة ، ويعلن خوفه من المعصية علي هذا النحو ؟ وهل يمكن أن يفني الكاذب الدجال في ربه علي هذا النحو العجيب ؟ وكان دعاؤه للمرضي « : اللهم ربَّ الناس ، أذهب اليأس واشف ، أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما››[١١١] . أما أدعيته وصلواته عند

---

[١٠٣] رياض الصالحين / ٢٧٦ .

[١٠٤] المرجع السابق / ٢٧٧ .

[١٠٥] السابق /٢٧٨ .

[١٠٦] السابق / ٢٤٢ .

[١٠٧] السابق / ٢٤٣ . وتأمل مَلِيًّا إقراره في نهاية الدعاء بالوحي وبالرسل جميعا وهو منهم ، فهل يمكن أن يكون مثل هذا الرجل كاذبا ؟ أيمكن أن يكذب الإنسان حتي علي نفسه في مثل هذا الدعاء العفوي ؟

[١٠٨] السابق /٢٤٣ . وانظر كيف يربط بين النوم والموت وكذلك بين الاستيقاظ والبعث ، وهو ما يدل علي امتلاء عقله وقلبه بصدق عقيدة الألوهية والنشور .

[١٠٩] الموطأ / ٢١٩/١. والتفِتْ إلي خوفه عليه السلام من ربه وتعلق قلبه به وفزعه من الفتنة .

[١١٠] رياض الصالحين / ٢٤٦.

[١١١] المرجع السابق / ٢٥٩ .

الكسوف والخسوف والاستسقاء وموت أحد النـاس فمعروفـة فـي جميـع كتـب الفقـه . وفي آخر لحظات حياتـه كان دعـاؤه « : اللهـم أعِنّي علي غمرات الموت وسكرات الموت ، اللهم اغفر لي وارحمنـي ، وألحقنـي بالرفيق الأعلي››[١١٢] . فهل هذا كـلام مزيف محتـال ؟ أم هل يُقْبِل المزيـف المحتـال علـي الموت بمثل هذا التعلـق بـالله ، الذي يكذب عليه ويضع الوحي وينسبه إليه ؟ كذلك كان يطلب من بعض صحابته أن يدعوا له ، كما هو الحال مثلا عندما قال لعمر بن الخطاب « : لا تنسنا من دعائك يـا أخـي››[١١٣] . ومن ذلك طلبـه مـن المؤمنين أن يسألوا لـه الوسيلة رجـاء أن تُكْتَب لـه[١١٤] .أما القرآن فكـان ربيـع قلبـه ، كمـا كـان يبكـي أحيانـا لـدي سماعـه[١١٥] . وهل رؤي كاذب يبكي لسماعه كلاما يعلم في قرارة نفسه تمام العلم أنه هو الذي زوّره ونسبه إلي الله ؟ اللهم إلا إذا قيل إنـه كـان عليـه السلام ممثلاً بارعًا . لكـن تحليل شخصيته واستقصاء دقائق حياته يبعدان عنـه تمامـا شبهة التظـاهر بالبكـاء مـن غيـر تأثر حقيقي . ليس هذا فقط بل كان عليـه السـلام يَرْقِـي نفسـه بـالقرآن ، وعنـدما يـأوي إلي فراشه كان يقرأ المعوذتين ويمسح بهما جسده[١١٦] .

أما بالنسبة لعبادته صلي الله عليه وسلم فقد أعلن أن الصـلاة هـي قرة عينـه، بـل كـان يبكي أحيانا وهو يصلي[١١٧] . ولم يكن عليـه السلام يكتفي بالمفروضـة علـي مـا فـي صلاة الفجر وحدها من ترك الفراش الدافئ وبخاصـة في ليالي الشتاء واستعمال الماء البارد في الوضوء . ويتنبه كِلِتْ إلـي هذه النقطـة من شخصيته فيشير إلـي أنـه ظل يؤدي الصلاة حتي اللحظة الأخيرة من حياتـه[١١٨] .بل كانت لـه نوافل عند كل صلاة ، وذلك غير صلاة القيام والضحي . وكان لا يدع هذه النوافل حتي في الحرب أو المرض أو وهو مسافر راكب حماره أو بعيره . وتأمل كيف أنـه ، وقد فتحت جيوشه مكة معقل الوثنية الأعظم(مكـة التـي أخرجـتـه من بيتـه وبلده وتـآمرت علـي

---

[١١٢] السابق / ١٦٢. وفي مرضه الأخير هذا نهي بشدة عن اتخاذ قبره وثنـا (الموطـأ/ ١ / ٥٨١ - ٦٨١) .

(٣١١) ريـاض الصـالحين / ١٢٧. وانظـر كيـف ، وهـو المبشـر النـذير ، يعلـن علـي أتباعـه أنـه بحاجة إلي دعائهم ، بما يدل علي أنه لا يوجد فرق بينـه وبين أي إنسان آخر في مسألة الحساب والثواب والعقاب ، والطمع في الجنة ورضا الله ، والخوف من عذابه وناره .

[١١٣] رياض الصالحين / ١٢٧. وانظر كيف ، وهو المبشر النذير ، يعلن علي أتباعه أنه بحاجة إلي دعائهم ، بما يدل علي أنه لا يوجد فرق بينه وبين أي إنسان آخر في مسألة الحساب والثواب والعقاب ، والطمع في الجنة ورضا الله ، والخوف من عذابه وناره .
[١١٤] انظر الشوكاني / مجلد ١ / ج ٢ / ص٥٥ .
[١١٥] رياض الصالحين / ١٤٩ .
[١١٦] رياض الصالحين / ٣٧١ .
[١١٧] رياض الصالحين / ١٥٠ .
[١١٨] كِلِتْ / ٣٤٢ . كذلك لم يفته أن يذكر اشتهار الرسول عليه السلام بين قومه بالصدق والأمانـة (ص / ٣٣٥).

قتله وناصبته الحرب الضروس طيلة هذه الأعوام، مكة أبي سفيان وهند وأضرابهما) ، لا يزدهيه هذا النصر فينسيه ربه ولو للحظة من نهار ، بل يبادر فيصلي الضحي ثماني ركعات، مما يدل علي أنه كان موصول القلب والضمير بالله مشدودا إليه بأمراس من الإيمان لا تنقطع أبدًا[١١٩] .ولم يكن يُخْرِج الزكاة فقط ، بل كان يخرج كل ما يصله من مال علي كثرته ، كما كانت زوجاته اللائي اتُهم بأنه تزوجهن زواج الشهوة المغتلمة يخرجنها مضاعفة ، وذلك علي عكس زوجات الكذابين الذين يتوسلون بالدين وبالدعوات النبيلة لاحتبال أموال الآخرين والتنعم بها خلف أسوار قصورهم المبنية من عرق الكادحين المخدوعين . وكان عليه الصلاة والسلام عندما يصوم ويتصادف أن يكون الجوُّ شديد الحرارة لا يستنكف أن يصب الماء علي رأسه ، وفي هذا من التواضع والصدق ما فيه ، وإلا لتظاهر بالتحمل ليكبر في أعين أتباعه ، شأن المنافقين، وله فيما يستطيع أن يكرعه من ماء إذا خلا بنفسه مندوحة واسعة[١٢٠] . ولست بحاجه إلي أن أشير إلي حجه وما لقي فيه سَفَرًا وحِلاً من متاعب ما كان أغناه عنها وأَقْمَنَه أن يزعم أن الله قد أعفاه منها لو أنه كان كاذبا . وكانت النية عنده هي الأساس في هذا كله ، مما يدل أقوي الدلالة علي أن مدار أمره كله هو الصدق والإيمان الصحيح لا مجرد التظاهر والتمسك بالشكليات[١٢١] .وكانت زوجاته في الصف الأول بين المطيعين لما جاء به عليه السلام . وانظر كيف أفطرت عائشة وحفصة يوما في صيام نفل لم يكن يعرف عنه شيئا فأخبرتاه تستفتيانه ، وما كانتا

بحاجة إلي ذلك لو لم يكن الإيمان قد خالط قلبيهما وغمرهما تماما . ولكنه عليه السلام رغم أخذه دائما بظاهر الأعمال كان يتشدد مع زوجاته . ومن ذلك أنه لم يسترح لتنافسهن في الاعتكاف في الموضع الذي علمن أنه سيعكف فيه ، إذ حدث أن رأي في المسجد بعض الأخبية فسأل عنها فأُخبِر أنها لعائشة وحفصة وزينب ، فقال : «آلبرَّ تقولون بهن ؟ » ، ثم انصرف فلم يعتكف حتي اعتكف عشرا من شوال[١٢٢] . ولو لم يكن صادقا يتضوع الصدق من كل كيانه ونواياه وأفعاله لأثني عليهن ساعتها أمام الناس خيرا وزعم أنهن في كل شيء نِعْمَ المثالُ المحتذَي.

وله عليه الصلاة والسلام في هذا الباب عجائب لا تكاد تصدق : فقد سها في صلاته بأصحابه مرة ، فلما نبهوه إلي ذلك لم يتمحَّل ولم يدَّع مثلا أنه لا يسهو وأن ما ظنوه سهوًا إنما كان تخفيفا من الله في هذه الصلاة بالذات لسبب أو لآخر كان بإمكانه اختراعه ، بل أقر بخطئه وعاد ليكمل الصلاة بهم[١٢٣] .كما سها مرة أخري في

---

[١١٩] ابن هشام / ٤ / ٤٠ .
[١٢٠] انظر في هذا « الموطأ » / ١ / ٢٧٥ .
[١٢١] انظر مثلا الشوكاني / مجلد ١ / جـ ١ / ص ١٣١ .
[١٢٢] الموطأ / ١ / ٢٩٥ .
[١٢٣] الموطأ / ١ / ١١٥ .

صلاته ، فسجد سجدة السهو من تلقائه من غير أن ينبهه أحد[١٢٤]، وهو ما يعد اعترافا منه تلقائيا بأنه يجوز عليه النسيان رغم أنه رسول ربٍ لا يضل ولا ينسي ، بل لقد قال ذلك صراحة في إحدي المراتء[١٢٥] .كذلك فقد حدث أن أقيمت الصلاة ذات مرة وعُدّلت الصفوف ثم خرج النبي عليه الصلاة والسلام، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جُنُب فقال لأصحابه« : مكانَكم »، ثم رجع فاغتسل ، وخرج إليهم ورأسه يقطر ماء فأمّهم في الصلاة[١٢٦] .لقد كان عليه السلام يستطيع ، لو كان نبيا مزيفا ، أن يصلي جُنُبًا ، إذْ مَن ذا الذي كان يعرف من المصلين أنه جنب ؟ لكن حرصه علي أن يرجع فيغتسل أوّلا ، برغم خروجه للصلاة بالناس الذين كانوا ينتظرونه وقد أقيمت الصلاة وعُدِّلت الصفوف، وبرغم ما في ذلك من إحراجٍ ضاعفه أن في ذلك اعترافا منه بجواز النسيان عليه حتي في مسائل الطهارة والاستعداد للصلاة ، التي هي عماد الدين ، هو من الدلائل القاطعة علي صدقه . إن مثل هذا الرجل الذي كان يسأل الله أن يرزقه لسانا صادقًا[١٢٧] لا يمكن أن يكون من الكذابين ، وإلا فليس ثمة إنسان في الدنيا أهل للثقة إذن[١٢٨] .

ولم يكن النسيان هو العرض البشري الوحيد الذي اعترف النبي عليه الصلاة والسلام بجوازه عليه ، فهو لم يدع يومًا أنه يعلم الغيب ولا حتي فيما يتعلق بمواقيت الصيام ، وهو العبادة الثانية في الإسلام ، إذ غُمّ هلالُ شوال في إحدي السنين فصام المسلمون ومعهم الرسول ، ليأتي في اليوم التالي من يخبرهم وهم صائمون بأن الهلال قد رُئِي البارحة في مكان آخر فيفطر عليه السلام ويفطرون . وقد كان يستطيع ، لو كان كذابًا يدعي معرفة الغيب من السماء ، أن يشكك هذا القادم في رؤيته ويصر علي مواصلة الصيام حتي لا يقال عنه إنه لا يعرف الغيب .ذلك أن كثيرًا من العرب في ذلك الوقت كانوا يظنون أن النبوة تستلزم هذا[١٢٩] .كما أكد لأصحابه أنه إذا قضي بين اثنين فإن أحدهما يمكنه ، لو أراد ، أن يخدعه بالباطل إذا كان أبرع في القول من خصمه[١٣٠] . كذلك لم يكن عليه السلام يدعي أنه يعرف مصائر الموتي، بل كان يقول عن نفسه : «والله ما أدري وأنا رسول الله ماذا يُفْعَل بي[١٣١] . ومثل ذلك أن عائشة حين رُمِيَتْ بما رُمِيَتْ به ، عليها رضوان الله، لم يسارع الرسول عليه السلام ، وهي زوجته ويهمه ألا يلوك الناس سيرتها ، بتبرئتها ، بل انتظر حتي نزل الوحي بعد وقت يعد

---

[١٢٤] السابق / ١ / ١١٨ .

[١٢٥] السابق / ١ / ١٢١.

[١٢٦] السابق / ١ / ٦٩ ، والشوكاني / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ١٩٠ .

[١٢٧] الشوكاني / مجلد ١ / ج ٢ / ص ٢٩٥ .

[١٢٨] وكان عليه السلام يسأل الله أن يرزقه كلمة الحق في كل حال (الشوكاني/ مجلد ١ / ج ٢ / ص ٢٩٦) .

[١٢٩] انظر الشوكاني / مجلد ٢ / ج٣ / ص ١٣٠ .

[١٣٠] انظر البخاري / ٤ / ٢٠٤ .

[١٣١] انظر البخاري / ٤ / ٢١٢ ، ٢١٥ ، حيث توجد رواية عن موت عثمان بن مظعون وشهادة إحدي النساء له بأن الله أكرمه ، مما دفع الرسول عليه السلام إلي قول ما قال .

طويلا جدا في تلك الظروف[١٣٢] . وكان يستطيع ، لو كان كاذبا ، أن يصنع وحيا منذ أول لحظة يُخرس به الألسنة . ويضاف إلي ذلك اعترافه بأن علمه بأمور الدنيا محدود ، برغم أنه رسول الله خالق الدنيا والآخرة . وحادثة تأبير النخل مشهورة مستفيضة . ومثلها أنه هم بالنهي عن الغيلة لولا أنه نظر إلي الروم وفارس فإذا هم يغيلون فلا يضر ذلك أولادهم في شيء[١٣٣] .ليس ذلك فقط ، بل كانت تقع له أمور لو وقعت لغيره لكتمها خوفا من أن تسيء إليه في نظر الناس ، لكنه عليه السلام كان يصرّح بها رغم أنه لم يُؤْمَر بتبليغها لأحد . ومنها أنه زار ذات يوم قبر أمه فبكي وأبكي من حوله . إلي هنا والأمر مفهوم ، لكن الغريب أن يتطوع فيذكر لهم أنه استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له، بينما حين استأذنه أن يستغفر لها لم يأذن . أفهذا فِعْلُ أو كلام دجال؟[١٣٤] .

ومن عجائبه في هذا الباب ، باب الصدق ، أنه عليه الصلاة والسلام لم يدَّع يوما أنه قادر علي الإتيان بمعجزة ، فما هو (كما كان يقول دائما في الرد علي من يَتَحَدَّوْنه من المشركين أو اليهود) إلا بشر رسول . ولَرُبَّ من ينبري قائلا : وهل كان المراد أن يدعي قدرته علي صنع المعجزات حتي إذا سُئِل أن يصنع واحدةً عجز وانكشف كذبه ؟ إن دهاءه إذن لا صدقُه وإخلاصَه هو الذي منعه من مثل هذا الادعاء . وبغض النظر عن أنه لم يحاول أن يهتبل فرصة كسوف الشمس يوم موت ابنه وفلذة كبده إبراهيم مثلا ويدّعي أنها آية إلهية علي مشاركة الكون له في أحزانه[١٣٥]، فإنه عليه الصلاة والسلام كان بإمكانه أن ينكر وقوع المعجزات ممن تقدّمه من الرسل والأنبياء حتي يسوي بينهم وبينه في هذا المجال ، وعلي من لا يصدقه أن يثبت العكس ، وهو مستحيل طبعا ، فإن هؤلاء الأنبياء والرسل كانوا قد ماتوا وشبعوا موتا منذ أحقاب متطاولة . ولا أعتقد أن أحدا يمكنه أن يعزو عدم نفيه عليه السلام وقوع المعجزات من الأنبياء السابقين إلي أن ذلك كان مقررا في العقول والنفوس ، فإن ما كان قد رسخ في نفوس النصاري وعقولهم من الإيمان مثلا بألوهية المسيح أو علي الأقل بنوته لله وموته عليه السلام علي الصليب تكفيرا عن خطيئة آدم ، وهما أساس النصرانية وبهدمهما تنهدم من قواعدها ، لم يمنعه من أن يَحْمِل علي هذه العقيدة وينسفها نسفا ، مسفّها لها ولمن يتمسكون بها . ومِثْل ذلك وأشدّ منه صنَعه مع اليهود ومع الكفار ، فلماذا لم ينف معجزات الرسل الماضين ليغلق باب التحدي والإحراج الذي كان القوم مغرمين بفتحه ظنا منهم أنهم يفحمونه ؟ لقد اعترف عليه الصلاة والسلام بمعجزات إخوانه السابقين ، وفي نفس الوقت أكد أنه ليس إلا بشرا رسولا وأن المعجزة مهما كانت غرابتها وشدهها للعقول فإنها لا تغني عن التأمل والنظر واستخدام العقل نعمة الله الكبري علي الإنسان . أفهذا موقف مزيف كذاب ؟ بل لقد

---

[١٣٢] السابق / ٤ / ٢٧١ .
[١٣٣] الشوكاني / مجلد ٣١ / ج ٦ / ص ١٩٦ . والغيلة أن يجامع الرجل امرأته وهي مرضع أو أن تُرْضِع المرأة وهي حامل .
[١٣٤] انظر المرجع السابق / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٠٩.
[١٣٥] انظر إرفنج / ١٧٦ .

بلغ من صدقه أنه كان يكون له في المسألة المعروضة عليه رأي ثم ينزل الوحي بغير ذلك فيعلنه ولا يكتمه ، وفي ذلك ما فيه[١٣٦].

ومما ينبغي ذكره في هذا السياق أنه عليه الصلاة والسلام لم تُمْسَك عليه كذبة واحدة .كيف لا وقد جعل الصدق يهدي إلي البر فالجنة ، والكذب يؤدي إلي الفجور فالنار ؟ كذلك كان يوجه أصحابه إلي توخي الدقة في الكلام والوعود حتي إنه ، عند مبايعتهم له علي السمع والطاعة ، كان يعقب علي ذلك بقوله « : فيما استطعتم››[١٣٧] .كما كان يحب لأصحابه إذا مدح بعضهم أحدًا أن يقول « : أحسبه كذا››[١٣٨] . ويتصل بهذا كراهيته للتكلف في العبادة[١٣٩] . وقد بلغ حبه للصدق أنه لم يجوِّز الكذب قط مهما كانت الظروف إلا فيما لا يمكن لعاقل صادق بالغا ما بلغ من تحرُّج وتأثُّم أن يدَّعي أن الصدق مفضل فيه ، وذلك في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها[١٤٠] .وكان عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليمات أشبه الخلق جميعا ظهرا ببطن . وقد رأينا كيف أن عائشة ، في المرة الوحيدة التي رأته يبتسم ويُلِين القول لرجل لم يكن رأيه فيه طيبا ، لم تشأ أن تدع الأمر يمر من غير استغراب واستفسار ، وهو ما يدل علي أنها لم تتعود منه إلا الوضوح التام . ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد استنكف أشد الاستنكاف أن يغمز بعينه لأحد الصحابة من حوله بعد فتح مكة ليقوم فيضرب عنق عبد الله بن سعد كاتب الوحي الخائن الهارب حين ناشده عثمان العفو عنه ، واكتفي عليه السلام بالصمت لعل أحدهم ينهض فيقتله من تلقاء نفسه جزاء خيانته ونذالته ، فلما لم يفعلوا وهبه العفو المطلوب .ولما فُتِح الموضوع بعد ذلك وعرفوا ماذا كان يدور في نفسه عليه السلام ساعتها سألوه لِمَ لَمْ يغمز لهم بعينه ، فكان جوابه أن مثل هذا العمل لا يليق بالأنبياء[١٤١].

وإن تفانيه في الصدق ونفوره القاطع من الكذب هو الذي جعله يلتفت إلي ما اضْطُرّ إليه أبو الأنبياء إبراهيم ، عليه وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام ، من تجاهل للحقيقة ، وإن لم يتجاوز ذلك ثلاث مرات[١٤٢].

ولا يحسبنّ ظانٌّ أنه عليه السلام قد قال عن خليل الرحمن ذلك لَمْزًا له من طرْف خفي ، فقد كان صلي الله عليه وسلم لا يذكر إخوانه الأنبياء إلا بخير : ومن ذلك وصفه في أحد ابتهالاته لربه إبراهيم عليه السلام بأنه عبد الله وخليله ونبيه ، بينما لم يصف نفسه إلا بالعبودية والنبوة فقط[١٤٣] . كما كان ينهي أن يفضله أحد علي يونس

---

[١٣٦] البخاري / ٣ / ١٦٢ .
[١٣٧] الموطأ / ٢ / ١٤٧ .
[١٣٨] رياض الصالحين / ٤٥٢ .
[١٣٩] المرجع السابق / ٥٧ .
[١٤٠] الشوكاني / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ٢٥٥ .
[١٤١] ابن هشام / ٤ / ٣٩ .
[١٤٢] انظر البخاري / ٣ / ١٥٠، ٢٤٠، و رياض الصالحين / ٤٧٣ .
[١٤٣] الموطأ / ٣ / ٨٣ .

بن متي عليه السلام[١٤٤] .أما عن يوسف عليه السلام فكان يقول « : لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبت›› (يشير عليه الصلاة والسلام إلي أن يوسف رفض أن يخرج من السجن إلا بعد ظهور براءته تماما خالية من أي شك)[١٤٥] .كذلك لما سُئل:‹‹أيّ الناس أكرم؟ » كان جوابه « : يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله››[١٤٦] .وعن أحب صيام وصلاة إلي الله قال إن أحب الصيام إلي الله صيام داود ، وأحب الصلاة إليه سبحانه هي صلاة داود[١٤٧] . حتي موسي عليه السلام نبي اليهود ، الذين لقي سيدنا رسول الله من خبثهم وقلة أدبهم وخيانتهم ما لقي والذين كانت بينه وبينهم حروب وثارات ذحلاء رفض أن يُخَيّره أصحابُه عليه قائلا « :لا تخيِّروني علي موسي ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسي باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثني الله . » وحتي يعرف القارئ عظمة هذه الشهادة ودلالتها علي صدقه عليه السلام أذكر أن ذلك القول منه كان تعقيبا علي مشادة وقعت بين مسلم ويهودي أقسم المسلم فيها قائلا « : والذي اصطفي محمدا علي العالمين » ، فقال اليهودي بدوره « : والذي اصطفي موسي علي العالمين » ، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودي ، فذهب هذا إلي رسول الله فأخبره بالأمر[١٤٨] . غير أن ذلك كله لا يعني أنه كان يري نفسه ضئيلا بجانب إخوانه الأنبياء . إنما هي العظمة والثقة والتواضع ، وإلا فهو القائل إنه يرجو أن يكون أكثر الأنبياء أتباعا يوم القيامة[١٤٩] ، كما أن الشفاعة العظمي قد ادُّخِرَتْ له[١٥٠] .وعن علي ، كرم الله وجهه ، أنه قال : «قال رسول الله :أُعْطِيتُ مالم يُعْطَ أحد من الأنبياء : نُصِرْتُ بالرعب ، وأُعْطِيتُ مفاتيح الأرض ، وسُمِّيتُ أحمد ، وجُعِلَ لي التراب طهورا ، وجُعِلَتْ أمتي خير الأمم››[١٥١] . فهل رأيت دقة في تقويم قدره وأقدار العظماء من إخوانه الأنبياء أدق من هذه ؟ إنها الموضوعية بدون شقشقة أو ادعاء.

وهذه العظمة النبوية والثقة بالنفس التي جعلته يتواضع لإخوانه الأنبياء هي هي التي جعلته يرسل الرسل والكتب إلي ملوك العالم من حوله ، هؤلاء الملوك الذين تعود زعماء العرب منذ أدهار أن ينحنوا لهم إذا دخلوا عليهم[١٥٢]، وكان أقصي ما يتطلع إليه أنظار هؤلاء الزعماء هو أن يكون الواحد منهم علي دُوَيْلة تتبع إمبراطورية كسري في الشمال الشرقي أو إمبراطورية هرقل في الشام . أما محمد عليه الصلاة

---

[١٤٤] البخاري / ٣ / ١٢٨ ، ١٨٠ .
[١٤٥] المرجع السابق / ٤ / ٢١١ .
[١٤٦] رياض الصالحين / ٣٨ .
[١٤٧] الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ٥٨.
[١٤٨] انظر البخاري / ٤ / ٢٩٢ .
[١٤٩] المرجع السابق / ٤/ ٢٥٦ .
[١٥٠] انظر رياض الصالحين / ٤٧٢ ـ ٤٧٤ .
[١٥١] الشوكاني / مجلد ١ / ج ١ / ص ٢٦٢ .
[١٥٢] وقد نهي النبي أصحابه أن يعظّموه كما كانت الأعجام تعظم ملوكهم ، وكان يذكّرهم دائما بأنه عبد لله مثلهم .

والسلام فقد حطم هذا كله تحطيما حين أرسل كتبه إلي هؤلاء الملوك يدعوهم في عبارة موجزة حاسمة كلها ثقة بالسماء وبالدين الذي أُوحِيَ إليه وبرسالته إلي الدخول في الإسلام ، وإلا فإنهم يتحملون وزر أتباعهم المستضعفين . وقد أخرجت كسري عن طوْره هذه الجرأةُ التي سولت لمحمد أن يضع اسمه قبل اسمه هو الإمبراطور الجبار ، فمزق الكتاب وأرسل إلي عامله علي اليمن أن يأتيه برأس محمد[١٥٣] ، وهو ما يدل علي خطورة الخطوة التي خطاها الرسول والتي لا يمكن تفسيرها إلا بأنه رسول موحي إليه من السماء ، وإلا ما فكر مجرد تفكير في إرسال خطاب إلي كسري أو هرقل أو مقوقس مصر ولو لعرض خدماته عليهم[١٥٤].

علي أن ثمة مقياسا نفسيا آخر يقاس به صدقه عليه أفضل الصلاة والسلام وأمانته هو أنه لم ينقلب قط علي أحدٍ من أصحابه ، وكذلك لم ينتقض واحد من أصدقائه عليه ولم يتنكر له أو يغير رأيه فيه ولو بعد وفاته عليه السلام بعشرات السنين . إن من المستحيل أن يحتفظ كاذب مخادع بمثل هذه الصداقات النادرة المتنوعة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبيّ وخالد وعمرو وأبي موسي الأشعري وأبي ذر وأبي هريرة ومئات غيرهم من الذين عاشوا علي مقربة منه واستحقوا أن نقول عنهم إنهم أصحابه(أصحابه بمعني « أصدقائه » ، لا بالمعني الاصطلاحي للكلمة ، فهذه تشمل عشرات الألوف) .إننا نري الحاكم أو الزعيم من هؤلاء في الماضي أو في الحاضر لا يكاد أحيانا يمر يوم عليه من غير أن تسوء العلاقة بينه وبين هذا أو ذاك ممن وقفوا معه وآزروه وأتَوْا به إلي الحكم فينقلب أحدهما علي الآخر ، أما مع محمد فالأمر مختلف تمام الاختلاف . ومثل هذا الصِّدِيق لا يمكن أن يكون مزورا كذابا[١٥٥].

وما قيل عن أصدقائه يقال عن زوجاته ، فقد كان رفيقا معهن جمعاوات ، وكُنَّ من جانبهن يحببنه حبا جمّا ويَغَرْن عليه ، وبالذات عائشة ، التي كانت أصغرهن سنا والعذراء الوحيدة بينهن .كما كن من أشد أتباعه تمسكا بالدين عبادة وأخلاقا وكرما ورفقا بالمساكين ، سواء في حياته أو بعد مماته .أو ليس عجيبا أن يحظي بحبهن كلهن علي هذا النحو رغم أنهن كن في وقت من الأوقات تسعا، ورغم اختلافهن سنًّا وبيئة وشكلا ودينا ؟ تري لو كان كاذبا مخاتلا أفما كُنَّ أو كان بعضهن علي الأقل سيلحظن ذلك ؟ وعندئذ أوَما كُنَّ سيتمردن عليه أو تتناثر من أفواههن بعض الكلمات هنا أو ههنا يعبّرن بها عن ارتيابهن فيه ولو بعد وفاته، وبخاصة أنهن كن ضرائر؟ لقد بلغ من حبهن له أن رفضن جميعهن رفضا باتا أن يطلقهن عليه السلام حين عرض عليهن ذلك إثر مطالبتهن له بأن تكون حياتهن معه أرفه قليلا . وكلنا يعرف كيف كان تقشف حياة الرسول ! وبلغ من حب أم حبيبة له، عليها رضوان الله ، أنها رَبَأتْ بفراشه عليه السلام أن يجلس عليه أبوها أبو سفيان ، الذي لم تكن رأته منذ أعوام بعد غربة طويلة في بلاد النجاشي وموت زوجها الأول في المهجر ، فطوت

---

[١٥٣] ابن هشام /١/ ٦٢-٦٣ ،وإرفنج /١٣٢ .

[١٥٤] انظر تعليق كارلايل في كتابه «الأبطال» (ترجمة محمد السباعي) / ٢ / ٩٢ .

[١٥٥] وانظر إلي توصيته بالأنصار خيرا وهو في مرضه الأخير (ابن هشام / ٤ / ٢١٩).

الفراش عنه وجبهته بالحقيقة حين حاول أن يخدع نفسه بأنها إنما ربأت به هو أن يجلس عليه[١٥٦] .وأعجب من ذلك أنه عليه السلام لم يكن شابا ولا كانت حياته في بيته ، كما قدمنا ، لينة بله مترفة[١٥٧] .ثم تأتي عجيبة العجائب ! لقد نزل الوحي يحرّم الزواج علي هؤلاء الزوجات جمعاوات إلي الأبد ، ومعظمهن شوابّ ، فلم تنبس واحدة منهن ببنت شفة تذمرا . ثم مات الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بقليل فلم تفلت من فم واحدة منهن ولو عفوا كلمة تنفّس بها عن ضيقها من هذا الحرمان الذي كتب عليها إلي آخر حياتها . لو أن الرسول مات وهو شاب لقلنا : لقد امتثلن لهذا التحريم وفاءً لشبابه الذي اغْتُضِر ! لو أنهن عشن معه عيشة مترفة لقلنا : إنهن سيعشن ما بقي لهن من عمر علي ذكري الأيام الناعمة ! لو أنهن أنجبن منه لقلنا : إنهن سيخصصن حياتهن الباقية لتربية الأولاد ، وسوف يجدن في إغداق الحنان عليهم تعويضًا عن فقدان الزوج ! لو أنه ورثهن مالا عريضا لقلنا : لقد جعلن من هذا المال سلوتهن ! لكن شيئا من ذلك لم يكن . وقد عشن جميعهن بعده عليه السلام ماعدا زينب أم المساكين رضي الله عنها ، وبعضهن امتدت حياتهن بعده عشرات السنين ، مثل عائشة ، التي ظلت علي قيد الحياة بعده تسعة وأربعين عام [١٥٨] وصفية ، التي ماتت في خلافة معاوية بعد أن عاشت بعده أربعين عاما[١٥٩]، وميمونة ، التي لاقت ربها سنة ٣٦ أو ٦٦ هـ[١٦٠] ، فلم تُسْمَع عن واحدة منهن ولو همسة ريبة ، فهل يُعْقَل أن يلتزمن كلهن بهذا التشريع المقصور عليهن وحدهن من بين نساء المسلمين جمعاوات لو أنهن ارتبن في محمد ذرة من ارتياب ؟ أيرضين أن يحرمن أنفسهن هذا الحرمان القاسي الذي امتد في حالة عدد منهن عشرات السنين ، وقد كان معظمهن(كما قلت) شابات حين تأيَّمْنَ ، لمجرد تشريع اخترعه زوج كذاب فلا يتخذن العشاق[١٦١] أو علي الأقل يهربن إلي خارج البلاد ؟ ولهن في جبلة بن الأيهم حين هرب من العقوبة إلي بلاد الروم وتنصّر هناك أسوة . ولا شك أن ملوك البلاد التي حول جزيرة العرب كانوا سيرحبون بهن كل الترحيب ، إن لم يكن من

---

[١٥٦] ابن هشام / ٤ / ٢٧.

[١٥٧] قارن ذلك بصفية بنت حُيَيّ ، إذ لم تأسف ولو بكلمة علي زوجها ، الذي أمر الرسول بقتله ، وكأنه لم يكن لها زوجا ، رغم أنه كان من سادة قومه ورغم غناه وترفه وشبابه (الشوكاني / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ٥١). وقارن أيضا بهند زوجة أبي سفيان ، فقد استقبلته يوم الفتح أسوأ استقبال وأهانته بالكلام المسموم حينما أقبل من عند الرسول يطلب من أهل مكة عدم التصدي لجيش محمد (ابن هشام / ٤ / ٣٤) ، وكذلك زوجة الأسود العنسي ، التي انقلبت عليه ، وساعدت المسلمين علي التخلص منه (إرفنج / ١٨٢).

[١٥٨] انظر «تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة / ٣٨ .

[١٥٩] د . هيكل / ٣٩٢ ،وإرفنج ١٣١ .ولاحظ أنها كانت يهودية قبل أن تسلم، كما كانت بنت سيد قومها حُيَيّ بن أخطب ، فكانت جديرة أن تكشف كذب محمد بسهولة لو أنه كان عليه السلام كاذبا ، وبخاصة أنه تزوجها بعد أن أمر بقتل زوجها (ابن هشام /٢١٩/٣، ٢١٧) وكانت قد وقعت في نصيب أحد المسلمين من سبي خيبر ، فأعتقها رسول الله وتزوجها .

[١٦٠] ابن هشام / ٤ / ٦ بالهامش .

[١٦١] وكان باستطاعة عائشة حينئذ أن تستغل وجود أبيها علي قمة السلطة في الدولة الجديدة بوصفه الخليفة فتفعل ما يحلو لها . كما كانت حفصة تستطيع نفس الشيء في عهد أبيها ، الذي تولي الخلافة بعد وفاة الرسول (زوجها) بسنتين ، وبقي فيها عشرة أعوام .

أجل شيء فمن أجل استغلالهن في الدعاية ضد الدين الجديد الذي ابتدأ يهدد عروشهم[١٦٢].

والآن بعد أثبتنا أن محمدا لا يمكن أبدًا أن يكون كاذبا ، وبعد التحليلات التاريخية والنفسية المطولة والمفصلة التي أثبتنا بها ذلك علي نحو قاطع لا يحتمل لجاجة ولا ترددا ، فإننا سوف نعدّ ما مرّ كله كأنه لم يكن ، وسنقلب الورقة علي وجهها الثاني لنري إن صحت التهمة ، وهذا مستحيل ، كيف ألف محمد قرآنه المزيف ومن أين استقاه ، ومن الذين أعانوه . ألم يُتَّهم عليه الصلاة والسلام من أعدائه منذ أن دعا إلي دين الله حتي الآن بأنه أخذه عن قوم آخرين ؟

لقد اتهمه كفار مكة بأنه إنما يعلمه بشر ، وأن الوحي ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها[١٦٣] .فأما التهمة الأولي فإن القرآن يدحضها علي أساس أن ذلك المعلّم المزعوم كان أعجمي اللسان ، إذ لم يكن يستطيع من العربية إلا ما يقوم بحاجاته العامة ، ومن ثم فمظنة مناقشته والأخذ والرد معه من قِبَل الرسول عليه السلام مستحيلة[١٦٤] . ولو كان رد القرآن علي هذه التهمة غير صحيح لما سكت الكفار عليه بل فنّدوه ، وعندئذ كان القرآن سيسجل التفنيد ويرد عليه بدوره كما هي عادة الوحي ، فما من شيء رمي الكفار أو غيرهم من أعداء الإسلام الرسولَ به إلا حفظته آياته ، لم يشذ أي شيء عن هذا . كذلك فإن الملاحظ أن الكفار لم يحددوا شيئا بعينه في القرآن قد تعلمه من هؤلاء ، وإنما هو كلام عام عليه مسحة الرغبة في التشويش علي الدعوة الجديدة ورسولها عليه السلام .وإن الذي عنده دليل لا يكتفي أبدا بمثل هذه التهمة ، بل يقصد قصدا إلي التحديد ، ويأتي بالشهود ، ويعين الزمان والمكان

---

[١٦٢] انظر مثلا كيف سارع ملك غسان فأرسل إلي كعب بن مالك ، حين علم بغضب الرسول عليه لتخلفه عن غزوة تبوك ومقاطعة المسلمين له ، كتابا في شقة من الحرير يدعوه فيه إلي اللحاق به ليكرمه ويواسيه (ابن هشام / ٤/ ١٣٢).إن هذا الموقف من زوجات الرسول لدليل علي كذب ما لاكه المنافقون وكثير من المستشرقين عن عائشة عليها رضوان الله ، فقد عاشت تسعة وأربعين عاما بعد الرسول ، وكانت في عز شبابها حين وفاته ، فلم يؤخذ عليها أدني شيء ، ولدليل أيضا علي كذب ما قيل عن زينب بنت جحش من أنها ما كادت تسمع تمتمات الرسول وهو منصرف عنها حتي انقلبت علي زوجها ونغصت عليه عيشه لتتزوج محمدا المعجب بها ، إذ إن من تتصرف هكذا لا يمكن أن تصبر علي الحرمان من الرجل والولد معا في هذا العمر عشر سنوات، وهي المدة التي عاشتها بعد وفاة الرسول . وهذه شهادة اثنتين من ضرائرها فيها : قالت عائشة : «لم تكن امرأة خيرا منها في الدين ، وأتقي لله تعالي ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة » ، وقالت أم سلمة : «كانت صالحة، صوامة قوامة ، تعمل بيديها وتتصدق بذلك كله علي المسلمين ». انظر «القاموس الإسلامي » لأحمد عطية الله (مادة «زينب بنت جحش»).

[١٦٣] النحل / ١٠٣ ، والفرقان / ٤ ـ ٥ .

[١٦٤] انظر مثلا تفسير ابن كثير والزمخشري والبيضاوي للآية / ١٠٣ من سورة «النحل»: « وقالوا إنما يُعَلِّمه بَشَر . لسان الذي يُلْحِدون إليه أعجميٌّ ، وهذا لسان عربيٌّ مُبين » . وانظر كذلك تفسيرهما للآية / ٤ من سورة «الفرقان »:« وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قَوْمٌ آخَرون » . ومن الواضح أن القرآن لم يبال في البداية بالرد علي هذه التهمة ، فلما لجّ الكفار فيها فندها وبين عُوارها في سورة «النحل» ، التي نزلت بعد «الفرقان» .

والظروف التي لابست الواقعة . وليس شيء من ذلك في كلام الكفار . أما الذين قيل إن الرسول عليه السلام قد اتُّهم بالتعلم علي أيديهم فبالنسبة لمن أسلم منهم فإن إسلامه دليل علي كذب هذه التهمة ، إذ لا يعقل أن يتابع الأستاذُ تلميذَه فيما علمه إياه ويكتم الحقيقة بلا أي سبب ، فإن رسول الله في ذلك الوقت لم يكن يملك لغيره رغبة ولا رهبة[١٦٥] .أما من لم يسلم فلماذا سكت فلم يفضح محمدا هذا الذي تعلم عليه ما تعلم ثم انقلب فادعي أنه نبي وخطّأ دين أستاذه ؟ وذلك كله علي فرض أنه كانت هناك وسيلة اتصال لغوية كافية لتأدية مهمة التعليم المزعومة هذه ، وهو افتراض مستحيل كما سبق أن بيّنّا.

أما الاتهام الثاني فإن الملاحظ أن القرآن لا يقف عنده بل يكتفي بوسمه بالظلم والزور ، مؤكدا أن الوحي منزل من عند الله[١٦٦] .أيا ما كان الأمر فلو كان هذا الاتهام صحيحا لردده عبيد الله بن جحش (الذي تنصر في الحبشة بعد إسلامه)هو ورسولا قريش علي مسامع النجاشي حين ذهب هذان لتأليبه علي المسلمين المهاجرين لديه ، أو لردَّده أبو سفيان ومن معه أمام هرقل حين سألهم عن محمد وعن صفاته . وقد كانت هاتان فرصتين ثمينتين للدعاية ضد دعوة محمد . بيد أن قريشا كانت تعرف أنها تكذب وتتقول رغبة منها في التشويش بالباطل علي دعوة الإسلام ، وإلا فإذا كانوا صادقين فلِمَ آمنوا بمحمد بعد ذلك وحاربوا أعداء دينه ولم نسمع أحدا منهم بعدها قط يردد هذه التهمة القديمة ولو من باب استعادة الذكريات ؟ وهنا نقطة مهمة ، فإن المستشرقين يزعمون أن الرسول عليه السلام كان يستطيع القراءة والكتابة . وهم يريدون من وراء ذلك أنه كان يقرأ الكتب السماوية السابقة وما إلي ذلك ، وأنه قد تعلم منها . وهو مَزْعم متهافت ، فإن القرآن قد وصفه في موضع بـ « النبي الأمي»[١٦٧] .كما أكد في موضع آخر أنه لم يكن يتلو قبل نزول القرآن عليه من كتاب أو يخطه بيمينه[١٦٨] .ولو كان كلام القرآن غير صحيح لما سكت الكفار ، ولسجل القرآن نفسه كالعادة ردهم عليه . إن ألفريد جيوم مثلا يشكك في أمية النبي عليه الصلاة والسلام ، وحجته أن من غير المعقول أنه كان يطمئن إلي أحد غيره في قراءة الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة ، أو في قراءة ما يرد إليه من رسائل بعد ذلك عندما أصبح نبيا . كما أن إحدي الروايات المبكّرة تعزو إليه الكتابة يوم صلح الحديبية .وهو يفسر آية « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك » بأن المقصود بذلك هو كتب اليهود والنصاري ، وأن أميته(إن صح ما تقوله هذه الآية) إنما

---

[١٦٥] انظر المراجع السابقة .

[١٦٦] الفرقان / ٤ . والمقصود بـ «اكتتبها » هنا أنه «أمر من يكتبها له » . وللفعل معني آخر ، وهو « كتبها بنفسه» ، وليس هو المراد هنا ، وإلا لكان رد القرآن أنه عليه السلام أميّ . وقد استعمل ابن اسحاق هذا الفعل في معناه الأول عند حديثه عن وفود ثقيف علي رسول الله سنة تسع ، إذ قال : «اكتتبوا كتابهم » أي كتبوا اتفاقية بينهم وبين رسول الله عليه السلام ، لأنه قد نص بنفسه علي أن الكاتب كان خالد بن سعيد بن العاص ، وهو من صحابة النبي (انظر ابن هشام / ٤ /١٣٧) .

[١٦٧] الأعراف /١٥٧ .

[١٦٨] العنكبوت /٤٨ .

استمرت إلي بداية رسالته فقط[١٦٩] . والحقيقة أن الآية المذكورة تنفي أنه كان يقرأ أي كتاب ، فلا معني إذن لقصر ذلك علي كتب اليهود والنصاري .أما فهمه لقوله تعالي « :وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ » بمعني أنك ، وإن كنت قبل ذلك تجهل القراءة والكتابة ، فإنك الآن تستطيع ذلك فهو فهم غريب، إذ إن حجة القرآن بذلك تتهافت وتصبح غير ذات معني ، لأن رد الكفار حينئذ كان سيكون كالتالي « : ما دمت تعرف الآن القراءة والكتابة فهذا معناه أنك تستطيع أن تنظر في كتب السابقين وتنقل منها .» ولكنهم لما لم يجدوا جوابًا كان ذلك دليلا علي أن فهم جيوم للآية غير سليم ، وأن المقصود منها هو أنه عليه السلام كان قبل ذلك وظل بعده أميا ، وإلا فالواحد يستطيع ، علي طريقة هذا المستشرق ، أن يقول إن القرآن ينفي أن يكون محمد قادرا علي أن يخط شيئًا بيمينه ، ولكنه لم ينف قدرته علي

ذلك بيده الشمال ، فمحمد إذن كان يكتب ولكن بيسراه .وهو كما تري فهم مضحك . إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الأمية عَرَضًا أثناء حديثه عن الشهور القمرية ، إذ قال « : إنا أُمّةٌ أُمّية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا . يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين››[١٧٠] .أما قول جيوم إن إحدي الروايات قد ذكرت أن الرسول كتب بيده في صلح الحديبية فالرد عليه هو أن الرواية المتلقاة بالقبول هي أنه أمر بكتابة ما طلب المشركون من تعديل في بعض ألفاظ الصلح[١٧١] . أما الرواية التي يشير إليها فهي إن صحت يكن المقصود منها هو المعني المجازي كما هو الحال في قولنا« : حارب السادات إسرائيل »و « بني عبد الناصر السد العالي » وما إليه . ومثله ما ورد في البخاري [١٧٢]من أن الرسول عليه السلام قد اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه« محمد رسول الله»، إذ لا يعقل أن الرسول هو الذي نقش ذلك بنفسه ، فهو لم يكن نقّاش خواتم ، بل المقصود أنه أمر بذلك .وإذا كانت الرواية التي أشار إليها جيوم قد نصت علي أن الرسول كتب فعلا بيده اسمه فهذا لا يدل علي معرفة بالقراءة والكتابة ، فربما كان عليه السلام يستطيع كتابة اسمه وقراءتَه فقط كما هو الحال بين كثير من الأميين الذين نعرفهم . علي أية حال فليس من الحكمة في شيء أن نتمسك برواية واحدة غير مشهورة ولم ترد في المصادر الأصلية لسيرة الرسول عليه السلام ونترك كل الروايات الأصيلة المتضافرة علي أنه عليه السلام كان أميا .أما استبعاده أن يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام إلي أحد غيره يكتب له الفواتير ويقرأ

---

[١٦٩] جيوم / ٥٦ ـ٥٧ .

[١٧٠] البخاري ١ /٢٧ ٣.

[١٧١] انظر ابن هشام / ٣ / ٢٠٣.

[١٧٢] ج ٢ / ص ١٩٥.

له الرسائل التي ترد إليه فليس له أساس إلا مجرد الهوي ، وإلا فإن كثيرا من التجار والمقاولين في القاهرة المعاصرة ، التي لاشك أن مستواها الحضاري والثقافي أرقي ألف مرة من مستوي مكة في ذلك الزمان ، لا يستطيعون القراءة والكتابة ولا يمنعهم ذلك من النجاح في تجارتهم إلي درجة أن بعضهم يصبح مع مر الأيام مليونيرًا(١٧٣) . لا، ليس من المعقول أن يعيش النبي ثلاثا وستين سنة فلا نسمع بواقعة محددة كتب فيها رسالة أو قرأ فيها كتابا أو حتي ورقة سوي هذه الإشارة المقتضبة إلي أنه كتب في صلح الحديبية كلمة لم يَرْضَ الكاتب المسلم أن يكتبها بنفسه ، فنسارع إلي تصديق هذه الإشارة المقتضبة المغموزة ونهمل كل تلك الوقائع القاطعة.

ومما اتهم به المستشرفون نبيّ الإسلام عليه أفضل الصلاة وأعطر السلام أنه قد تعلم أشياء من بحيرا ، بل إن بعضهم يزعم كذبا أنه عليه السلام قد سكن مع هذا الراهب أثناء إحدي رحلاته إلي الشام(١٧٤)، وهو ما يدلك علي أسلوب القوم في محاربة الإسلام ، إذ السيرة واضحة تمام الوضوح هنا . وقريش نفسها ، وقد كان منها من حضر واقعة اجتماع بحيرا بالصبي محمد ، إن صحت الرواية أصلا ، لم تتهم الرسول بذلك ، فكيف يأتي الأوروبيون بعد أكثر من أربعة عشر قرنا فيتخيلون ويزعمون ؟ إن واشنجتن إرفنج يفسر اهتمام بحيرا بالصبي محمد بأنه كان يريد تنصيره حتي إذا ما رجع إلي قومه قام هو بدوره بحمل بذور النصرانية إليهم(١٧٥) . أتدري ماذا كان عمر محمد آنذاك ؟ لقد كان عمره اثني عشر عاما ! ومع ذلك يزعم إرفنج هذا الزعم السخيف ، وكأن لم يكن في القافلة العربية ، التي تقول الرواية إنها حطت رحالها قريبًا من صومعة بحيرا، رجال يمكن هذا الراهب أن يتوجه اليهم بدعوته . أليست هذه بالذمة « مَعْيَلَة » من بحيرا أو من إرفنج أو من كليهما ؟ لقد سفّه كارلايل احتمال أن يتعلم صبي في هذه السن من راهب يتحدث لغة أجنبية شيئًا ذا بال(١٧٦) . ومع ذلك كله فإن السيرة لم تتحدث عن أي تعليم بين بحيرا ومحمد . ثم فلنفترض أن بحيرا قد لقنه(بأية لغة ؟ لا ندري) أشياء من النصرانية ، فأين كان بحيرا يوم ادّعي محمد أنه أتي بدين جديد يخطّئ فيه دين بحيرا ؟ أو أين من شاهد بحيرا أو سمع منه أو من غيره أن هذا النبي الجديد كان تلميذًا في صباه لذلك الراهب ؟ لماذا لم يَنْبَرِ بحيرا أو غيره ليكشف زيف هذا النبي ويبين المصدر الحقيقي لما يزعم أنه وحي من السماء؟ أكانت الدولة البيزنطية أو الدويلات العربية علي حدودها تسكت علي محمد وعلي مزاعمه ورسائله التي أرسلها إلي هرقل وغيره من ملوك

---

(١٧٣) علي أية حال فإن السيرة النبوية تذكر أن ميسرة غلام خديجة كان يصاحب الرسول في رحلاته التجارية عندما كان يعمل عليه السلام في أموال خديجة ، فمن الممكن جدا أن الرسول كان يشتغل بالتجارة بينما يقوم ميسرة بالكتابة.

(١٧٤) أيلتون / ٥١٩.
(١٧٥) إرڤنج / ٢٢ ـ ٢٥.
(١٧٦) كارلايل / ٢ / ٦٩.

العالم المحيطين بالجزيرة العربية يدعوهم فيها إلي الإسلام فلا تحاربه أو تحارب خلفاءه بهذه الورقة؟ إن ذلك لغريب!

ولا يكتفي المستشرقون بتضخيم هذه المقابلة التي ترويها كتب السيرة بين الصبي محمد وبحيرا الراهب والتي يجعلون من حبتها قبة ضخمة تناطح السماء[١٧٧] بل يؤكدون أنه لابد أن يكون قد عرف في رحلاته التجارية بعد ذلك إلي الشام واليمن أشياء كثيرة من اليهودية والنصرانية . وهم كعادتهم لايشيرون إلي شيء محدّد جاءت به الروايات الموثقة أو حتي غير الموثقة ، بل يكتفون بإطلاق القول علي عواهنه . وفاتهم أن محمدا في هذه الرحلات لم يكن وحده بل كان معه مواطنون من مكة ، فلماذا لم يتحدثوا عن شيء من ذلك ؟ لقد كان ما وجهوه إليه من اتهام هو أنه كان يتعلم من بعض الرقيق الأجنبي المقيم بمكة والذي لا يستطيع التفاهم بالعربية إلا في أضيق نطاق . وأين كان ميسرة من هذا كله ، وهو الذي كان ملازما له ؟ ثم ألم يتذكر فيما بعد أحد من الدولة البيزنطية أو من اليمن ممن شاهدوه واختلطوا به وتناقشوا معه في هذه الرحلات أن هذا النبي الجديد ليس إلا ذلك التاجر الذي كان يَفِد إلي بلادهم فيشتري منهم عُروض التجارة ويأخذ معها الأفكار اليهودية والنصرانية ؟ أم تري قد طمس الله علي ذاكرتهم ؟ إن اللافت للنظر أن المستشرقين لا يَثْبُتون علي حل واحد ، فقد كانوا يقولون أولاً إن الإسلام مأخوذ من اليهودية وإلي حد ما من النصرانية ، ثم عادوا فقالوا إنه مأخوذ أساسًا من نصرانية السريان ، ولكنهم مع ذلك لا يقدمون أبدا دليلا موثقا علي هذا الأخذ ولايرسمون لنا الطريق الذي سلكته هذه الأفكار حتي وصلت إلي محمد ، بل هي مجرد تخمينات[١٧٨]، مما يدل علي أنهم قد عقدوا العزم منذ البداية، مثل مشركي مكة وكفار العرب بالضبط ، علي تخطئة محمد والسلام .لقد وفد علي الرسول نصاري من نجران فناقشهم وأراد أن يحسم الأمر معهم فدعاهم ، لو كانوا صادقين ، إلي المباهلة ، أي أن يبتهلوا جميعا(هو وهُمْ ومعهم ذووهم نساءً وأطفالا) ويجعلوا لعنة الله علي الظالمين ، فنكصوا علي أعقابهم ونزلوا علي شروطه ولم يدخلوا معه في هذه المباهلة ، وهو ما يوحي بخبيئة نفوسهم أيما إيحاء . تري لِمَ لمْ يحرجه نصاري نجران منذ البداية فيقولوا له إنهم يعرفون أنه هو ذلك التاجر الذي كان يتردد علي بلادهم وكنائسهم ويتعلم علي رهبانهم ويغلقوا بذلك باب المباهلة ودفع الجزية لو أن شيئًا من ذلك قد حدث ؟[١٧٩] ثم أكان أبو عامر

---

[١٧٧] هناك من المستشرقين من يشك في قصة بحيرا ، كإدمون پاور انظر (چوزيف هبي / ٧٨٠).

[١٧٨] انظر مثلا جب / ٣٧ ـ ٣٩ . أما تور أندريه فقد نفي أن يكون الرسول قد زار بلادا نصرانية . وحجته في ذلك أن معرفته بالنصرانية كانت ساذجة(انظر شارل لودي / ١٠٧) . وقد رد عليه لودي بأنه ما أكثر المسلمين والنصاري الذين لا يعرفون دينهم أو دين بعضهم البعض إلا معرفة ساذجة ، ثم تَتَبَّعَ(تخمينا) خط سير القوافل التي كان فيها محمد وما كانت تمرّ به من نصاري وكنائس دون أن يشير إلي واقعة محددة تعلم الرسول عليه السلام فيها شيئا محددا من شخص محدد ، بناء علي رواية موثقة أو حتي غير موثقة . لا شيء ! لا شيء سوي تحبير الصفحات!

[١٧٩] ابن هشام / ٢ / ٢٨.

الراهب ، الذي كان يحقد علي الرسول أشد الحقد والذي كان المنافقون يجتمعون به سرا في المدينة ونزلت فيه آيات مسجد الضرار[١٨٠]، يدع فرصة مثل هذه تفلت من يديه هو الذي ذهب إلي هرقل يستعين به ضد محمد ودينه لو أنه نما إلي سمعه ، ولو بالباطل ، أن النبي قد تعلم في أثناء رحلاته التجارية علي أحد اليهود أو النصاري؟[١٨١] واليهود : أكانوا يتركونه لو شَمُّوا من بعيد أنه سرق شيئًا من كتبهم عن أي طريق ؟ لقد كانوا يلقنون كفار مكة أسئلة يتَحَدَّوْنه بها عن الروح وأهل الكهف وذي القرنين[١٨٢] ، وهو دليل قاطع علي أنهم لم يشكّوا فيه من هذه الناحية . ذلك أن اليهود كانوا مشهورين بأنهم يَضنّون بما عندهم من العلم ، ومن ثَمَّ نراهم يحتكمون إلي محمد في زنا اثنين منهم ، وكانوا يريدونه ألا يرجمهما . فلو كانوا يشتبهون في أنه علي علم بالتوراة لما احتكموا إليه مخافة أن يحكم بالرجم الموجود في التوراة .بل إنه حينما سألهم عما في التوراة فأنكروه وأمر بإحضارها وضع قارئهم يديه علي حكم الرجم ، ظنا من عقله السخيف أن ذلك سيعمي محمدا عليه السلام والمسلمين من حوله عما تحت هذه اليد النجسة[١٨٣] . كما لم تكن التوراة حتي ذلك الحين علي الأقل قد ترجمت إلي العربية . وفي البخاري أن اليهود في المدينة كانوا يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام[١٨٤].

والآن بعد أن طوّفنا مع المستشرقين شمال وجنوب الجزيرة العربية وفي جنوب بلاد الروم ووجدنا أنه ما من دليل واحد علي أن النبي قد تعلم من يهودي أو نصراني شيئا انتفع به في تأليف دينه وتلفيق الوحي الذي كان يزعم ، بناء علي اتهامات هؤلاء المستشرقين، أنه يتنزل عليه من السماء نعود إلي مكة لنناقش اتهامهم له عليه أفضل الصلوات وأعطر التسليمات بأنه قد تعلم من ورقة بن نوفل[١٨٥] . ويكتفي إرفنج هنا بترديد القول بأنه عليه السلام أخذ أشياء كثيره مما ترجمه ورقة من العهدين القديم

---

[١٨٠] التوبة / ١٠٧ ـ ١١٠.

[١٨١] انظر قصته في ابن هشام / ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧ ، و ٣ / ١٩ . ومما يدل علي كذبه هو لا كذب النبي عليه السلام أن ابنه حنظلة كان مسلمًا قوي الإسلام ، وكان أحد المدافعين عن المدينة يوم أحد ، واستُشهد رضي الله عنه في ذلك اليوم . تري ما الذي جعله ينحاز إلي محمد ضد أبيه ، ولم يكن الإسلام قد قَوِيَ آنذاك بعدُ حتي يقال إنه أسلم رغبة أو رهبة ؟ انظر في استشهاده ابن هشام / ٣ / ٢٥.

[١٨٢] المرجع السابق / ١ / ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

[١٨٣] السابق / ٢ / ١٥٤.

[١٨٤] البخاري / ٤ / ٢٧٠ . ولم يكن اليهود يفسرون توراتهم بالعربية للمسلمين ليثقفوهم ويعطوهم الفرصة كي يسرقوا أفكارهم وينقلوها لرسولهم فيدعي أنها وحي سماوي ، بل ليشوشوا علي المسلمين أمر دينهم كما يتضح من بقية الحديث . بل إنهم كانوا يتكاتبون مع النبي بالعربية ، ولذلك أمر الرسول عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية ليكتب إليهم ما يريد الرسول ويقرأ له ما يرد من رسائلهم (البخاري / ٤ / ٢٤٤) .

[١٨٥] سنتحدث عن ورقة بن نوفل ثانية فيما بعد بوصفه واحدا من الحنفاء .أما هنا فقد ألحقناه بأهل الكتاب ، الذين اتُّهم النبي عليه السلام بأنه تعلم عليهم وأخذ عنهم . ذلك أن ورقة كان نصرانيا قبل البعثة النبوية.

والجديد ومن مرويات المشنا والتلمود وضَمَّنَها قرآنه . ومع خطورة هذا الاتهام فإنه لا يسوق عليه دليلا واحدا ، بل كل ما عنده هو أن المفترض حدوث ذلك[١٨٦].

ومثله كِلِتْ ، الذي يقول إن من الممكن أن يكون ورقة قد قص علي محمد بعض الروايات النصرانية[١٨٧] ، وإن ما ورد في إحدي السور(يقصد سورة مريم)عن السنوات الأولي من حياة المسيح عليه السلام ربما أُخِذ منه[١٨٨] .فها أنت ذا تري أن الأمر لايعدو « من الممكن » و « ربما»[١٨٩].

هذا كل ما قاله المستشرقون عن ورقة بن نوفل وتأثيره المزعوم في النبي والوحي . والحقيقة أن ورقة لم يظهر في كتب السيرة والتاريخ إلا بعد أن نزل الوحي عليه صلي الله عليه وسلم ، أما قبل ذلك فلا[١٩٠] .ومن المستحيل أن يكون المؤرخون والمحدِّثون وكُتّاب السيرة المسلمون قد حذفوا من حياة ورقة وعلاقته بالنبي ما يمكن أن يثير الشك في مصادر النص القرآني ، إذ لم يكن ديدنهم التحرج من رواية أي شيء يتعلق بسيرة المصطفي عليه السلام قط .وإليك تعليق ورقة عندما أتته خديجة لتبدي رأيه فيما شاهده النبي وسمعه عند غار حراء . قال « : قُدُّوسٌ قُدُّوس . والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صَدَقْتِني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسي، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقُولي له : فليثبت »[١٩١]، وهو ما يدل علي أن ورقة

---

[١٨٦] إرقنج/ ١٠.
[١٨٧] كلت / ٣٣٦.
[١٨٨] المرجع السابق / ٣٥١.

[١٨٩] وعلي عكس ذلك فإنه يذكر أن القرآن قد صرح بأخذ بعض قصص العهد القديم من صحف إبراهيم وموسي (ص/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) ، مع أن كل ما قاله القرآن هو أن ما جاء في سورة « الأعلي » موجود في صحف إبراهيم وموسي . وهذا طبعا شيء ، وتصريح القرآن بالأخذ عن هذه الصحف شيء آخر ، وإلا فأين كانت صحف إبراهيم في ذلك الوقت ؟ بل أين هي حتي الآن ؟ علاوة علي أن القرآن هنا يشير إلي الجنة والنار وما يؤدي إليهما من عمل صالح أو عمل سئ ، فليس في الأمر قصص ولا أبطال من العهد القديم كما يزعم الكاتب . أما تفسير القرآن لذلك التوافق بين ما جاء فيه وما هو موجود في الكتب السماوية السابقة فهو أنها جميعا من عند الله.

[١٩٠] يذكر توماس هيوز في"The Dictionary of Islam" (مادة "Hanif") أن ورقة هو ابن عم الرسول (أو ابن خاله أو عمته أو خالته : his cousin) ، وهذا غير صحيح ، فقد كان ابن عم خديجة ، التي لم يتصل بها الرسول إلا حينما كبر ونضج للزواج . أما ورقة نفسه فلم يظهر في سيرته عليه السلام إلا بعد نزول الوحي عليه كما سيأتي.

[١٩١] ابن هشام / ١ / ٢٢٢ . وفي البخاري (٤ /٢٠٨) مثل هذا ، ولكن يزيد عليه أن ورقة قال له: « ياليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك» ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « أوَمُخْرِجِيّ هم ؟ » ، فقال ورقة: « نعم ، لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلا عُودِي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا » .

قد صَدَّق بنبوة محمد ودخل في الإسلام . ومما يدل أيضا علي أن ذلك لم يكن مجاملة فارغة أو حماسة طارئة منه، رضي الله عنه ، أنه كان يمر بعد ذلك ببلال وهو يقاسي وطأة التعذيب الفاجر ويصيح « : أَحَدٌ أَحَد » فيؤمن علي صياح بلال قائلاً « : أَحَدٌ أَحَدٌ والله يا بلال » ! ، ثم يقبل علي أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جُمَح فيقول: « أحلف بالله لئن قتلتموه علي هذا لأتخذنّه حنانًا » أي لأتبركنّ بقبره[١٩٢].

أما عن دين ورقة وثقافته فيقول ابن اسحاق « : وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل»[١٩٣] .لكن أية كتب هذه ؟ وبأية لغة كان يقرؤها ؟ ذلك ما لم يوضحه ابن إسحاق . أما البخاري فإنه مرة يورد رواية مُفَادها أن ورقة كان يكتب الكتاب العربي وكان يكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب[١٩٤]، ومرة يورد رواية ثانية تقول إنه يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١٩٥] .فأين الحقيقة بين الروايتين ؟ علم ذلك عند الله ، وإن كان مالك بن نبي يري أنه لو كانت الفكرة اليهودية والنصرانية قد تغلغلت حقا في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس . كما يؤكد أنه حتي القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت للإنجيل ترجمة عربية[١٩٦] . أيا ما يكن الأمر فإن الثابت تاريخيا هو أن ورقة قد صدَّق بنبوة محمد صلي الله عليه وسلم . فإذا لاحظنا أنه كان في ذلك الوقت شيخا طاعنا في السن أدركنا قيمة شهادته ، إذ كان من الصعب علي شيخ مكي في ذلك الحين أن يتقبل فكرة أو عقيدة جديدة . كذلك ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن محمدًا كان أصغر كثيرا من ورقة ولا يملك في يده في ذلك الوقت أي سلطان . ومعني هذا أن إيمان ورقة به كان إيمانًا صادقا خاليا من الغرض ، وإذن فمن المضحك أن نظن بعد ذلك كله أن محمدا كان يتعلم منه ، وأنه

---

[١٩٢] انظر ابن هشام / ١ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . ومع هذا كله فإن إدمون پاور (چوزيف هبي / ٧٨٢) يزعم أن ورقة لم يجد سببا لترك النصرانية واعتناق الإسلام . وهو يسوق هذا الرأي بدون أوهي دليل.

[١٩٣] ابن هشام / ١ / ٢٢٢.

[١٩٤] البخاري / ٤١ / ٢٠٨ .وانظر أيضا / ٢ / ٢٤٣.

[١٩٥] المرجع السابق / ١ / ٧ . والملاحظ أن عبارة الروايتين متطابقة تقريبا إلا في تعيين اللغة التي كان يكتب بها.

[١٩٦] مالك بن نبي / الظاهرة القرآنية/ ٢٥٤ . وأنا ، وإن كنت لا أستطيع القطع في هذا الأمر ، فإني أميل إلي أن الأجزاء التي كتبها ورقة من الإنجيل كانت بالعبرية ، وإلا لذاعت بين الحنفاء والمهتمين بالقضية الدينية ممن يعرفون القراءة والكتابة في مكة وما حولها . ولعل هذا هو السبب في أننا لم نعرف ماذا كان مصيرها بعد موته . أما العهد القديم فقد رأينا أن يهود يثرب كانوا يقرأونه في العبرية بعد أن هاجر الرسول إلي تلك المدينة . كما رأينا أن الأجانب الذين كانوا بمكة واتهم القرشيون الرسول بأنه يتعلم منهم كانوا لا يعرفون من العربية إلا ألفاظا محدودة . وفي تفسير ابن كثير أن اثنين ممن قيل إنهم اتهموه بالتلقي عنهم كانا يقرآن كتابا لهما بلغتهما ، وذلك من غير تعيين هذا الكتاب أو تحديد هذه اللغة . انظر تفسير ابن كثير للآية / ١٠٣ من سورة « النحل ».

هو قد سكت عن هذا ، بَلْهَ قد آمن به واتبعه ووقف من معذبي أتباعه موقف الرافض لما يفعلون.

وكعادتنا سوف ننسي ما مر ونتجاهل تفاهة وتهافت هذه الاتهامات التي فندناها تماما بالاستناد إلي الروايات التاريخية الموثقة بعد عرضها علي ضوء المنطق الإنساني العام ووضعها تحت مجهر التحليل النفسي والاجتماعي للبيئة والأشخاص والرسول علي وجه خاص ، سوف ننسي هذا كله ونمضي مع المستشرقين إلي نهاية الشوط لنري ما هم قائلون . إن جب مثلا يعدد ما أخذه الرسول من اليهود بعدما هاجر إلي يثرب ، فيذكر صيام عاشوراء وصلاة الظهر واستقبال بيت المقدس[١٩٧] .ولنبدأ بآخر شيء ذكرًا فنقول إننا قد ناقشنا هذه النقطة من قبل ، وخلاصة ما قلناه هناك إنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إلي هذه القبلة قبل الهجرة ولكنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها ، أي أنه كان يستقبل القبلتين . فلما هاجر إلي المدينة استحال عليه أن يجمع بينهما ، فاستقبل بيت المقدس لفترة ، ثم نزل الوحي الإلهي بالتحول إلي الكعبة .وقد عرض اليهود عليه أن يعود إلي قبلة بيت المقدس ويتبعوه ، وهو ما يبين التواءهم وخبثهم، فالصادق في التمسك بدينه لا يعرض مثل هذا العرض . لكنه عليه السلام قد رفض ذلك . أما الزعم بأنه تحول إلي الكعبة بعد أن يئس من اليهود فهو زعم أعرج ، إذ إنه عليه السلام لم يُعْهَد فيه اليأسُ يوما ، فضلا عن أن موقف كفار مكة منه ومن دينه في ذلك الحين لم يكن مما يبعث علي توقع إيمانهم وشيكا بحيث يصح القول بأنه كان يهدف إلي إقامة دين عربي قبلته عربية . ثم لو صح هذا التعليل أفلا يدل علي أن النبي ، برغم كل هذا العمر الذي قضاه يدعو قومه إلي دين الله فلم يؤمن به إلا القليل ، كان لا يزال عنده أمل كبير في أن يتبعوه يوما ؟ فكيف يقال إذن إنه يئس من اليهود هكذا سريعا ؟[١٩٨] أم تراه وجد أن اليهود أشد مراسًا من كفار مكة ؟ بالعكس ، لقد كان اليهود في يثرب حينذاك أذل وأخنع من هذا ألف مرة ، لأن المسلمين هناك كانوا أغلبية ، وكان السلطان في أيديهم ، وكان لهم جيش وظفر وناب ، وهو ما لم يكن لهم منه شيء في مكة . ثم إن عددا كبيرا منهم نسبيا قد آمن به ، وفيه بعض أحبارهم كما مر . ثم فلفترض أن اليهود كانوا صادقين في كفرهم به ، فلماذا تحاكموا إليه في أمر الزانيين ، وهي عقوبة دينية منصوص عليها في توراتهم ؟ [١٩٩] بل لماذا لم يستعينوا بإلههم الذي جعلهم شعبا مختارا مميَّزا علي سائر البشر

---

[١٩٧] جب / ٤٤.

[١٩٨] صُرِفَت القبلة إلي الكعبة بعد مقدمه صلي الله عليه وسلم إلي المدينة بسنة ونصف (ابن هشام / ٢ / ١٨١).

[١٩٩] وقد أثار استغرابي في رواية هذه الحادثة أن الرسول لما أمرهم بإحضار التوراة ليقرأوا ما ورد فيها خاصا بعقوبة الزاني وضع قارئ التوراة يده علي آية الرجم ، التي أنكروا أنها موجودة فيها . ومثار استغرابي أن يلجأ ذلك اليهودي إلي هذا الأسلوب الخبيث المفضوح هكذا علنا علي رؤوس الأشهاد ، حتي قرأت في صحيفة «أخبار اليوم» القاهرية (عدد السبت ١٩٨٥/٩/٢١، ص ٥، عمود ٥) عن مناحم بيجين (في اجتماعه بالدكتور عصمت عبد المجيد في الإسماعيلية في أول زيارة له لمصر ، ردا علي زيارة الرئيس السادات للقدس ، التي ستعود بمشيئة الواحد

ويحاربوا محمدا ويقضوا عليه مرة واحدة ؟ لقد كان محمد وأتباعه هم الذين استعانوا عليهم بالله فنصرهم عليهم أعظم انتصار . فهذا عن القِبْلة ، أما صلاة الظهر فإني لا أفهم كيف تجاهل جبْ أن الصلوات الخمس قد فُرضْن كُلُّهن بما فيهنّ الظهر في مكة ليلة الإسراء والمعراج ؟ ويبقي صوم عاشوراء . والواقع أن الوحي سرعان ما نزل بصوم رمضان فنسخ عاشوراء إلي الأبد . ومع ذلك فيهمني أن أوضح أمرا علي قدر كبير جدا من الأهمية ، وهو أن صوم يوم عاشوراء كان معروفًا في مكة في الجاهلية .كذلك لا يقل أهمية عن هذا أن الرسول ، حين وفد إلي المدينة ورأي اليهود يصومون هذا اليوم، أمر أتباعه أن يصوموه قائلا لليهود «: نحن أولي بموسي منكم »[٢٠٠]، وهو ما يعني بمنتهي الوضوح أنه لم يتملقهم ولم يتابعهم ، بل واجههم منذ البداية برأيه فيهم وأنه يفرق بينهم وبين نبيهم موسي ، الذي هو مثله رسول من عند رب العالمين . وعلي أية حال فإن صيام يوم عاشوراء كان تطوعيا ، أي أنه ليس من أركان الإسلام من قريب أو بعيد.

وبرغم هدمنا لمزاعم جب السابقة فها نحن أولاء ماضون معه إلي زعم جديد مؤداه أن محمدا ، عندما كان اليهود ينتقدون أخطاءه فيما يرويه من قصص الأنبياء التي تختلف عما جاء في كتبهم ، كان يرد عليهم بقوله «: أأنتم أعلم أم الله ؟»[٢٠١] . ويتصل بذلك قول مرجليوث إن أسماء بعض الرسل في القرآن مختلفة عنها في العهد

القهار إسلامية) ما يلي : «وعندما تحدث بيجين في مشروعه عن الحكم الذاتي بدأ يجرد الحكم الذاتي من حق تقرير المصير . وكان يستخدم عبارة "Self Rule" بدلا من " Self Determination". وهنا تصدي له الدكتور عصمت عبد المجيد . قال له : أنت أدليت بحديث إلي التليفزيون الأمريكي وعندما سُئِلتَ : ماذا تقصد بـ " Self Rule " ؟ قلت : إنها مشابهة تماما لعبارة "Self Determination" . قال بيجين : لم أقل هذا .

عصمت : نص الحديث أمامي ، وهذا ما قلته أنت بالحرف الواحد .

غضب بيجين : أنا أعرف ماذا قلته .

عصمت : النص هو الحكم بيننا .

ثم تحدث بيجين عن قرار ٢٤٢ ، ولاحظ الدكتور عصمت عبد المجيد أنه لا يتلو نص القرار بأمانة ، ولفت نظر بيجين إلي ذلك ، وقال : هذا هو نص القرار. إن ما قلته لم يرد في القرار .

تأزم بيجن ، وتدخل القاضي براك عضو الوفد الإسرائيلي . قال : إن رئيس الوزراء يقصد تفسيره لقرار ٢٤٢ لا النص » ، فعندئذ زال استغرابي . إن النفس عندما يستولي عليها الالتواء والخبث علي هذا النحو فإنها تصبح عاجزة عن التمييز، ويصبح الكذب المفضوح هو الهواء الذي تتنفسه وتموت إذا حُرِمَتْ منه.

[٢٠٠] انظر البخاري / ٢/ ٣٤١ ، وسيد سابق / فقه السنة / ١ / ٤٥١ .
[٢٠١] جب / ٤٤ .

القديم اختلافا كبيرا[٢٠٢] . والواقع أن العهدين القديم والجديد لا يتمتعان ، حتي عند كثير جدا من الدارسين الغربيين ، بعشر معشار هذه الثقة التي يوحي بها كلام هذين المستشرقين[٢٠٣] .فالإحالة إليهما إذن من جانب المستشرقين علي أنهما الأساس الذي ينبغي أن يُحَاكَم إليه القرآن هي مغالطة فادحة . وها هو ذا مرجليوث نفسه[٢٠٤] يشير إلي نظرية يعتنقها اللاهوتيون النصاري ليسوغوا بها التناقضات التي تعج بها كتبهم المقدسة ويسميها "Colouring by the medium" ، ومعناها أن الوحي إنما ينزل كفكرة ، ثم يقوم النبي الذي نزل عليه الوحي بصياغة هذه الفكرة بعقله وأسلوبه هو ، ومن ثم فإن الأخطاء التي توجد في الكتاب المقدس ترجع إلي هذا الوسيط لا إلي السماء ، وهو ما يدل علي أنه حتي لاهوتيوهم يتقهقرون من خط دفاع إلي آخر . هذا ، ويمكن القارئ أن يرجع إلي الكتاب المقدس ويقرأه بعين مفتوحة ، ولسوف يجد ما يصدم عقله في كل مكان منه ، فمن تصوير لله تصويرا وثنيا كأنه أحد آلهة الإغريق إلي حكايات عن فجور أنبيائهم تشيب لهولها الولدان إلي تناقضات تاريخية وداخلية لا يمكن التوفيق بينها بحال[٢٠٥] .وقبل أن أنتقل إلي النقطة الأخيرة في ملاحظات المستشرقين عن علاقة القرآن بكتب اليهود والنصاري أطرح هذا السؤال :لقد كان بين أتباع محمد أعداد كبيرة من أهل الكتاب الذين دخلوا الإسلام ونصروه وآزروه ، وحاربوا أهل أديانهم السابقة ، وكانوا علي دراية واسعة بكتبهم الدينية ، فلماذا لم يحاول محمد أن يستطلع ما عندهم قبل اختراع أي وحي يتعلق بتاريخ بني إسرائيل والنصاري حتي لا ينكشف خطؤه فيريح بذلك نفسه من التناقض بين القرآن وهذه الكتب ؟ إن الإجابة علي هذا السؤال هي أنه كان يعلم يقينا أن قرآنه موحي به من عند الله وأن التوراة والإنجيل قد أصابهما التحريف.

وبذلك نبلغ النقطة الأخيرة ، وهي استغراب جب أنه في الوقت الذي يرفض فيه القرآن بنوة عيسي لله رفضا حاسما وينفي بنفس القوة أن يكون قد صُلِب إذا به يتحدث عن النصاري أنفسهم أكثر من مرة بعبارات وديّة . وهو يعزو هذا إلي أن

---

[٢٠٢] مرجليوث / ٧٣ .

[٢٠٣] انظر مثلا مالك بن نبي / الظاهرة القرآنية / ٦٤ . أما مونتيه ، الذي يذكره المؤلف في الهامش ويحيل علي كتابه « تاريخ الكتاب المقدس» ، فهو مستشرق سويسري ترجم القرآن إلي الفرنسية وكتب له مقدمة تعرض فيها لتاريخ القرآن ومصادره كما يتخيلها . وقد قام كاتب هذه السطور بدراسة هذه الترجمة دراسة مطولة بين فيها ضعف هذا المستشرق بل عجزه عن فهم النص القرآني والسخافات التي تورط فيها ، كما قام بترجمة معظم المقدمة المشار إليها وعقب عليها تعقيبا مستفيضا في كتابه «المستشرقون والقرآن » . وانظر في نقد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مادة « Bible » في دائرة المعارف البريطانية . ويمكن الاستعانة بكتاب موريس بوكاي« القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» (البابان الأول والثاني) لمعرفة مدي امتلاء الكتاب المقدس بالأخطاء التاريخية والعلمية الفادحة علي العكس من القرآن . وهذا ما دعا مؤلف ذلك الكتاب ، وهو طبيب فرنسي ، إلي الدخول في الإسلام .

[٢٠٤] ص/ ٦٣ .

[٢٠٥] خصص ابن جزم عددا كبيرًا من الفصول من كتابه« الفِصَل في الملل والأهواء والنحل » لدراسة الكتاب المقدس بعهديه دراسة علمية موضوعية غادرته كالمصفاة كَثْرَةَ ثقوب .

معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصرانية لم تكن معرفة مباشرة[٢٠٦] . وعلي رغم أن جب لم يحدد المواضع التي يقول إن القرآن يتحدث فيها عن النصاري بعبارات ودية فإننا نستطيع أن نشير إلي الآية ٦٩ من سورة المائدة « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصاري من آمن بالله واليومِ الآخِرِ وعَمِل صالحا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون » وتشبهها إلي حد كبير الآية ٦٢من سورة «البقرة (»، وكذلك الآية ٨٢ من سورة « المائدة » أيضا « : لَتَجِدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذّين أشْرَكوا . ولَتَجِدَنّ أقْرَبَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا :إنَّا نصاري .» ... والحقيقة أنه لا تعارض هناك إطلاقا ، فالآية الأولي تشترط في نجاة النصاري وغيرهم أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ويعملوا صالحا ، وهو ما يستلزم أن يؤمنوا بكل الرسل من آدم إلي محمد[٢٠٧] . وتوضح ذلك الآيتان ١٥٠ ــ ١٥١ من سورة « النساء » ، إذ تقولان « : إن الّذين يكْفُرون بالله ورُسُله ، ويريدون أن يُفرِّقوا بين اللهِ ورُسُلِه ، ويقولون نُؤْمِنُ ببعض ونكْفُر ببعض ويريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلا $ أولئك هم الكافرون حقا ، وأعْتَدْنا للكافرين عذابا مُهينا . » ومثلهما الآية ٩٢ من سورة« الأنعام»، التي تشير إلي القرآن قائلة « : وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك مصدِّقُ الذي بين يديه ، ولِتُنْذِرَ أمَّ القري ومَنْ حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم علي صلاتهم يُحافِظون . » وتأتي الآية 29 من سورة « التوبة » لتوضح الأمر توضيحا ساطعًا لا لبس فيه ، إذ تقول « : قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِرِ ولا يَدينون دِينَ الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتي يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وَهُمْ صاغرون . » وغير ذلك كثير ، مما يقطع بأن رأي القرآن كان دائما أن اليهود والنصاري إذا بقُوا علي ما هم عليه رغم اتضاح الحقيقة لهم فلن يمكنهم أن يفوزوا بالنجاة يوم الدين ، وإذن فلا بد أن يدخلوا في الإسلام ويؤمنوا بنبيه والقرآن الذي أنزل عليه . هذا عن الآية الأولي، أما الآية الثانية فإنها وما بعدها من آيات تشير إلي واقعة بعينها ، إذ ورد علي النبي عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة فريق من النصاري وفيهم قساوسة ورهبان مخلصون . وكانت هذه الطائفة من النصاري تتحلي برقة القلب والتواضع للحق ، فأسرعت إلي إعلان الإيمان بالإسلام والقرآن عندما تُليت عليهم آياته وفاضت أعينهم من الدمع[٢٠٨] . هذا ، وسوف نبين

---

[٢٠٦] جب / ٤٥ ـ ٤٦ .

[٢٠٧] أي أن أيّ إنسان يفعل ذلك يضمن نجاته يوم القيامة . وهذه قضية جد هامة ، لأن معني هذا الكلام أن الإسلام مفتوح لكل الناس والأجناس وجميع أصحاب الديانات السابقة ، غير مقصور علي أحد منهم دون أحد ، علي عكس اليهودية مثلاً ، التي تحصر الخلاص في بني إسرائيل وحدهم . ويؤكد صحة هذا التفسير أن هذه الآية (ومثلها الآية /٦٢ من سورة« البقرة ») قد وردت في سياق الكلام عن اليهود وغرورهم وغبائهم وتصورهم أنهم ناجون مهما فعلوا ، فهم أبناء الله وأحباؤه ، والنار لن تمسهم (إذا مستهم) أكثر من أيام معدودات .

[٢٠٨] وانظر أيضا منزيس (ص/ ٢٣٨) ، الذي يدّعي هو كذلك أن ثمة تناقضا في رأي الإسلام في اليهودية والنصرانية . ولما كان ردي علي جب قد شمل أهل الكتاب جميعا يهودا ونصاري لم أر داعيا لمناقشة منزيس . هذا ، وقد سبق أن ناقشت هذه المسألة في كتابي« المستشرقون والقرآن» (ص/ ٤٦ ـ ٤٨).

فـي موضـع تـالٍ من هذا الكتـاب أن الإسـلام قد جـاء لتصـحيح مـا أصـاب اليهوديـة والنصرانية من تحريفٍ وتشويهٍ ولتخفيف القيود التي جعلها الله علي بني إسرائـيل ، وأن الأمر لـم يكن أخذا ولا اقتباسًا كما يكذب الزاعمون.

وممن زعم المستشرقون أنه عليه السلام قد أخذ منهم : الحنفاء .وهم أفراد من العرب ظهروا قبيل البعثة النبوية لم يقنعهم ما عليه أقوامهم من عبادة أصنام وتظالم وغير ذلك من مظاهر التحلل الروحي والفساد الاجتماعي . وبدلا من أن يري المستشرقون في ذلك دليلا علي أن الجو كان يستدعي ظهور نبـي يصلح هذا الحال المائل فـي جزيرة العرب وفي العالم معًا ، إذ كانت الأوضـاع فـي الإمبراطوريات العالمية فـي ذلك الوقت مثلها في شبه الجزيرة سوءًا بل أسوأ[٢٠٩] ، نـراهم ، كعهدهم فيما يتعلق بالإسلام ونبيه ، يتهمونه عليه الصلاة والسلام بالأخذ من هؤلاء الحنفاء.

وفي مناقشتنا لهذا الادعاء أحب أن أضع تحت بصر القارئ هذه الحقائق التالية : أن أحدا من الحنفاء لم يدَّعِ هذا . ولو حدث أن النبي قد تعلم من أيٍّ منهم لانبري واحد منهم علي الأقل (وليكن أمية بن أبي الصلت ، الذي لم يشأ أن يؤمن بالنبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه كان يطمع أن يكون هو الرسول المختار وقال« :لا تصدقوا محمدا ، فإنه دعيّ كذاب . لقد تعلم منا ، وأخذ ما علّمناه إياه ولفق منه دينًا .») ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فكيف يحق لأي مستشرق أن يتقدم بمثل هذا الاتهام بعد أكثر من

أربعة عشر قرنا وليس في يديه أي دليل ؟ أهذه هي الموضوعية التي يتشدقون دائما بها بينما يرموننا نحن المسلمين بأننا ندافع عن ديننا بالحق والباطل، مع أن كثيرين منا نحن الذين نتناول هذه الموضوعات لم يخروّا علي القرآن عُمْيًا وصُمًّا وبُكْمًا ، بل كانت لهم مع أنفسهم محاورات طويلة قلبوا فيها الفكر والمراجع وأعادوا النظر في أشياء كثيرة ؟ ثانيا : لو أن محمدا كان قد تعلم من الحنفاء ، فمَنْ كان أولي إذن بادعاء النبوة ؟ واحدٌ من الأساتذة الأصلاء أم محمد تلميذ هؤلاء الأساتيذ الأجلاء ؟ ولا يقولن أحد إنهم كانوا مشغولين فقط بمصائرهم الفردية ، فقد كانوا دائما يعيبون علي أقوامهم قبح ما يعتقدون ويصنعون ، وكان لبعضهم مواعظ في الأسواق

---

[٢٠٩] انظر في ذلك مثلاً العقاد / مطلع النور (الفصلان / ٢ و ٣ ، وعنواناهما علي التوالي : «الأحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية » و «الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ») . وانظر كذلك الفصل الأول من «حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، وعنوانه« بلاد العرب قبل الإسلام » .

والمجامع[٢١٠] ، ولكن أحدا منهم قط لم يدّع النبوة ، فما السبب في ذلك ما دام ادعاؤها سهلا إلي حد أن تلميذا من تلاميذهم مثل محمد قد زعم أنه نبي يوحي إليه من السماء ؟ لقد أسلم ورقة بعد أن استحكم في النصرانية[٢١١] ، كما أسلم أيضا عبيد الله بن جحش بعد الالتباس الذي كان فيه ، ثم ظل مسلما إلي أن هاجر إلي الحبشة ، وهناك تنصَّر ومات علي النصرانية . والملاحظ من سيرته أنه كان لا يحترم غربة المسلمين في تلك البلاد، إذ كان يغيظهم بقوله: « فَقَّحْنا وصأصأتم»[٢١٢] .وواضح أنه لم يصبر علي بلاء الاختبار الذي محص الله به المسلمين في النصف الأول من عمر الدعوة فانقلب في أول فرصة ودخل في دين الدولة المضيّفة ، ممثلا بذلك الشذوذ علي القاعدة التي يمثلها بقية المهاجرين جميعا . وأرجح أنه لو كان قد نُسِئَ له في عمره ورجع مع سائر المهاجرين لعاد كَرّة أخري إلي الإسلام ، فإن نفسيته فيما يبدو من أخباره لم تكن نفسية متماسكة . وينبغي ألا يفوتنا أنه لو كان سمع أو شهد أن محمدا قد سرق أفكاره من أحد لما آمن به في البداية أو لفضحه بذلك عند النجاشي ومطارنته ، وبخاصة في ذلك اليوم المشهود ، يوم المناظرة التي أقيمت في بلاط الإمبراطور الحبشي بين المسلمين المهاجرين وبين رسولَيْ قريش بحضور كبار رجال الدين هناك . وعلي أية حال فلا يمكننا أن نغفل أن زوجته ، وهي أم حبيبة بنت أبي سفيان أحد زعماء الكفر في ذلك الحين ، لم تتابعه في ارتداده ، بل ظلت متمسكة بدينها . ليس هذا فقط ، بل عقد عليها الرسول وهي لا تزال في الحبشة وأناب عنه النجاشي رضي الله عنه، وكان قد أسلم ، في عقد نكاحه عليها بعد وفاة زوجها[٢١٣] . وأم حبيبة هذه هي التي استنكفت أن يلمس جسد أبيها فراش رسول الله حتي لا ينجِّسه ، وصارحته بذلك ، وكان أبوها حينذاك قد أصبح هو الزعيم الأوحد لمعسكر الكفر والطغيان . فلعل هذا كله يعطيك فكرة عن قيمة ارتداد عبيد الله بن جحش في بلاد النجاشي ، الذي صدَّق هو نفسه بالدين الجديد . وكي تزداد ضآلة قيمة ارتداده وضوحا أحب أن أذكر لك أن كل إخوته قد أسلموا ، وهم عبد الله(وقد استُشهد في أحد) وعبد(وهو المُكَنَّي بأبي أحمد) ، وأم حبيب(زوجة عبد الرحمن بن عوف) وزينب(زوجة زيد بن حارثة ثم الرسول من بعده) . وفضلا عن ذلك فإن أحد هؤلاء الإخوة وهو عبد(أبو أحمد) كان ضريرا ، ولم يمنعه ذلك من مناصرة الإسلام والهجرة فيمن هاجر إلي يثرب .ومما له دلالة هنا أنه كان أيضا زوج إحدي بنات أبي سفيان زعيم الوثنية في ذلك الوقت . فلو كان أخوه قد تنصر عن بصيرة لتابعه ، فهو لم يكن أخاه فقط بل عديله أيضا ، أو علي الأقل كان ينبغي ، وهو الضرير الضعيف القادر بغيره ، أن ينحاز إلي معسكر الأقوياء(أي الكفار) حتي تقوي شوكة المسلمين فيدخل معهم في دينهم [٢١٤] .ومن الحنفاء أيضا عثمان بن الحويرث ، وقد

---

[٢١٠] أبدي إدمون پاور هذه الملاحظة نفسها عن أمية بن أبي الصلت بالذات.(جوزيف هبي / ٧٧٧ - ٧٧٨) .

[٢١١] وهذه هي عبارة ابن اسحاق في السيرة (ابن هشام / ١ / ٢٠٥) .

[٢١٢] والصأصأة هي محاولة الكلب الوليد تفتيح عينيه لينظر . وفقح : فتح عينيه . ولعل هذه الصورة المجازية التي استعملها تبيّن لنا كيف كان يؤذي مشاعر زملائه في الغربة ببذاءته.

[٢١٣] المرجع السابق / ٤ / ٢١٥.

[٢١٤] السابق / ١ /٢٣٥ ، و ٢ / ٨٢ متنًا وهامشًا ، ١٠٤ - ١٠٥ ، و ٣ / ٤٢.

قدم علي قيصر فتنصر وحسنت منزلته لديه(لاحظ أن من تنصر منهم قد تنصر في الغربة) . ويذكرون أن قيصر توَّجه وولاه أمر مكة ولكن أهل مكة رفضوه . وقد مات بالشام مسموما علي يد عمرو بن جفنة الملك الغساني[٢١٥]، وهو ما يعطيك فكرة عن نواياه ودوافعه . ولا بأس أن نعد أمية بن أبي الصلت واحدا من هؤلاء الحنفاء . وهو شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف كان مطلعا علي الكتب القديمة ، ولبس المسوح وامتنع عن الخمر والأوثان .وقد رحل إلي دمشق ثم إلي البحرين حيث ظل هناك حتي ظهرت دعوة الإسلام وبلغه خبر محمد عليه الصلاة والسلام ، فقدم إلي مكة واستمع منه صلي الله عليه سلم إلي آيات من القرآن .ولما سأله أهل مكة رأيه فيه قال « : إنه علي حق » ، ولكنه مع ذلك أجّل الدخول في الإسلام حتي ينظر ، فيما قال ، في أمره . وبعد ذلك سافر إلي الشام ثانية ، وهاجر رسول الله إلي يثرب . ثم عاد أمية من الشام وفي نيته إعلان إسلامه ، لكن مقتل ابني خال له كافرين في بدر منعه من ذلك .وقد أقام أمية في الطائف إلي أن مات[٢١٦] . ومن الواضح أن هذا التردد الطويل إلي أن هلك يؤكد ما قاله المؤرخون المسلمون عنه من أن الحسد والطمع في النبوة لنفسه كانا هما السبب الحقيقي أو علي الأقل الرئيسي في توقفه عن إعلان إيمانه بنبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام[٢١٧] .وطبعا لو أن أمية بلغه من أي طريق شيء مريب عن محمد لما سكت لسانه ، وهو الشاعر . كذلك لو أنه أحس أن محمدا نبي مزيف لادعي هو أيضا النبوة ، وقد كان له معين في شهرته في الجاهلية بالتعبد ومعرفة الكتب القديمة . أما زيد بن عمرو بن نُفَيْل فقد اتبع دين إبراهيم واعتزل الأوثان والميتة والدم والقرابين ، ولم يدخل في يهودية ولانصرانية . ولكن مغزي قصته لا يتم إلا إذا علمنا أن ابنه سعيد بن زيد ، وابن عمه وابنة عمه ، وهما عمر بن الخطاب وأخته(التي هي زوجة سعيد بن زيد نفسه) ، قد دخلوا كلهم في الإسلام . ونحن جميعا نعرف الإيذاء الذي أوقعه عمر بسعيد هذا وزوجته والذي انتهي خير نهاية ، إذ ترتب عليه إسلامه رضي الله عنه . فلو أن سعيدا هذا أحس أن محمدا قد تعلم من أبيه أو لو أن أباه صارحه بشيء من ذلك لما أسلم البتة ، وبالذات في ذلك الوقت المبكر جدا من تاريخ الدعوة الإسلامية ، أو لو أن عمر صاحب العين اليقظة والعقل اللماح واللسان الجريء حاكت في قلبه أية ذرة من ريبة حول محمد وأخذه المزعوم عن الحنفاء أو عن ابن عمه بخاصة لما دخل في الإسلام أبدا ليتحدي الكفار جميعا جهرة وليكون إسلامه فتحا[٢١٨] . أما في المدينة فهل يمكننا أن نعُدّ أبا عامر الراهب(أو الفاسق كما سماه الرسول عليه السلام) من بين هؤلاء الحنفاء ؟ إن قصته لتشبه قصة ابن الحويرث المكي ، إذ إنه لما هاجر النبي إلي المدينة فارقها هو غِلاً وحقدا وأخذ يؤلب الكفار عليه ، ثم ذهب إلي قيصر يستعين به .وقد اشترك ضد المسلمين في غزوة أحد ، وإأوعز إلي منافقي المدينة أن يبنوا مسجدا في محلتهم

---

[٢١٥] السابق / ١ /٢٠٦ (المتن والهامش) .

[٢١٦] نظر « الأعلام » للزركلي / مادة « أمية بن أبي الصلت » .

[٢١٧] انظر د .هيكل /١٧٥.

[٢١٨] انظر ابن هشام / ١ / ٢٠٦ ـ ٢١٥ ، ٢٩٤ ـ ٢٩٩ ، وبالذات ص /٢٩٧ حيث يورد ابن اسحاق رواية عن عمر تشير إلي أن الإسلام قد لمس قلبه قبل اليوم الذي نطق فيه بالشهادتين.

بعيدا عن عيون الرسول والمخلصين من أتباعه ليشق به وحدة الجماعة ويجتمع بهم فيه . ولكن كل ذلك لم يُغْنِه فتيلا ، وحقت عليه لعنة نفسه ، إذ قال لرسول الله عليه السلام أول مقدمه إلي المدينة « : الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا » ، يعرِّض برسول الله صلي الله عليه وسلم ، فمات هو بالشام غريبا طريدا وحيدا بعد فشله وإطلاقه آخر سهم في جعبته، إذ خرج إلي الطائف يحرض أهلها ويقوي قلوبهم علي حرب رسول الله ، ولكنهم أسلموا فلحق بالشام وهلك هناك .والذي يهمني قوله هنا هو أن أحدا من أهل المدينة لم يتبعه ، وحين ناداهم وهو يحارب في صفوف المشركين يوم أحد لينبههم إلي وجوده فينحازوا معه قائلاً « : أنا أبو عامر » ردوا عليه بقولهم: « فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق» . حتي ابنه كذّبه واتبع محمدا ، وحارب في تلك المعركة نفسها جنديا في صفوف المسلمين واسُتُشْهد فيها . وهو حنظلة المسمي« غسيل الملائكة»، رضي الله عنه رضًا واسعًا[٢١٩] .كذلك هل يمكننا أن نلحق بالحنفاء أيضا أبا قيس صرمة بن أبي أنس ، الذي ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان ، وهمَّ بالنصرانية ولكنه أمسك عنها وأخذ يعبد الله علي دين إبراهيم عليه السلام حتي هاجر الرسول إلي المدينة فأسلم رغم أنه كان شيخا كبيرا ، وطفق ينافح عن الإسلام بأشعاره الحسان[٢٢٠] . فمن هذا العرض نخرج بالنتيجة التالية : أن بعض هؤلاء الحنفاء قد أسلموا ، ومن لم يسلم منهم انحاز إلي أحد الأباطرة لمصلحة له ، ولم يتابعه حتي أقرب المقربين إليه بل دخلوا في الإسلام واتبعوا محمدا . أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد رأينا ابنه وأقرباءه يصدّقون بالنبي ودعوته ويُفَدّونهما بالنَّفْس والنَّفِيس .وقد عرفنا من أمر أمية بن أبي الصلت ما عرفنا ، فما دلالة هذا كله ؟ أترك ذلك للقارئ ليحكم هو بنفسه علي مفتريات المستشرقين التي لم يفكر في توجيهها إلي محمد مجردَ تفكير أيُّ واحد من معاصريه بالغةً ما بلغت عداوته له.

إن أحدا من هؤلاء الحنفاء لو شعر أن محمدا إنما هو دَعِيّ نبوة لانبيٌّ حقيقي لادّعي هو أيضا النبوة . ولا يَصِحَّنّ أن يقول قائل : ولكن لقد ظهر فعلا متنبئون مثل مسيلمة وطليحة ، أفليس هذا كافيا ؟ لا يصحَّن أن يقول قائلٌ هذا لأن سِيَر هؤلاء المتنبئين كافية عند العقلاء لرفضهم وردّ ادعائهم : فالأسود العنسي مثلا كان بطّاشا جبارا . وقد أسلم لما أسلمت اليمن ثم ارتد أول واحد ، ولكنه قُتِل بعد تنبئه بأربعة أشهر فقط . وسبق أن ذكرنا الدور الذي قامت به زوجته في عملية اغتياله .ولا أظن في هذه المعلومات عن شخصيته وحياته وموقف زوجته منه ما يدعو عاقلا إلي تصديقه ، وبخاصة أنه أسلم ثم ارتد وتنبأ ، إذ ليس هذا فعل الصادقين بَلْه رسل الله[٢٢١] .وأما مسيلمة فقد أسلم أيضا ، لكنه لما رجع إلي اليمامة ارتد وتنبأ قائلا « : إني أُشْرِكْتُ في الأمر معه »(أي أنه شريك لمحمد في النبوة) ، وهي كلمة تمحق

---

[٢١٩] المرجع السابق / ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧، و ٣ / ١٩ ، ٢٥ ، ٢٨.

[٢٢٠] السابق / ٢ / ١١٢ ـ ١١٥.

[٢٢١] انظر في ترجمته « الأعلام » للزركلي / مادة « الأسود العنسي » ، وكذلك إرڤنج / ١٨١ ـ ١٨٢.

ادعاءه محقا ، إذ هي اعتراف منه لمحمد بالنبوة ، ومحمد قد كذّبه تكذيبا قاطعا . وثمة ما هو أكثر من ذلك ، فقد أحلّ لمن تابعوه الخمر والزنا وحط عنهم الصلاة[٢٢٢] .وقد هلك في حروب الردة : قتله وَحْشِيٌّ(قاتل حمزة رضي الله عنه في أُحُد) ، واشترك معه في قتله رجل من الأنصار[٢٢٣] . وكان قد تزوج سَجَاحَ المتنبئة ، فأقامت معه قليلا . وكانت قد نزلت اليمامة بجيش كبير ، ولكنها لما أدركت صعوبة الإقدام علي قتال المسلمين انصرفت راجعة إلي الجزيرة(بالعراق)، ثم لما بلغها قتل مسيلمة أسلمت .وعند وفاتها صلي عليها والي البصرة من قِبَلِ معاوية بن أبي سفيان .وأظن أن في هذا مَغْنًي لمن يريد أن يعرف حقيقة مسيلمة وحقيقة سجاح[٢٢٤] . ويبقي طُلَيْحَة الأَسَدِيّ ، وقد أسلم قبل تنبئه كما أسلم زميلاه في التنبؤ : مسيلمة والأسود ، لكنه لما رجع مع وفود قومه بني أسد إلي بلادهم ارتدَّ وادعي النبوة . وقد هزمه خالد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فهرب إلي الشام ، ثم عاد إلي الإسلام في عهد عمر وأبلي بعد ذلك في الفتوح الإسلامية بلاء حسنا حتي استُشْهد في نهاوندْ[٢٢٥] .وها أنت ذا تري أن اثنين من هؤلاء المتنبئين لم يكملا الطريق وعادا إلي الإسلام ، أما الاثنان الآخران اللذان هلكا فقد أسلما أولا ثم ارتدّا وتنبآ ، وليس هذا بفعل الأنبياء الحقيقيين.

وهناك مصدر آخر يُلَمّح بعض المستشرقين إلي أن الرسول كان يمتح منه أحيانا ، وهو عمر بن الخطاب . فهذا مكسيم رودنسون يقول « : وقد افتخر عمر في براءة بأن ثلاثا من نصائحه قد وافقت الوحي علي نحو معجز »[٢٢٦] . وإن عبارتَيْ « في براءة » و« علي نحو معجز »تدلانك وحدهما علي ما يريد هذا المستشرق أن يقول ، حتي لو لم تعرف أنه غير مسلم وأنه يُرجع الوحي إلي مصدر بشري .وإني في الواقع لست أدري لِمَ يعتقد رودنسون وأمثاله أن الوحي لا بد أن يخالف كل فكرة أو اقتراح بشري ؟ إن البشر ليسوا علي كل حال شياطين ، بل فيهم من روح الله كما يقول القرآن ، فإذا توافقت أفكار بعض الصحابة مع الوحي فما وجه الغرابة في هذا؟ إن رودنسون نفسه قد حصر موافقات الوحي لعمر في ثلاث ، فهل هذا كثير علي رجل مسلم اشتهر بتقوي الله وصفاء البصيرة وعمق الفهم لدينه وجرأته في التعبير عما يعتقد أنه الحق ؟ أم كان يجب علي الله سبحانه أن يغيظ عمر في كل مرة من هذه المرات الثلاث ويغير وحيه حتي لا يتوافق مع رأي عمر ؟ أم ماذا ؟ أما غمز رودنسون ولمزه لعمر حين أشار إلي « براءته » فهو دليل علي عجزه عن فهم الرجال وسبر أغوار شخصياتهم ، فلم يكن عمر ذلك الرجل البريء(أي الساذج ، كما يحاول أن يوحي لنا رودنسون) بل كان نافذ البصيرة ، نقادة ، حاد الملاحظة ، كبير العقل . لقد حكم الإمبراطورية الإسلامية عشر سنين وهي في أوج صراعها مع

---

[٢٢٢] ابن هشام / ٤ / ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ١٨٣.

[٢٢٣] المرجع السابق / ٣ / ٢٣.

[٢٢٤] انظر « الأعلام » للزركلي / مادتا « سجاح » و « مسيلمة الكذب » .

[٢٢٥] انظر في ترجمته « الأعلام » للزركلي / مادة « طليحة الأسدي » ، و«القاموس الإسلامي » لعطية الله / مادة « طليحة بن خويلد » .

[٢٢٦] رودنسون / ٢١٩.

دهاقنة العالم من الفرس والروم فحطمهم تحطيما . وأظن أن هذا هو السبب الذي أملي علي هذا الشيوعي الأوروبي أن يلمز أمير المؤمنين هذه اللمزة السمجة .علي أنه إذا كان الوحي قد وافق عمر ثلاث مرات ، فقد خالف الوحي عمر والدنيا كلها حين كان عمر كافرا ، وكان علي عمر أن يغير عقائده وأسلوب حياته ويتوافق مع ذلك الوحي . أما بعد الإسلام فما أكثر المرات التي خالفه فيها النبي عليه الصلاة والسلام : فقد كان عمر مثلا يحلف بأبيه فنهاه النبي فانتهي [٢٢٧] كما أنه عليه السلام قد نصر مرة رأيَ امرأةٍ علي رأي عمر[٢٢٨] . وحتي في حجاب زوجاته عليه السلام فإن الوحي لم يوافقه علي طول الخط . لقد نزل القرآن بالحجاب علي زوجات رسول الله صيانة لهن من نظرات الزائرين لبيت النبوة وتطلعات السفهاء ، وكان هذا أيضا رأي عمر رضي الله عنه وأرضاه . لكن عمر قابل ذات ليلة أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، رضي الله عنها ، فتعرف عليها وقال لها « : إنك والله يا سودة ما تَخْفَيْنَ علينا » ، فرجعت إلي النبي فذكرت ذلك وهو في حجرة عائشة يتعشي ، وكان في يده عرق فأُنْزِل عليه ، ثم رُفع عنه وهو يقول « : قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن»[٢٢٩] .كما طلب من النبي في أكثر من مناسبة أن يقتل هذا الرجل أو ذاك لأنه ، في نظره ، منافق قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فكان عليه السلام يرفض اقتراحه ويرشده إلي ما هو أقوم[٢٣٠] .بل لقد بلغ من هيبة عمر له أنه ، لما نسي عليه السلام فصلي إحدي الصلوات الرباعية ركعتين فقط ، لم يستطع أن يفاتحه في الأمر لا هو ولا أبو بكر[٢٣١] .كما أنه وأبا بكر قد اختلفا عند النبي علي أمر وارتفعت أصواتهما ، فنزل قوله تعالي: « يا أيها الذين آمنوا ، لا تَرْفَعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبي ، ولا تَجْهَروا له بالقَوْلِ كجَهْرِ بعْضِكم لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أعْمالُكم وأنتم لا تَشْعُرون » ، فكان عمر بعد ذلك إذا حدّث النبي بحديثٍ خفض صوته كأنه يُسِرّ إليه بشيء[٢٣٢] . فهل يَسُوغُ القول تصريحا أو تلميحا بأن عمر كان مصدرًا لبعض الوحي ؟ عمر الذي كان يقبّل الحجر الأسود وهو يقول « : إنما أنت حجر ، ولولا أني رأيت رسول الله قبّلك ما قبّلتك » [٢٣٣] ولكن لم ؟ أكان عليه السلام يخافه ؟ أبدا ، فهو الذي كان يهاب النبي ، وهو الذي تابعه وتحدي الدنيا من أجله وأجل دينه . أكانت موافقات عمر للوحي في أمور عويصة حيرت بال الرسول عليه الصلاة والسلام وأسهرته الليل حائرا يتقلب علي فراشه ؟ ولا هذه أيضا ، فها هي ذي الأمور التي اتفق الوحي فيها معه رضي الله عنه « : قال عمر : وافقت الله في ثلاث ... قلت

---

[٢٢٧] الشوكاني / مجلد ١ / ج ١ / ص ٢٩٦ ، والبخاري / ٤ / ٥١.

[٢٢٨] انظر البخاري / ٣ / ٥٤.

[٢٢٩] المرجع السابق /٣ / ٢٦٦.

[٢٣٠] انظر المرجع السابق /٤ / ٧ ، ١٩٩ . ومن ذلك أنه كان يريد أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة لإرساله رسالة إلي أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للمسير إليهم لفتح بلدهم ، فرد عليه السلام عليه قائلاً : أوليس من أهل بدر ؟ وما يدريك ؟ لعل الله اطلع عليهم فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد أوجبت لكم الجنة » ، فاغرورقت عيناه بالدموع قائلاً : الله ورسوله أعلم.

[٢٣١] انظر الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ١٠٦.

[٢٣٢] انظر البخاري / ٤ / ٢٦١.

[٢٣٣] انظر « الموطأ » / ١ / ٣٣٤.

:يارسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مُصَلّي .وقلت : يارسول الله ، يدخل عليك البَرُّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله آية الحجاب ... وبلغني معاتبة النبي بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتُنّ أو لَيُبْدِلَنّ الله رسوله خيرا منكن ... فأنزل الله « عسي ربُّهُ إن طلّقكن أن يُبْدِلَهُ أزواجًا خَيْرًا منكُنّ» [٢٣٤] . فالآن نستطيع أن ندرك أسلوب المستشرقين في الطنطنة علي لا شيء !

وفي نهاية هذا الفصل نتساءل : هب أن الرسول ، وذلك مستحيل بعد كل ما قلناه ، كان كاذبًا ، فما الذي كان يريده من وراء هذا الكذب ؟ المال ؟ الشرف ؟ الرياسة والسلطان ؟ إن تفاصيل حياته كلها تكذب ذلك أشد تكذيب . ومع هذا فسوف نتناول هذه الدوافع بالمناقشة المفصلة الموثقة ، كعادتنا دائما ، في الفصل الثاني، الذي سنخصصه للشبهة الثانية التي يحاول غير المسلمين تفسير ظاهرة الوحي بها ، وهي أن محمدا كان واهما مخدوعا .كأنهم لما تيقنوا فشل الشبهة الأولي وعرفوا أن اتهامه بالكذب والخداع هو اتهام متهافت عاد فريق منهم فقال إنه لم يكن خادعًا بل مخدوعًا .

الشبهة الثانية

أنه عليه السلام كان واهما مخدوعا

وننتقل الآن إلي الشبهة الثانية ، وهي أنه كان واهما مخدوعا . ولعل المشركين كانوا يقصدون ذلك أو شيئًا منه حينما اتهموه بالجنون[١] ، وحينما عرض عليه عتبة بن ربيعة ، فيما عرض ، أن يأتوا له بطبيب يعالجه مما أصابه إن كان الذي يأتيه رَئِيّا من الجن[٢] ، فما كان منه عليه السلام إلا أن قرأ عليه عددا من الآيات من مفتتح سورة« فُصِّلت » فيها دعوة لقريش إلي الإيمان ، وتصوير لعنادهم ، وتهديد لهم بمثل مصائر الأمم الخالية التي كذّبت رسلها . ولنقف هنا قليلا ونتساءل : تري لو أن الرسول كان فعلا مصابا ببعض الأمراض النفسية ، التي عبر عنها مفاوضه القرشي بـ « رئيّ الجن » ، أكان سيكون رده عليه بهذا الهدوء النبيل وبتلاوة هذه الآيات من الذكر الحكيم ؟ ألم يكن سيثور ويسمعه قارص القول إن لم يكن بعضا من الشتائم المقذعة إذ ضغط في شخصيته علي الجرح الناغر الذي يؤلمه ؟ ثم إن محمدا هذا هو محمد الذي كان محل ثقتهم وأمانتهم قبل المبعث ، فما عدا مما بَدا ؟ ألئن جاء بدعوة التوحيد والعدل والمساواة وتحرير الفكر من أغلال الخرافات والتقاليد السخيفة

---

[٢٣٤] انظر البخاري / ٣ / ٩٩ .

[١] سجل القرآن هذا الاتهام في أكثر من موضع: « وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » (الحجر / ٦) و « ويقولون : أإنّا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون؟ » (الصافات /٣٦) و «يقولون : إنه لمجنون» (القلم / ٥١) ...إلخ.

[٢] انظر ابن هشام / ١ / ٢٦١ ـ ٢٦٢.

المشوهة يُتَّهَم بالجنون ؟ والله إن كان هذا هو الجنون ، وكانت الوثنية بكل قبحها هي العقل ، فمرحبا به من جنون !

أما كفار العصر الحديث فإنهم يتحدثون ، بدلا من ذلك ، عن الرغبات الدفينة ومكنونات اللاوعي[٣] التي جاء القرآن ، عن غير عمد أو وعي من محمد كما يقولون ، ليحققها ويخفف عنه عليه السلام أثقالها التي كانت تعاني منها نفسه أيما معاناة.

علي أن أول شيء أتناوله في مستهل مناقشتي لهذا الاتهام هو أن الوحي كثيرا ما نزل يعارض رغبات الرسول العميقة معارضة صريحة لا لبس فيها ولا تأويل ، وقوية لا تلطف فيها ولا تخفيف . ومن ذلك أنه عليه السلام كان يحب عمه أبا طالب ، الذي رعاه في يتمه من بعد جده والذي حال بين قريش وبين التفكير في اغتياله منذ البداية ، وكان يتمني بكل كيانه أن يسلم هذا العم، فلماذا لم يتوهم نزول وحي يخبره عند موت عمه بأنه قد نطق بالشهادتين وهو يغرغر مثلا ؟ إن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل لم يحدث ما هو دون هذا بكثير : لقد وعد عليه السلام عمَّه بأن يستغفر له الله ، بيد أن الوحي قد حسم الأمر للتو فنزل قوله تعالي: « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولِي قُرْبَي من بعد ما تبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم » (التوبة / ١١٣) ، ولم يتركه الوحي حتي يستغفر ثم يبين له عدم جدوي الاستغفار بل بادر الأمنية في مهدها[٤] .وقد أسلفت في الفصل السابق أنه صلي الله عليه و سلم كان يخشي أشد الخشية أن يواجه الناس بأن زينب بنت جحش تحلّ له زوجةً ، فنزل القرآن يعاتبه قائلاً: « وتخشي الناسَ ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه»[٥]. كما سمعنا عائشة وهي تقول إن الرسول لو كان كاتما شيئا من الوحي لكتم هذا ، لما كانت تعلمه من أن مثل هذا الزواج سوف يصدم المجتمع صدمة عنيفة لتعوّد الناس علي أن يَعُدّوا ابن التبني كالابن الحقيقي تماما .وقد يقول قائل : ولكن الوحي هكذا قد نزل ليحقق أمنية الرسول ، إذ كان يهوي زينب . ولمثل هذا القائل أكرر ما قلته هناك من أن هذه الأمنية كانت تستطيع أن تتحقق بأكثر من طريقة ، كأن يتخذها الرسول(أستغفر الله) خدينة له مثلا . إلا أن الوحي أصر علي أن يعالن محمد المجتمع بهذا الزواج ، وهو ما كان النبي يخشاه أشد الخشية . كذلك فإن قريشا قد مثّلتْ بجثة عمه حمزة الشهيد ، إذ بقرت هند زوجة أبي سفيان بطنه رضي الله عنه واستخرجت كبده ولاكتها ، وجدعت أنفه وأذنيه ولبستها حليّا تَشْفِي بذلك نفسها المغلولة . ولم يكتف أبو سفيان بذلك ، بل أخذ يضرب حمزة بزُجّ الرمح في شدقه وهو جثة هامدة ويقول له: « ذُقْ عُقَق! » ، فأقسم النبي ، وقد بلغ الغيظ منه والحزن والحسرة منتهاها ، لئن أظهره الله علي قريش في موطن من المواطن لَيُمَثِّلَنّ بثلاثين رجلا منهم ، وأقسم معه المسلمون لَيُمَثِّلَنّ بهم مُثْلةً لم يمثلها أحد من العرب ، فَبِمَ نزل الوحي ؟ أَنَزَلَ يبارك

---

[٣] قال بذلك من المستشرقين رودنسون ولودي وغيرهما ، ممن سنتناول آراءهم بالتحليل والمناقشة بعد قليل.

[٤] انظر البخاري / ٢ / ١٣٨.

[٥] الأحزاب / ٣٧.

هذا القسم ويحض الرسول والمسلمين علي تحقيق هذه الأمنية حتي تُشْفِيَ نفسيته عليه السلام من أحزانها ولوعاتها علي عمه الحبيب وأخيه في الرضاع ؟ أبدا ، بل نزل الوحي بهذه الآيات: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين $ واصبر وما صَبْرُك إلاّ بالله ، ولا تحْزَنْ عليهم ، ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرون»[٦] ، فعفا رسول الله وصبر ونهي عن المثلة[٧] . ليس هذا فحسب ، بل إن النبي بعد أن دخل مكة فاتحا وأظفره الله بأبي سفيان وهند فاعِلَيْ تلك الفعلة الأثيمة ، لم نسمع بنزول وحي عليه بقتلهما ، إن لم يكن من أجل حمزة فجزاء ما ألّبا عليه هو وحارباه بكل ما ملكت أيديهما حتي انتهي أمرهما وأمر قريش كلها إلي الفشل الذريع . أما وحشيٌّ قاتل عمه فإنه عليه السلام قد قَبِل إسلامه حين أتاه بعد ذلك في أخريات حياته ، وإن لم يستطع أن يرتاح لمرآه .وأحيلك علي ابن هشام[٨] لتقرأ ما دار بين وحشي وبين النبي حين قدم عليه ، وكيف قال له الرسول حين رآه : « أوَحْشِي ؟ » . قال: « نعم يارسول الله » . قال : « اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة » فحدّثه، فلما فرغ من حديثه قال: « ويحك ! غيِّبْ عني وجهك فلا أرَيَنَّك »وعلي رغم ما هو ظاهر في القصة من بقاء ذكري حمزة ومقتله بعد كل هذه السنوات حية نابضة في نفسه عليه السلام تؤلمه إيلاما شديدًا ، فلا وحي بانتقام ولا خلافه . سبحان الله !أهذا كل تأثير مكبوتات اللاوعي ؟ كذلك أين كانت مكبوتات اللاوعي هذه يوم أن مر الرسول ومعه أصحابه بقبر أمِّه فعطف علي القبر ووقف عنده بعض الوقت ثم عاد إلي أصحابه باكيا ، ولما استفسروا منه عن سر ذلك قال لهم إن الله قد أذن له بزيارة قبر أمه ولكنه لم يأذن له أن يستغفر لها . تُرَي لِمَ لَمْ يرسم الوحي الذي يدعي مستشرقونا المخلصون أنه انعكاس لرغبات محمد الدفينة صورة وردية لمصير آمنة بنت وهب في الحياة الأخري ، وهي أمه التي غادرته يتيما في سن غضة تاركة له أجمل ذكريات الحنان؟[٩] ولِمَ لَمْ ينزل وحي بعد فتح مكة يطلب من الرسول الانتقال بحكومته إليها ، وهي التي كانت أحب بلاد الله إلي الرسول كما اعترف هو نفسه بذلك يوم أن غادرها مهاجرا إلي يثرب؟ أو لِمَ لَمْ ينزل قرآن باستيلاء الرسول والمهاجرين علي دورهم التي سُلِبَتْ منهم يوم أن أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله؟[١٠] أم تري لِمَ لَمْ ينزل وحي يعكس رغبته عليه السلام في أن يشاركه الكون كله أحزانه الثقيلة يوم موت ابنه إبراهيم ، الذي رُزِقَه في أخريات حياته فملأ عليه البيت حبورا وسعادة ؟ لقد كسفت الشمس يومها فظن المسلمون أنها كسفت لموت ابنه عليه السلام ، فماذا تظنون كان جوابه عليهم ؟ لقد نبههم ، وهو في غمرة أحزانه ، إلي أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا

---

[٦] النحل / ١٢٦ ـ ١٢٧.

[٧] انظر ابن هشام / ٣ / ٢١ ـ ٢٢ ، ٣٦ ـ ٣٨.

[٨] ج ٣ / ص ٢٣.

[٩] انظر الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٠٩ . وقد سبق الاستشهاد بهذا الحديث للتدليل علي توخيه عليه السلام للصدق حتي فيما لاحرج عليه قط في كتمانه ، لأنه من شؤونه هو . انظر إرقتج ١٥٧.

[١٠] انظر ابن هشام / ٢ / ٨٢ ـ ٨٣ ، ١٠٤ ـ ١٠٥ ، و ٣ / ٤٣.

تكسفان لموت أحد ولا لولادته[11] . وربما جاز لنا أن نشير هنا إلي أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يشمئز من أكل الضبّ ، ومع ذلك فقد كان أصحابه يأكلونه أمامه فلا ينكر ذلك عليهم . أفرأيت إن كان الوحي انعكاسًا لميله إلي أشياء ونفوره من أخري ، ألم يكن المتوقع إذن أن يحرِّم عليهم الضبّ ؟ [12]

ليس ذلك فقط ، بل كثير هو الوحي الذي نزل يخطّئ الرسول عليه السلام ، كما في قصة ابن أم مكتوم[13] ، وكما في حادث الصحابي الذي وجد زوجته مع رجل آخر في الفراش ، فكان رأيُ الرسول أن عليه إحضار البينة أو يُحَدّ حَدَّ القذف ، فنزل الوحي بغير ذلك ، وكانت آيات الملاعنة[14] . ومثل ذلك رأيه عليه السلام فيمن ظاهر من زوجته ، إذ عَدّ النبيُّ ذلك طلاقا ، فنزل الوحي بغير ذلك[15].

ويجري هذا المجري أن القرآن قد خاطب النبي في مواضع عدة بلغة عنيفة ، كما في قوله: « أمَّا من استَغْنَي # فأنت له تَصَدَّي # وما عليك الا يَزَّكَّي # وأما من جاءك يَسْعَي # وهو يَخْشَي# فأنت عنه تَلَهَّي # كلا ، إنها تذكرة # فمن شاء ذكره » (عبس 5 ـ ٢١)، وكما في آيات سورة « الأنفال » التي نزلت تعاتبه عليه السلام لأخذه الفدية من أسري بدر بدلا من قتلهم ، والتي انتهت بهذه الآية الشديدة : « لَوْلا كتابٌ من الله سبق لَمَسّكُم فيما أخذتم عَذَابٌ عظيم » [16] .ولكي يدرك القارئ عنف هذا العتاب أرجو أن يقابل بينه وبين ما قاله الوحي في حق أصحاب الإفك: « ولولا فَضْلُ اللّه عليكم ورحمتُه في الدنيا والآخرة لَمَسَّكم فيما أَفَضْتُمْ فيه عَذَابٌ عظيم » [17] . ونفس هذا العتاب العنيف تجده في آية سورة « التوبة » ، إذ صمم الرسول علي الصلاة علي ابن أُبَيّ رأس النفاق حين مات بينما عمر يمنعه ويجذبه من ردائه ، فنزل القرآن صادعا: « استَغفِرْ لهم أوْ لا تَسْتَغفِرْ لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم »[18] .وليس بالقليل أن يخاطب الوحي النبي الذي يبلّغ هو نفسه هذا الوحي قائلاً « : إنك مهما تستغفر لهم فلن يُقْبَل لك استغفار» . ولا يعتقدَنّ أي إنسان أن الرسول إنما تظاهر بأنه يريد أن يصلي علي ابن أُبَيّ تمثيلا منه وخداعا ، إذ السؤال هو : وعلي من كان يريد التمثيل ؟ إن ابن هذا الرجل نفسه قد عرض علي النبي قبل ذلك أن يقتله بيده ، ولكن رسول الله رفض . كما أن رأي الرسول في المنافقين بعامة ، وفي أشخاص منهم بأعيانهم بوجه خاص ، كان واضحا لا مداراة فيه . ولكني أحسب أن الرسول كان مع ذلك يعطف علي الضعف البشري عند ابن

---

[11] أورد إرڤنج هذه الواقعة (ص / ١٧٦) ، وكل المستشرقين يعرفونها ويعرفون كل ما ذكرته هنا وما لم أذكره ، فلماذا يتنكبون عن سواء السبيل ؟

[12] انظر ، في نفوره من لحم الضب ، الشوكاني مثلا / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ١١٨.

[13] انظر الآيات الأولي من سورة: « عَبَس » وسبب نزولها.

[14] انظر الآيات / ٦ ـ ٩ من سورة « النور » وسبب نزولها.

[15] انظر الآيات الأولي من سورة « قد سمع » وسبب نزولها.

[16] الأنفال / ٦٨.

[17] النور / ١٤.

[18] التوبة / ٨٠.

أُبَيّ ، إذ كاد هذا الرجل أن يُنَصَّب مَلِكا علي المدينة لولا قدوم الرسول مهاجرا إليها في ذلك الوقت . فيبدو لي أن الرسول ذا القلب الكبير كان يفهم دوافع السخط عند هذا الرجل ويغفر له مؤامراته عليه وإيذاءه له [١٩] . ومما نزل من وحي عنيف متعلق بالنبي عليه السلام ما جاء في سورة « الحاقة» : « ولو تَقَوَّل علينا بَعْضَ الأقاويل $لأخَذْنا منه باليمين $ ثم لقَطَعْنا منه الوَتِين»[٢٠] ، وهو ما يقابل تعبيرنا العامي: « أقْطَع له رقبته » ، فهل هذه أيضا رغبة مدفونة في طوايا نفسيته عليه السلام شقت طريقها إلي الوحي ؟ ويشبهها آيتا سورة« الإسراء » (٧٤ ـ ٧٥) « ولولا أنْ ثَبَّتْنَاك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا $ إذن لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ الممات ثم لا تَجِدُ لك علينا نصيرًا. »

إن نظرية اللاوعي عند فرويد تعجز عن تفسير ما سبق ، كما تعجز أيضا عن تفسير آيات الوحي التي تعلن بصريح العبارة علم الله برغبة النبي في هذا الأمر أو ذاك ، وأنه لذلك قد حققه له . اقرأ: « قد نَري تقلُّبَ وجْهِك في السماءِ فَلَنولينك قبلة ترضاها ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرَام»[٢١] ، « تُرْجِي مَنْ تشاء مِنهُنّ وتؤوي إليك مَنْ تشاء ، ومَن ابْتَغَيْتَ ممَّن عَزَلْتَ فلا جُناحَ عليك . ذلك أدنَي أن تَقَرَّ أعينُهُنَّ ولا يَحْزَنّ ، ويَرْضَيْنَ بما آتيتَهُن» [٢٢] ، « وما كان لكم أن تؤذُوا رسول اللهِ ولا أنْ تَنْكحوا أزْواجَه مِنْ بَعْده أبدا . إنَّ ذلكم كان عِنْدَ اللّهِ عظيمًا» [٢٣] . إن هذا هو الوعي كلّ الوعي ، فكيف يقال عنه إنه لاوعي؟ [٢٤] وامتدادا لتفسير الوحي بنظرية اللاوعي يعُدّ رودنسون شكّ الرسول في الوحي أول نزوله عليه دليلا علي أن مصدر الوحي إنساني[٢٥] ، مع أن العكس هو الصحيح ، إذ إن الشخص الذي يتصرف هذا التصرف أو ذاك بدافع من رغباته المدفونة في لاوعيه لا يشتبه أدني اشتباه في مثل هذه الدوافع المكبوتة ، ولكن قد يستطيع مع مرور الأيام أن يدرك الحقيقة عن طريق التحليل النفسي الذي يساعده فيه الطبيب المعالج علي استرجاع أحداث ماضيه

---

[١٩] انظر ابن هشام / ٢ / ١٦٦.
[٢٠] الآيات / ٤٤ ـ ٤٦.
[٢١] البقرة / ١٤٤ .
[٢٢] الأحزاب / ٥١.
[٢٣] الأحزاب / ٥٣.
[٢٤] انظر في اللاوعي أو اللاشعور، « دائرة المعارف البريطانية»/ مواد "Freudism" "psychoanalysis", "History of Psychology" , " School"، وكذلك « معجم العلوم الاجتماعية» (تصدير ومراجعة د . إبراهيم مدكور)/ مواد « اللاشعور » و « الأنا » و « الأنا الأعلي » و الـ « كبت » و الـ « هو » و« حيل الدفاع». وانظر في « قاموس علم الاجتماع » (د . محمد عاطف غيث » / مادة « اللاشعور» . وانظر أيضا مادة " Unconscious " في " A Dictionary of Psychology " و "A Critical Dictionary of Psychoanalysis "، وذلك كله إن سلمنا بصحة نظرية فرويد أصلا ، فإن هناك مدارس أخري لا تتفق معه ولها نظرياتها ومناهجها الخاصة بها ، مثل المدرسة السلوكية والاتجاه الجشطالتي.

[٢٥] رودنسون / ٢١٩.

المطمورة في لاوعيه . وهذا طبعا بناء علي طريقة التحليل النفسي الفرويدي ، التي قلت إنها ليست هي الاتجاه الوحيد في ميدان علم النفس.

ومع ذلك فلنستمر مع المستشرقين إلي آخر المطاف . إن بوكيه مثلا يؤكد أن ما رآه النبي في الغار لم يكن إلا وهما . وهو يعزو هذا الوهم إلي أحزانه الشديدة بسبب موت ولديه[٢٦] ، بينما يُرْجع لودي ذلك إلي موت ابنه وكِبَر سن زوجته والعزلة التي كانت تلفّه فوق الجبل وخوفه من الجنّ . أي أن ذلك هو الذي جعل محمدا يتوهم رؤية الملاك ويحس به وهو يغطّه ثلاث مرات [٢٧] . ويسوق لودي هنا ملاحظات بلاشير من أن الوحي كان يأتيه عليه السلام ليلا عندما يبلغ منه الإرهاق مبلغه [٢٨] . أما رودنسون فإنه ، مع اعترافه بأن زواج محمد وخديجة كان زواجا سعيدا ، يري أنه عليه السلام لم يكتف بهذه السعادة المتاحة ، بل كان يتطلع إلي المستحيل . ولكن لماذا ؟ إن السر عند هذا المستشرق يكمن في يتمه وفقره وإحباطه ، فقد فشلت خديجة في أن تعطيه ورثةً ذكورا ، الأمر الذي عرّضه لسخرية الناس ودفعه إلي البحث عن طريقة يُظهر بها أهميته لهؤلاء الذين كانوا يتهكمون به ويحتقرونه ، فضلا عن أنه كان يريد الانتقام من الأغنياء [٢٩] . ولعل وجهة نظر كايتاني تأتي في موضعها هنا ، إذ من رأيه أن الرسول عليه السلام لم يكن ينتمي إلي أسرة شريفة ، بدليل ما ورد في القرآن عن فقره[٣٠] . وقريب من هذا ما قاله لودي من أن يُتْم محمد والقسوة التي عومل بها في صغره هما اللذان أوحيا له آيات مثل: « كلاً ، بل لا تُكْرِمون اليَتِيم » (الفجر / ١٧)

والحقيقة أن هذا ليس إلا خبط عشواء ، فمن ذا الذي أخبر هؤلاء المحلّلين النفسانيين أن محمدا كان شقيا بزواجه من خديجة ؟ إن رودنسون ، كما رأينا، يعترف بأن ذلك الزواج كان زواجا سعيدا .ومثله في ذلك ألفريد جيوم [٣١] ومستشرقون آخرون . ونحن حين نقول هذا لا نحاول أن نضرب آراءهم بعضها ببعض ، ولكننا نريد أن نبين للقارئ كيف أن بعض هؤلاء المستشرقين يتجاهلون الحقائق التاريخية الناصعة ، فمن الثابت الذي لا يقبل شكا ولا مراءً أن خديجة ظلت في قلب النبي إلي آخر عمره ، ولم تستطع عائشة الصغيرة بنت أعزّ أصدقائه أن تنسيه إياها بل ولا أن تفوز من قلبه بنفس الحب الذي كان يكنه لها رضي الله عن الاثنتين كلتيهما . وثمة حديث مشهور تحاول فيه عائشة علي عادة الضرائر(وبخاصة إذا كانت الضَرّة صغيرةً مدللة كعائشة رضي الله عنها) أن تغض من قدر ضرتها المتوفاة وتنال من جمالها ، فيُقسم لها الرسول حاسما غير موارب بأن الله لم يبدله خيرا من خديجة ، ثم يأخذ في

---

[٢٦] بوكيه / ٢٦٦.

[٢٧] لودي / ١١٠.

[٢٨] المرجع السابق / ٤٧.

[٢٩] رودنسون / ٥٠ ـ ٥٤ ، ٦٧.

[٣٠] انظر هبي / ٨٠.

[٣١] انظر جيوم / ٢٧.

تعديد فضائلها التي لا تستطيع واحدة من بنات حواء أن تنافسها فيها [٣٢] . ومعروفة قصة القلادة التي أرسلتها زينب بنت الرسول لتَفْتَكَّ بها زوجَها العاص بن الربيع ، الذي وقع أسيرا في أيدي المسلمين ، وكانت خديجة قد أهدت تلك القلادة لابنتها عند زواجها . لقد خفق قلب محمد بقوة عندما وقعت عينه علي هذه القلادة لما أثارته في نفسه الطاهرة الوفية من ذكريات الحب والحنان اللذين أغدقتهما خديجة عليه إغداقا [٣٣] . إن أقل ما يمكن أن يوصف به كلام بعض المستشرقين عن محمد وخديجة أنه قلة ذوق وامتهانٌ لأقدس العواطف الإنسانية وأطهرها . وليس من المقبول أبدا أن يتدني بعض الناس في أحقادهم علي عظماء البشرية إلي هذا الدرك الأسفل من ليّ عنق التاريخ وتحريف وقائعه عن مواضعها . وَهَبْ أن محمدا كان ينفر من خديجة فلِمَ لَمْ يتزوج عليها ؟ وَهَبْهُ كان يخشاها لمالها وشرفها في قومها ، أفكان عاجزا أن يُرْوِي غلة ظمئه إلي مفاتن الجنس عند بغايا مكة ؟ إنه لم يكن ليحتاج آنئذ إلي اختراع وَحْيٍ يُحِلّ له ذلك ، فإن شرعة الجاهلية كانت تبارك البغاء .
إن بعض المستشرقين يزعمون أن كلامه عن الحور العين في نصوص الوحي المكي راجع إلي هذا الحرمان ، وأنه بعد الهجرة وإروائه ظمأه بالزواج بأكثر من واحدة قد كفّ عن ذكرهن[٣٤] .والذين يقولون هذا يغفلون عن أن أوصاف الحور العين كما جاءت في القرآن والحديث لا تستثير الشهوات ، فهي أوصاف قليلة وعامة . كما أن القرآن يصفهن بأنهن قاصرات الطَّرْف وأنهن مقصورات في الخيام[٣٥] . أما تفسير نبوته بأنها كانت تنفيسا عن حقده علي أغنياء قومه فهو يتطلب منا أن نلوي عنق التاريخ مرة أخري كي ننسي أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن طالب مال بل كان فيه من الزاهدين . وحتي لو افترضنا أنه كان يسعي وراء الثراء فهل يجب علينا أن نفترض أيضًا أن خديجة لم تكن من أثرياء قومها وأنها قد وضعت ثروتها وحياتها كلها بين يدي زوجها ليصبح بذلك من أغنياء مكة ؟ إن شهادة إرفنج هنا تكفي[٣٦] .
أما ما يزعمه كايتاني من أن ما ورد في القرآن عن فقره عليه السلام دليل علي أنه لم يكن ينتمي إلي أسرة شريفة فهو، فضلا عن مجافاته حقائق التاريخ ، يجافي المنطق وواقع الحياة من حولنا ، إذ من قال إن الأسر العريقة لا بد أن تظل طول عمرها غنية جيلا بعد جيل ؟ ثم ما أكثر الأثرياء الذين يوُسَمون بأنهم « مُحْدَثو نعمة » . إن ادعاء رودنسون بأنه كان يريد الانتقام من الأغنياء لهو ادّعاء باطل ، فهو عليه السلام حين دانت له الدنيا لم ينتزع من الأغنياء أموالهم ولم يحاول أن يذلّهم كما يفعل صغار النفوس الأذلاء الذين ابْتُلُوا بعُقَد النقص ويريدون أن يداروها وراء الدعوات المثالية ، ولكنه ساوي في حبه وصداقته ودعوته التي نزلت عليه من السماء بين الغني والفقير ما دام كلاهما مؤمنا يخاف ربه وينصر دينه ويضحي في سبيله[٣٧] .

---

[٣٢] انظر مثلا مسلم / ٢ / ٣٦٩ ـ ٢٧١.
[٣٣] انظر ابن هشام / ٢ / ٢١٣ ـ ٢١٥.
[٣٤] انظر لودي / ١١٤ ، ١١٧ ـ ١١٨.
[٣٥] الرحمن / ٥٦ ، ٧٤.
[٣٦] إرفنج / ٢٩.
[٣٧] انظر في هذه النقطة إرفنج / ١٩٣.

وكما لو كان إرفنج يرد علي هذا الادعاء نراه يقول عن الرسول: « إن زواجه بخديجة قد جعله في عداد الأثرياء ، كما أنه في السنوات السابقة علي نزول الوحي لم يُبْدِ أية رغبة في زيادة ثروته . ثم أي شرف كان يسعي وراءه ؟ لقد كان مقامه بين قومه رفيعا لرجاحة عقله وطهارة ذمته . إنه من قبيلة قريش الشهيرة ، التي كان ينتمي إلي أكرم فرع فيها ، كما أن سدانة الكعبة والزعامة في مكة كانتا في أيدي أسرته» [٣٨] . كذلك فإن النبي قد زوج بناته لرجال ذوي مكانة ملحوظة في قومهم ، إذ تزوج زَيْنَبَ أبو العاص ابن الربيع، وكان شابا غنيا شريفا ، وتزوج رقية وأمَّ كلثوم ابنا عمه أبي لهب ، الذي كان من أغنياء قومه وذوي المنزلة فيهم ، وإن كانا طلقاهما بعد البعثة فتزوجهما عثمان الغني النبيل واحدة بعد الأخري ، وهو مايدل علي شرفه عليه السلام وعلو قدره بين قومه وأنه لم يكن يعاني من إحساس بالنقص تجاه الأغنياء أو الأقوياء[٣٩] . كذلك فإن الذين يَعْزُون نبوته إلي تأثير موت ذريته من الذكور(ولدا أو اثنين أو ثلاثة حسب اختلاف الروايات) يخطئون خطأ فاحشا ، فإن رسول الله لم تبدر منه كلمة واحدة تشي بضيقه من ذريته الإناث ، بل كان يحب بناته أشد الحب ، ويحب كذلك أولادهن وبناتهن ، لا فرق بين ولدٍ كالحسن والحسين ، وبنتٍ كأمامة بنت زينب . كما حمل الوحي حملة شعواء علي من يئدون بناتهم وسفّه عقولهم وتوعدهم بعذاب يوم القيامة أليم . وأشد من هؤلاء المستشرقين خطأ أولئك الذين يجعلون تهكم قريش بموت عَقِبِه من الذكور سابقا علي الوحي وسببا من أسباب توهمه عليه السلام أنه رسول يُوحَي إليه ، فإن سورة« الكوثر » ليست أول ما نزل من الوحي بل سبقتها نصوص قرآنية متعددة ، ومعني ذلك أن هذا التهكم لم يحدث إلا بعد النبوة .وهذا منطقي تماما لأنهم في الجاهلية كانوا يحترمونه ويودُّونه ، ولم يثبت أنهم آذَوْه آنذاك بشيء . إنما ابتدأ الإيذاء بعد مجيئه عليه السلام بدين جديد يسفّه عقائدهم وآلهتهم ونظامهم الاجتماعي وأحلام أسلافهم .وكذلك غير صحيح أن الرسول قد عاني من القسوة بعد موت أبويه ، فقد كان له من حنان جده ثم عمه رغم فقره ما عوّضه عن شيء غير قليل مما فقده من عطف الأب والأم . والدليل علي ذلك أننا لم نسمع من النبي عليه الصلاة والسلام ، علي رغم صراحته في الحديث عن ماضيه ورعيه الغنم وما إلي ذلك ، كلمة واحدة عن هذه القسوة المدَّعاة ، بل لم نسمعه قط يذكر هذا الماضي بشيء من المرارة . والقرآن نفسه يَمُنّ عليه بأن الله قد آواه في يتمه(الضحي/٦) . ولا يمكن لمن يفهم العربية أن يفسر هذا الإيواء والمنَّ بأنه قد قاسي في يتمه كثيرا . ويبقي من يَعْزُو رؤيته لجبريل في الغار إلي تأثير العزلة والخوف من العفاريت . وهو تفسير مضحك لا رأس له ولا ذيل ، إذ لو كان الرسول يخاف من العزلة ويحسّ لها في قلبه كل هذه الرهبة ، فما الذي كان يضطره إلي تَوَخّيها لياليَ ذاتَ عددٍ كل عام ؟ ثم لو افترضنا أنه أخطأ في البداية باللجوء إلي الغار والاعتزال فيه ، فما الذي حَدَا به إلي الرجوع إليه

---

[٣٨] المرجع السابق / ١٩٥.
[٣٩] انظر مرجليوث / ٤٥.

مـرة بعـد مرة بعـد أن وقع المحـذور وظهـرت لـه العفـاريت؟[٤٠] أم كيـف نفسر استمرار ظهور الوحي له علي مدي ثلاثة وعشريـن عاما ، وهـو في معظـم الأحيـان بين أتبـاعه وفي عز النهار، فلا عزلة ولا خـوف من عفاريت ولا إرهاق من سـهر الليالي ؟

وبالمثل فإن تفسير الوحي بأنـه عبارة عن طفو أفكاره التـي استقاها من مصـادر خارجية واخْتُزِنت في هامش الشعور (Subconscious) هو تفسير غير مقبول ، لأنه لا يقول لنا ما العلاقة بين أفكار موجودة في هامش الشعور وبين تخيل صـاحب هذه الأفكار أنه يري مَلَكًا ويسمع وحيا . إننـا جميعـا نختزن أفكـارا لا حصـر لهـا فـي هامش شعورنـا ، ومع ذلك فإنها لا تتحول فـي أبصـارنـا إلـي ملائكـة سماوية ولا فـي آذاننا إلـي أصـوات علويـة ، فضـلا عن الأعراض التـي تصـاحب هذه العمليـة والتـي سنتعرض لها في الفصل التالي[٤١].

وهَبْ أن الرسول كان فعلا كما زعم هؤلاء المستشرقون ، فهل النتيجة التي تلزم عن ذلك هي أن يتوهم أن الوحي قد نزل عليه وأنـه أصبح نبيا ؟ ألم يكن يوجد فـي مكـة وفـي الجزيرة العربية مئات علي الأقل ممن يشابهونـه في يتمه وفي فقده أولاده وكبر سن زوجته ... إلخ؟ فلِمَ لَمْ يتوهم هؤلاء أن الوحـي يتنـزل علـيهم ؟ قد يقـال: « ولكـن مسيلمة وطُلَيْحة وسجاح والأسود العنسي قد ادّعَوُا النبوة » . لكن بغض النظر عن أن ظروف كل منهم مختلفة عن ظروف الرسول فإن الرد علي ذلك سهل ، فقد ثبت كذب هؤلاء جميعا ، إذ إنهم إمّا قد أسلموا أوَّلاً ثم ادعوا النبوة ، وإمّا قد رجعوا عن ادعائهم النبوة ودخلوا في الإسـلام ، وإمـا أسلموا أوَّلا ثـم عـادوا إلـي الإسلام بعد أن ارتدوا وتنبأوا . وفوق ذلك فإن أخلاقهم ومبادئهم التي دعوا إليها تشير أجلـي إشـارة إلي أنهم كانوا كَذَبَةً أَشِرين . ليس هذا فحسب ، بل إننا أيضا نفتقد في حالتهم المقياس الخـارجي المتوفر فـي حالـة محمد عليـه الصـلاة والسلام كمـا سيأتي ذكره فـي هـذا الفصل وكما سوف نناقشه بالتفصيل في الفصل التالي.

وإذا كنا قد رأينا من خلال وقائع حياة الرسول قبل البعثـة وسمات شخصـيته أن مـن المستحيل أن يكون السبب اللاشعوري لتوهمـه(علـي حسب ادعـاء أعدائـه) نـزول الوحي عليه وأنه أصبح نبيا هو رغبته في احتياز الثروات أو السـعي وراء السلطان لتأكيد ذاتـه بين قومـه ، الذين كـانوا يحتقرونـه ويتهكمون بـه علـي زعم نفر مـن

---

[٤٠] انظر البخـاري / ٤ / ٢٠٨ ، حيث يقول إنـه عليـه السلام حين فتر عنـه الـوحي كـان يـأتي شواهق الجبال يهمّ بأن يلقي نفسه منها ، فكان جبريل يتراءي له بين السماء والأرض قائلا : أنت رسول الله ، وأنا جبريل.

[٤١] انظر في هذا التفسير / " Shorter Encyclopaedia of Islam " مادة " Muhammad ". وإذا كـان كاتـب هذه المـادة يستخدم مصطلح "Subconscious" هنـا بمعني الـ" Unconscious " فقد سبق الرد علي ذلك مفصلا .

المستشرقين[٤٢] ، فإننا نحب أن ننظركذلك في وقائع حياته وسمات شخصيته بعد أن اعتُرف به نبيا وأصبح إلي جانب ذلك زعيما لدولة أخذ نفوذها يمتد حثيثا حتي شمل الجزيرة العربية كلها عشية وفاته صلوات الله وسلامه عليه ، لنري إلي أي مدي تصدّق هذه السمات وتلك الوقائع أو تكذّب ما يدعيه هؤلاء المستشرقون.

ولنبدأ أولا بموقفه من المال . ومعروف أن النبي عليه السلام كان يحصل علي الخمس مما يحرزه المسلمون في غزواتهم من غنائم .وبرغم ذلك فإنه عليه السلام لم يكن غنيا في يوم من الأيام، وتفسير ذلك يسير جدّ يسير ، وقد شرحه صلوات الله عليه بقوله :إنه ليس له من مال المسلمين إلا الخمس، والخمس مردود عليهم [٤٣] : ينفق منه علي تجهيز الغزوات وعلي استضافة الوفود [٤٤] وعلي المحتاجين الذين لا يجدون شيئا [٤٥] وعلي إعتاق الأرقاء(بشرائهم وافتكاك رقابهم من قيود العبودية) [٤٦] وفي المساهمة في نفقات الحج لمن ليس عنده مال [٤٧] ودفع الكفارة عمن لا يملك قيمتها[٤٨] . فإذا جاءه إنسان فلم يجد ما يعطيه استنظره حتي يأتيه شيء فيعطيه منه [٤٩] . لقد كان عطاؤه كثيرا في سبيل الله وفي خدمة الإسلام [٥٠] ، ومع ذلك كان يحدث أن يأتيه ضيف فلا يجد ما يضيفه به [٥١] ، بل لقد كان الجوع يبلغ منه مبلغًا يثير شفقة أصحابه عليه[٥٢] . وعلي رغم أنه لم يحرم نفسه من طيبات الطعام إذا تاحت له ، فإن عيشته بوجه عام كانت عيشة متقشفة ، كما كان فراشه

---

[٤٢] لن أتحدث عن اتهام المستشرقين للرسول بأن الشهوة الجنسية كانت أحد العوامل وراء توهمه النبوة ، لأني سبق أن ناقشت المزاعم المتعلقة بها في الفصل السابق ، وإن جاءت مناقشتي لها هناك في إطار الشبهة التي تتهمه صلوات الله عليه بالكذب العمد في ادعاء النبوة . ويستطيع القارئ أن يجرد تلك المناقشة من إطارها وينقلها إلي الإطار الذي نتحرك في داخله الآن ، وهو إطار الشبهة الثانية ، شبهة التوهم والانخداع.

[٤٣] انظر ابن هشام / ٤ / ١٠١ ، والموطأ / ٢ / ١٤.

[٤٤] انظر مثلا ابن هشام / ٤ / ١٣٧.

[٤٥] انظر مثلا الشوكاني / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ٧٣.

[٤٦] انظر ابن هشام / ١ / ٢٠٣.

[٤٧] الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٧٠.

[٤٨] انظر « الموطأ » /١ /٢٧٨ ، و٢ / ٧٨ ، حيث ورد أن النبي دفع مائة ناقة دية مسلم وُجِد قتيلا بين مساكن اليهود من غير أن تكون هناك بينة تقود إلي القاتل فوَدَاه هو عليه السلام من ماله ، الذي هو مال المسلمين ، أو مال« الخزانة العامة »بتعبير عصرنا الحديث.

[٤٩] رياض الصالحين / ١٧٥.

[٥٠] انظر « رياض الصالحين » /١٥٣ ـ ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٨.

[٥١] المرجع السابق / ١٨١.

[٥٢] السابق / ١٧١.

خشنا [٥٣] . كذلك كان صداقه لزوجاته قليلا [٥٤] ، وكان لا يتحلي بالذهب أو يلبس الحرير أو الإستبرق [٥٥].

فهذا هو مورده من المال ، وتلك هي جهات إنفاقه . أما الصدقــة فإنه لم يمدّ يده قط إليها ، وأعلن بعبارة قاطعة أنه لا يحل لبني هاشم منها شيء [٥٦] . ورأي الحسن مرة وهو يمد يده يلتقط تمرة من تمر الصدقة فنهاه قائلا :كخ ! كخ! [٥٧] ليس ذلك فحسب ، بل إنه حرم علي بني هاشم جميعا العمل علي الصدقات[٥٨] ، بل حرم ذلك علي مولاه أبي رافع أيضا ، لأن مولي القوم ، كما قال صلوات الله عليه ، واحد منهم[٥٩] . وكان عليٌّ قليل المال حتي إنه اشتغل ذات مرة سقّاء عند بعض الناس فمَجِلت يدُه من شدّ الحبل والدلو ، وبرغم ذلك لم يحاول أن يستفيد من إصهاره للرسول ولا حاول الرسول أن يعطيه شيئا بصفة استثنائية[٦٠] .ومشهورةٌ تلك الرواية التي تحكي لنا قدوم فاطمة علي أبيها حين علمت بوصول سبي إحدي الغزوات لعل أباها يعطيها خادمًا يعينها علي متاعب أشغال المنزل وكيف عادت صفرة اليدين، وإن جَبَر الوالدُ الأمينُ خاطرَ ابنتــه بتوجيهها إلي الحرص علي مرضاة الله والإكثار من ذكره ، لأن هذا(كما بيّن لها) أفضل من أن يكون عندها خادم[٦١] . ومعني هذا أنه لم يكن يريد المال لنفسه ولا كان يجمعه لأولاده . وفوق ذلك فقد أعلن أن كل ما يتركه وراءه هو صدقة للمسلمين ، وذلك بعد استخراج نفقة نسائه ومؤنة عامله [٦٢] .وكأنما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرد بذلك علي من سيأتون بعد قرون متطاولة ويتهمونه بالرغبة في حيازة الثروات تنفيسا عما تركه الفقر بنفسه من جراح وندوب[٦٣].

---

[٥٣] انظر البخاري / ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧.

[٥٤] الشوكاني / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٦٨.

[٥٥] الموطأ / ٣ / ١١٨ ، ورياض الصالحين / ٢٣٤ ، والشوكاني / مجلد١ / ج ٢ / ص٨٠ ، ٨١ ، ومجلد ٢ / ج ٣ / ص ٢٨٣.

[٥٦] الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٢٢ ، ومجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٩ ، ٢٠ ، ورياض الصالحين / ١٨٦ ، ١٨٩.

[٥٧] رياض الصالحين / ١٠٦.

[٥٨] الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٦٤.

[٥٩] انظر الشوكاني / مجلد ٢ / ج ١٤ / ص ١٦٤ ، ١٧٤ ، ومجلد ٤ / ج ٨ /ص ٩٠.

[٦٠] انظر الشوكاني / مجلد ٣ / ج ٥ / ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

[٦١] البخاري / ٢ / ١٩٠ ، و ٣ / ٢٨٨ ، و ٤ /١٠١.

[٦٢] البخاري / ٢ / ١٨٨ ، وانظر « رياض الصالحين » /٣٥٥ ، والشوكاني / مجلد ٣ / ج ٦ /ص ٧٦.

[٦٣] لست من رأي إخواننا الشيعة في مسألة ميراث فاطمة مما تركه الرسول من مال، وإن لم يكن هذا هو المكان الملائم لمناقشة هذه المسألة . ومع ذلك فيكفي أن أشير إلي أنه لو كان صلي الله عليه وسلم يورث كغيره من الناس فما الذي منعه أن يوسّع علي فاطمة وزوجها وأولادها وهو حيٌّ من نفس المال الذي سيتركه في النهاية لهم ؟ كذلك فإني لا أستطيع أن أتصور أن أبا بكر يمكن أن يغمط فاطمة حقا لها ، ولكنه حرصه علي تنفيذ أوامر الشريعة . وفي الأحاديث الخاصة بالخلاف بين فاطمة وبينه رضي الله عنه حول هذه النقطة انظر البخاري / ٢ / ٣٠١.

فهذا عن المال وموقفه منه بعد أن جري المال أنهارا في يديه ، أما بالنسبة لتصرفاته ومشاعره وهو في قمة السلطة فإليك الحقائق التالية : لقد اشترك الرسول في معظم الغزوات ، وكان باستطاعته ، بوصفه حاكم الدولة ، أن يبقي بالمدينة دائما بعيدا عن الخطر ، مكتفيا بممارسة مهنة السياسة ، تاركا المهام العسكرية للجيش وقواده . ولكنه لم يكن طالب سلطان يسعي وراء الاستمتاع بالبقاء في دست الحكم أطول فترة ممكنة ، بل كان يبذل كل جهده للتمكين لدين الله ونشر مبادئ الحق والعدل والمساواة .ونحن نعرف مثلا ما حدث له في غزوة أُحُد بعد أن ظل يرمي بقوسه حتي انكسرت سِيَتُها ، وكيف شارك بنفسه في حفر الخندق ، مما أجج عزائم المسلمين فانطلقوا يعملون في الحفر بهمة وتَفَانٍ جاعلين اشتراك الرسول معهم موضوع رَجَزهم ، وكيف كان في مقدمة السائرين إلي تبوك ، وكانت أشد الغزوات حَرّا وإرهاقا وأطولها مسافة.

ولم يتكبر عليه السلام يوما علي أحد بالغا ما بلغت منزلته الاجتماعية من علو أو انحطاط ، فلم يُؤْثَرْ عنه أن أساء إلي مشاعر أحد من المسلمين . إنما كان لهم نِعْمَ الأخُ والأب والصديق . والمرة الوحيدة التي ذُكِر فيها ، فيما أعلم ، أنه سبّ أحدا كانت يوم حذّر الصحابة أن يذوق أحَدٌ منهم ماء من عين مَدْيَن ، فخالف اثنان من الجنود هذا التحذير[٦٤] .بل كان لا يستنكف من أن ينزل أحيانا إلي قبر فيسوّيه ثم يتناول الميت ويدفنه بيده الكريمة [٦٥] . وفي مرة أخري ماتت خادمة المسجد فلم يشأ أصحابه عليه السلام أن يخبروه ظنّا منهم أن شأن مثل هذه الخادمة لا يعنيه ودفنوها ، فلما علم بعد ذلك أنكر عليهم وذهب فصلي عليها[٦٦] . وكان يَسِمُ بيده الشريفة إبل الصَّدقة[٦٧] ، وكثيرا ما تحدث عن رعيه الغنم في صباه غير واجدٍ في الحديث عن ذلك أية منقصة ، وهذا شأن النفوس الكبيرة التي طهرها الله من عقدة النقص والدونية. وكان عليه السلام ينصت جيدا لكل من يكلمه في أمر مهما يكن شأنه[٦٨] . وقد حدث أن استوقفته امرأة بلهاء ، فوقف معها حتي قالت كل ما عندها دون أن يزعجها أو يطردها [٦٩] . كما كان يكره أن يُضْرَب الناس ليوسّعوا له الطريق كما يفعل العسكر حول الملوك [٧٠] . ومن تواضعه أنه ، وهو النبي ، صلي أكثر من مرة وراء بعض أصحابه ولم يجد في ذلك أية غضاضة[٧١] .ولم يكن عليه السلام من الجبارين ، بل إنه لم يضرب مرة خادما . وما زال أَنَسٌ ، رضي الله عنه ، حتي بعد وفاته بزمان طويل يذكر رقته المتناهية معه ، وكيف أنه لم يقل له يوما لشيء فعله لِمَ

---

[٦٤] انظر « الموطأ » /١ /١٦٠ . وانظر ، في تواضعه رغم ما حققه من انتصارات وبلغه من نجاح ساحق ، إرفنج / ١٩٩.
[٦٥] انظر مثلا الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ٨٨.
[٦٦] انظر الشوكاني / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ٥١.
[٦٧] المرجع السابق / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٥٧.
[٦٨] انظر إرفنج / ١٩٣.
[٦٩] انظر أمثلة أخري لتواضعه في « رياض الصالحين » /٢٩١ فصاعدًا.
[٧٠] الشوكاني / مجلد ٣١ / ج ٥ / ص ٤٨.
[٧١] انظر مثلا ابن هشام / ٤ / ٢٢٢.

فَعَلَه ، ولا لشيء تركه لِمَ تَرَكَه .وقد تحمل صلوات الله عليه سخافات عبد الله ابن أبي إلي أن مات ذلك المنافق الخبيث ، عطفا منه علي الضعف البشري فيه ، إذ علم من الأنصار أنهم كانوا يجهّزون له التاج ليُمَلّكوه عليهم لولا أنهم قابلوا النبي في مكة واتفقوا معه علي أن ينتقل إلي بلادهم . بل إنه عليه السلام كان يأخذ المنافقين علي ظاهرهم رغم معرفته بنواياهم ورغم ما كان يبلغه عنهم من كلام في حقه وحق المهاجرين [٧٢] . وضايقه الأعراب أكثر من مرة تعجُّلا منهم أن يقسّم غنائم الحرب في الحال ، وشدوه مرة من ردائه فلم يعاقبهم بل طمأنهم علي أنه لن يحتجن من حقوقهم شيئا لنفسه[٧٣] ، علي حين لم يشأ أن يمر تصرّفٌ أخفّ من هذا ارتُكِبَ في حق خالد بن الوليد بلا عقاب [٧٤].

ولو كان من طبعه الاستبداد والغطرسة لما شاور أحدًا من أتباعه في شيء من شؤون السلم أو الحرب ، ولما قبِل من أحد منهم أن يبدي رأيا يخالف رأيه[٧٥] . وكذلك لو كان عليه السلام طالبَ سُلْطَة لورّثها لأحد من أهل بيته [٧٦] . أكثر من هذا أنه نهي أن يُطْرِيه المسلمون كما أطرت النصاري عيسي بن مريم ، فهو ليس إلا عبد الله ورسوله[٧٧] .ومن هذا ، وهو قليل من كثير ، يثبت أن الرسول لم يسع وراء السلطة أو المال . لا ، ولم يغيره المال ولا السلطة في شيء حين بلغ منهما منتهاهما .

والآن بعد أن نسفنا نَسْفًا التفسير الذي يعزو ظاهرة الوحي المحمدي إلي « اللاوعي » يجب أن نؤكد أن الرغبات المكبوتة في« اللاوعي» (إن صحت نظرية فرويد) لا يترتب عليها أن يري الإنسان ملاكا يحمل إليه رسالة سماوية ، إذ إن الطريق الطبيعي لخروج هذه الرغبات هو انبثاقها ، علي غير إرادة من صاحبها وعن غير وعي منه ، وتسربها إلي أفكاره وتصرفاته . أما توهم رؤية ما لا وجود له فهو حالة مرضية نعيذ محمدا عليه الصلاة والسلام منها ، فقد شهد له الأعداء قبل الأتباع بالاتزان العقلي والنفسي . بل إن رودنسون نفسه يعترف له بالهدوء والاتزان والثقة واستحواذه علي إعجاب من حوله ، ويرد علي من يتهمونه بالأمراض النفسية

---

[٧٢] انظر مثلا ابن هشام / ٣ / ١٨٤ ، ١٨٥ و ٤ / ١٣٠ ، ١٤٤ ، والموطأ / ١ /١٨٥.

[٧٣] انظر ابن هشام / ٤ /١٠١ .وانظر حادثة مشابهة عند الشوكاني /مجلد ١ / ج ١ /ص ٢٨٩.

[٧٤] الشوكاني / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

[٧٥] كما حدث في تحديد الموقع الذي يصلح لأن يعسكر فيه المسلمون في غزوة بدر مثلا (ابن هشام / ٢ / ١٩٢) .

[٧٦] أما بالنسبة لما يقوله الشيعة في سبب نزول قوله تعالي « : يا أيها الرسول ، بَلِّغْ ما أُنْزل إليك من ربك... » (المائدة / ٧٦) فإن أمرا خطيرا كهذا لا بد له من نص واضح قاطع الدلالة ، فضلا عن أن توريث السلطة لعلي أو غيره يخالف مبدأ الشوري ، التي جعلها القرآن من صفات المؤمنين والتي أمر الرسولَ نفسه بالحكم بها . ثم إن عصمة الأئمة ، وهي من المفاهيم الشيعية المرتبطة بمبدإ وراثة السلطة، أمر يصادم المنطق وتجارب الحياة وطاقات البشر . بل إن الأنبياء أنفسهم لم تُكْتَب لهم العصمة إلا في نطاق تبليغ الوحي عن ربهم ، وإن لم يَعْن هذا أنهم يتساوَوْن مع غيرهم في قدراتهم الروحية والأخلاقية ، فهم قمم لا تُطَاوَل.

[٧٧] انظر البخاري / ٢ / ٢٥٦.

والعصبية[٧٨] . وهذا صحيح ، وإلا فكيف يا تري نجح هذا النجاح الساحق في دعوته وبناء دولته ؟ وكيف صنع علي عينيه هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين جندلوا أبطال فارس والروم ومزقوا دولتهم تمزيق الأسود الضواري لفرائسها ؟ ومع ذلك فإن رودنسون هذا يعود فيعقد مقارنة بين ظاهرة الوحي عند نبينا الكريم ، عليه وعلي كل إخوانه الأنبياء أفضل الصلوات والتسليمات ، وبين تريزا دافيلا ، وهي معدودة عند النصاري الأوروبيين ، والأسبان بالذات ، قديسة من القديسات[٧٩] .والحقيقة أني لا أدري كيف سوغ رودنسون لنفسه هذه المقارنة الباطلة ، إذ إن حياة هذه القديسة تشهد بما كان يضطرم في نفسها من اضطرابات وتقلبات : فهي تنحدر من أسرة نبيلة ورُبِّيَتْ تربية دينية صارمة ، وبلغ بها الحب الإلهي في إحدي فوراته أن تركت منزل أبويها مع أحد إخوتها سعيا وراء الاستشهاد علي أيدي المغاربة المسلمين ، إلا أن عمهما(أو خالهما؟) قابلهما في الطريق فأعادهما إلي البيت . ولكن بعد موت الأم انغمست هذه الساعية إلي الاستشهاد في هذه السن الغضة في حياة الاستهتار تَعُبّ من متع الدنيا لتعود فتحس بمشاعرها الدينية تستيقظ عندما وضعها أبوها تحت رعاية الآباء الأوغسطينين في التاسعة عشرة من عمرها(١٥٣٤م). ومع ذلك فقد تكررت كثيرا عودتها إلي ملذات الحياة الزائلة برغم دخولها إحدي الطرق الدينية ، إلي أن قرأت اعترافات القديس أوغسطين(١٥٥٩م) ، فثبتت قدميها علي طريق الرهبنة وانطلقت تبني أديرة للراهبات وتقوم بإصلاحات داخل الطريقة الكرملية التي كانت دخلتها من قبل[٨٠] . فها أنت ذا تري اندفاعاتها المتطرفة والمتقلبة نحو الدين مرة ثم نحو العبث والاستهتار ولذائذ الحياة الدنيا مرة ، وهكذا دواليك . كذلك ينبغي أن نتنبه لأثر الكبت الجنسي الذي خضعت له عندما ترهبت ، فإن الجنس هو إحدي الغرائز الهامة في حياتنا ، وهذه الغريزة لا بد لها من إشباع : في العلن أو في السر ، وإلا تعرضت حياة الشخص السوي للزوابع النفسية التي يمكن أن تقلب كيانه رأسا علي عقب .أما إذا كان العنصر الجنسي في تركيب الشخص خامدا فإن هذا يدل علي شذوذ تكوينه العضوي الذي لا بد أن يلقي بظله علي تركيبته النفسية . وليس بخاف علينا أن كثيرا جدا جدا من الرهبان لم يستطيعوا أن يخضعوا لهذا الحرمان القاسي الذي لم يأمر به دين سماوي فكانت لهم انحرافات منتنة بلغت حدَّ اتخاذ نفر من البابوات أخواتهم عشيقات لهم . فإذا أضيف إلي ذلك ضَعْفُ صحة هذه المرأة ، وحياة التقشف

---

[٧٨] رودنسون / ٤٩ ـ ٥٣.

[٧٩] المرجع السابق / ٧٠ . وقد عاشت تريزا دافيلا هذه من ١٥١٥م إلي ١٥٨٢م في أسبانية.

[٨٠] انظر مادة "Therêse (Ste)" في

"Dictionnaire de Biographie, d'Histoire ... "

،و كذلك مادة " St. Teresa of Avilla" في

" Miniature Lives of the Saints "

العنيف الذي كانت تمارسه ، والعداوة التي واجهتها من رجال الدين أنفسهم ، وأنها لم تكن من كبر العقل بحيث تستقل بالتفكير في أمور الدين ، بل كانت تخضع للطاعة المطلقة للقساوسة الذين يتلقون اعترافاتها ويقدمون لها النصائح[٨١] ، أمكننا أن ندرك سر تطرفها في التدين وكذلك أوهامها العجيبة مثل تخيلها أن صليب مسبحتها الذي كان قد اختُطِفَ منها ثم أُعيد إليها مصنوع من الجواهر الثمينة التي لم يكن يستطيع أن يراها مع ذلك أحد غيرها![٨٢] إن هذه الظروف التي أشرت إليها آنفا ، واعتياد هذه المرأة ضرب نفسها بالسوط ، ولبسها رداء من الشعر يؤلم جلد من يلبسه أشد الإيلام ، وغير ذلك من الأمور التي جعلت أحد القساوسة الذين يتلقون اعترافاتها يقول لزميل له: « لقد خدعَتْني حين قلت لي إنها امرأة . إنها رجل ملتح»[٨٣] ، كل ذلك يفسر لنا من تصرفاتها وشخصيتها الكثير .ومن أوهامها المضحكة أنها كانت تعزو الألم الحاد الذي كانت تشعر به أحيانا كثيرة في جنبها إلي أن مَلَكًا من الملائكة قد أتاها وطعنها في قلبها برمح سِنُّه من نار[٨٤] . وهذا الوهم وحده كفيل بتدمير ثقتنا بهذه المرأة ، فإن الملائكة بناء علي المفهوم الديني هي مخلوقات خيّرة ، فكيف يُقْدِم أحدها علي هذه الفعلة الشنعاء بإحدي القديسات؟ إن الملائكة لا تفعل ذلك إلا بالأشرار .هذا عن الكائنات الغيبية التي كانت تتوهم أنها تراها ، أما الأشياء المادية فلا يحق لأحد أن يدعي أنه يراها علي نحو غير الذي يراها عليه كل الناس الأسوياء ، ومن هنا فإننا نرفض حكاية الصليب الذي كانت تتوهم أنه مصنوع من الأحجار الثمينة والذي لم يكن يراه أحد غيرها ، اللهم إلا إذا كانت تكذب ، وهذا ممكن جدا ، فإن حياتها الماضية لا تشجع علي الاطمئنان إلي أقوالها . وعلي هذا فإننا لا نري وجها للمقارنة بين نبينا الكريم عليه صلوات الله وسلامه وبين سانت تريزا دافيلا ، إذ إن هناك ثلاث مَصَافٍ لا بد أن تمر بها حياة وشخصية أي إنسان يدَّعي أنه يوحي إليه أو يري مخلوقات من عالم الغيب : أولاها التحقق من صدقه ، والثانية التحقق من أنه لا يجوز عليه الوهم ، وثالثها أن تكون هناك أعراض مصاحبة للوحي لا يمكن تفسيرها علي أساس أنها مرض أو تصنع ، وهو ما سوف نعرض له بعد قليل . وليس في حياة هذه القديسة أي ضمان من هذه الضمانات الثلاثة . ومن وجهة التفكير العقلي المجرد فإني أري أن إيمانها بألوهية السيد المسيح ، عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام ، كافٍ وحده لرفض كل ادعاءاتها سواء كانت فعلا تعتقد فيها أو تتقولها كذبا وبهتانا ، إذ لا يمكن أبدا أن نقبل ألوهية واحد مثلنا من البشر مهما كان شأنه . إن الله سبحانه هو المطلق الذي لا يحدّه مكان ولا زمان ، ويعلو فوق الضرورات والقوانين ، ولا يمكن أن يتجسد أو يتّحد بأي شيء أو أي شخص . ومن يَقُلْ بغير ذلك لا تُقْبَل عندنا مزاعمه عن تلقي الوحي أو ظهور الرؤي له ، وبخاصة إذا كانت حياته

---

[٨١] انظر مادة"St.Teresa of Avilla " في
" Miniature Lives Of the Saints"، وكذلك مادة" Teresa" في
"Chamber's Biographical Dictionary ".

[٨٢] انظر « دائرة المعارف البريطانية / » مادة
"Teresa St .".

[٨٣] المرجع السابق / نفس المادة.

[٨٤] السابق / نفس المادة.

وشخصيته بهذا التقلب والاضطراب ، وكان عقله بهذا الضعف والتهافت ، وكان سلوكه متطرفا علي هذا النحو الخطر . فإذا وجدنا أن كلامه متناقض لا يمكن التوفيق بين بعضه وبعض كانت تلك ثالثة الأثافي . خذ مثلا قولها: « إن النفس تكون أبعد ما تكون عن توقع ظهور رؤيا ، وفجأة تظهر صورة الرب في تمامها ، مخضعةً كل الحواس ومالئةً إياها بالخوف والتوجس ، اللذين تترجمهما في التو واللحظة إلي سلام بهيج» [٨٥] ، وقابله بإجابتها علي سؤال متلقّي اعترافاتها لها : «مادمت لا تَرَيْنَ شيئا فكيف تعرفين أنه الرب ؟ » ، إذ قالت إنها لا تعرف كيف ، وإنها لم تَر وجه ، وكذلك لا يمكنها إضافة أي شيء آخر إلي ما قالته قبلا من أنها عرفت أن ربنا هو الذي تحدث إليها وأن ذلك لم يكن وهما ...أما بالنسبة للكلمات التي قالها فإنها لم تكن تسمعها حين كانت تريد ذلك ، بل في الأوقات التي لم تكن تفكر فيها وحين يكون ذلك ضروريا. « إن الإنسان لا يري شيئا لا في داخل نفسه ولا خارجها ، ولكن برغم أنه لا يري شيئا فإن النفس تفهم ما هو ذلك الشيء وأين هو أوضح مما لو رآه ... إن النفس لا تسمع أية كلمة لا من داخلها ولا من خارجها ، ولكنها تفهم بوضوح كافٍ من هو وأين هو ، وأحيانا أيضا ماذا يريد أن يقول. أما كيف وبأية وسيلة تفهم النفس ذلك فإنها لا تعرف ، ولكن هكذا الأمر...»[٨٦] .

إن التناقض واضح في هذا الكلام الذي لم يروه عنها أحد فيقال إنه غير صحيح ، بل هي التي كتبته بيدها[٨٧] . إنها تقول مرة إنها رأت وجه ربها(تقصد المسيح . أستغفر الله!) ، ومرة إنها لم تر شيئا ، ومرة إنها سمعت كلاما ، ومرة إنها لم تسمع شيئًا . لهذا كله نري ألا معني للمقارنة بين هذه المرأة وبين النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

وفي نهاية هذا الفصل نلخص ما جاء فيه حتي تتضح للقارئ خطوطه العامة فنقول : إن الوحي المحمدي لا يمكن أن يكون تعبيرًا عن رغبات اللاوعي عند الرسول عليه السلام ، فلا ماضيه قبل البعثة ولا حياته بعدها ينسجم مع هذا الافتراض ، بل هما علي العكس يصادمانه أعنف المصادمة . فإذا أضفنا أن الوحي كانت تصاحبه بعض العوارض الخارجية التي كان يراها الصحابة وقت حدوثها عرفنا أن نظرية « اللاوعي » لا تصلح لتفسير هذه الظاهرة . ولهذا السبب نري نفرًا من المستشرقين يجهد جهده للبحث عن السر وراء هذه العوارض ويتهمه بأنه كان مريضا بمرض عصبي كالصرع أو غيره . وهذا الاتهام هو محور الشبهة الثالثة ، فبعد أن ثبت أنه لا يمكن أن يكون كاذبا مخادعا ، وبعد أن ثبت أيضا أنه لا يمكن أن يكون واهما

[٨٥] انظر رودنسون / ٧٠.

[٨٦] المرجع السابق / ٧٤.

[٨٧] في كتابها. "Castillo Interior"

مخدوعًا ، نجد من يري أن هذا الوحي ليس إلا أعراض مرض من تلك الأمراض العصبية كالصرع أو الهلوسة ، وهو ما سنتناوله بالبحث والتحليل في الفصل القادم.

الشبهة الثالثة

أنه عليه السلام كان مريضا بمرض عصبى

ها نحن أولاء قد وصلنا إلي آخر سهم في جَعْبة غير المسلمين في محاولاتهم تفسير الوحي ، وهو ادعاؤهم بأنه كان مصابا بمرض عصبي . وقبل عرض هذا الادعاء بتفصيلاته ثم مناقشته علينا أولاً أن نذكر الأعراض التي كانت تصاحب نزول الوحي عليه والتي بناء عليها اتُّهم من قِبَل من لا يؤمنون به بأنه مصاب بالصرع أو غيره من الأمراض العصبية.

وهذه الأعراض المصاحبة للوحي المحمدي كما جاءت في كتب السيرة والحديث هي أنه:

١ ـ كان يسمع مثل صلصلة الجرس ، وكان ذلك أشقّ صور الوحي .وعندما كان يَفْصِمِ الوحيُ عنه كان يتذكر كل ما سمعه[١].

٢ ـ وأحيانا كان الملاك يتبدي له في هيئة رجل فيتحدث إليه[٢].

٣ـ وأحيانا أخري كان يراه علي هيئة فتي يبلّغه ما يريد الله سبحانه أن يوحيه إليه [٣] .

---

[١] انظر البخاري / ١ / ٦ ، ومسلم / ٢ / ٣٣٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧.
[٢] انظر البخاري / ١ / ٦ ، ومسلم / ٢ / ٣٣٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧.
[٣] انظر مثلا البخاري / ٢ / ٢٨٥.

٤ ـ ومن هذه الأعراض سماع صحابته مِثْلَ دَوِيّ النحل حول وجهه[٤].

٥ ـ وقد يعرق حتي في الأيام الشديدة البرد ويتلألأ العرق علي جبينه مثل حبات الجُمَان ، ويحمرّ وجهه[٥] ، وقد يربد(أي يتغير)[٦].

٦ ـ وكان يغطّ غطيطا عاليا[٧]، ويأخذه سُبَات[٨].

٧ ـ وفي مرة تصادف أن كانت فخذ زيد بن ثابت تحت فخذه ، فلما نزل علي الرسول الوحيُ شعر زيد بثقل فخذ الرسول حتي كادت فخذه هو تُرَضّ . وعندما انقشع الوحي طلب الرسول من زيد أن يكتب ما نزل عليه[٩].

٨ ـ عندما نزلت سورة « المائدة » كان عليه السلام راكبا ناقته ، وللتوّ لم يعد بمقدور الناقة أن تتحمله وكاد عضدها أن ينكسر ، فنزل عليه الصلاة والسلام عنها[١٠].

فهذه هي صور الوحي وأعراضه[١١] . وقبل أن نقابل بينها وبين أعراض الأمراض العصبية التي اتُّهم الرسول بأنه كان مصابا بها أحبُّ أن أنفي إمكانية أن تكون هذه الأخبار قد لفَّقها الصحابة أو أحد من التابعين ، إذ إن من الصعب أن يلفق أحد من هؤلاء أو أولئك أخبارا مثل هذه ينتظمها سلك واحد ، وهو أن الوحي كان يصاحبه ثقل وأن الرسول كان يعاني أثناء نزول الوحي عليه أيّما معاناة : فمن صلصلة الجرس المجلجلة إلي دوي النحل حول وجهه إلي غطيطه صلي الله عليه و سلم ، إلي ظهر الناقة الذي كاد أن ينتقض ، إلي فخذ زيد بن ثابت التي شعر كأنها ستُرَضّ . فهذه الأعراض تشير في اتجاه واحد هو أن الوحي كان شيئا ثقيلا لا علي الرسول وحده بل علي من تسوقه الصدفة إلي أن يكون جزء من جسمه تحته عليه الصلاة

---

(٤) انظر تفسير ابن كثير للآيات الأولي من سورة « المؤمنون» .
(٥) البخاري / ١ / ١٦٧ ، و ٢ / ١٤٤ ، و /٣ / ٤٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧.
(٦) صحيح مسلم / ٢ / ٤٨ ، ٣٣٠ مع الهامش.
(٧) انظر البخاري / ١ / ٢٦٧.
(٨) انظر مادة "Wahy" في
"Shorter Encyclopedia Of Islam ".
(٩) انظر البخاري / ١ / ٧٧ ، و ٢ / ١٤٣.
(١٠) انظر ابن كثير في تمهيده لتفسير سورة « المائدة» .
(١١) يمكن للقارئ أن يجد هذه العوارض في كل من"Dictionary of Islam" لهيوز(مادة "Muhammad") و " Shorter Encyclopaedia of Islam" (مادة " Wahy ") . وقد اهتم بهذه النقطة كل من المرحومين الدكتور محمد عبد الله دراز (النبأ العظيم / ٦٣ ـ ٦٤) والمفكر الجزائري مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية /١٢٦ ـ ١٣١) ، ولكنهما لم يتوسعا فيها هذا التوسع ، إذ لم يزد ما كتبه كل منهما عن أسطر معدودات . ومع ذلك فلهما فضل السبق، رحمهما الله رحمة واسعة وجزاهما خير الجزاء.

والسلام[١٢] . علي أن هذا ليس هو السبب الوحيد الذي يجعلني أصدّق هذه الروايات ، بل هناك سبب آخر جدّ مهم هو أن هذه الأعراض تخلو تماما من كل ما يمكن أن تُشْتَمَّ منه رائحةُ المدح والتمجيد ، وإلا فأي مدح في أنه كان يغطّ كغطيط النائم أو كغطيط البعير ، أو أن وجهه كان يحتقن ، أو أن جسمه كان يثقل ثقلا شديدا إلي درجة الخطورة علي ناقته وعلي فخذ جليسه ؟ لو أن المراد هو المدح لقيل مثلا إن الصحابة كانوا يرون الملائكة وهي تنزل عليه في بهائها السماوي ، وإنه كان يتلقي الوحي في يسر كما لو كان يتنفس مثلا ، وإن وجهه كان يشرق حينئذ بنور وهاج . كذلك لا يمكن أن يكون الرسول قد افتعل هذه العوارض ، إذ كيف يستطيع التحكم في إفراز العرق الغزير في اليوم الشديد البرد ؟ بل كيف توصل إلي جعل وجهه يحتقن ؟ إن هذا العارض الأخير يحتاج منه أن يوقف تنفسه تماما ، وهو ما يتعارض مع غطيطه الشديد ، وعندئذ ستنتفخ أوداجه فيكشف أصحابهُ هذه اللعبة ، إذ إنهم لم يكونوا سذّجا بل كانوا كفاءات عقلية ونفسية باهرة . ثم إنه لم يكن ليستطيع أن يجعل فخذ زيد بن ثابت تكاد أن تُرَض من ثقل فخذه عليه السلام إلا إذا اعتمد بيده علي الأرض بكل قواه .وهذا لو حدث لَلُوحِظَ علي الفور وانكشفت الحيلة ، ولكان رد فعل زيد المباشر هو دفع النبي بعيدا وتخليص فخذه من تحته . وقريب من ذلك يقال عن نخيخ الناقة من ثقل جسده عليه السلام حين نزول الوحي عليه وهو فوقها. كذلك فإن دوي النحل الذي كان يُسْمَع حول وجهه الطاهر عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون شيئا كان يُحْدِثه رسول الله بفمه وهو مُغْلِقه وإلا لتنبه الحاضرون إليه، إذ كانت العرب تعرف زمزمة فارس ، وهي شيء قريب من هذا[١٣] . ثم إن شهيقه وزفيره كانا سيتسببان في تقطيع هذا الصوت ، وهو ما لم يحدث ، إذ لم يُشر أحدٌ إلي ذلك . وبعد ، فإن هذا الثقل وهذه الأصوات تدل علي أن ثمة شيئا لم يكن في جسد الرسول ثم كان ، أي أنه كان هناك وجود آخر غير مرئي بالإضافة إلي الرسول نفسه ، فاحفظ ذلك . وفضلا عن هذا فإننا نتساءل :ما غرضه من افتعال كل ذلك ؟ إن باب التصنع والتمثيل واسع ، فما الذي يضطره إذن إلي الدخول في هذه المضايق ؟ بل كيف نوفق بين افتراض افتعاله هذه الأعراض وبين تأليف الوحي الفوري ، أي الوحي الذي كان ينزل فور توجيه أحد الصحابة سؤالا له عليه السلام ؟ كيف يا تري يقوم في نفس الوقت بالزمزمة بفمه مثلا وبالتفكير في جواب مثل هذا السؤال وصياغته هذه الصياغة الأدبية الرائعة التي عليها القرآن ؟ إنني أعرف أن أحدا من غير المسلمين لم يشك في هذه الروايات[١٤] ، ولكنني أردت بما سبق أن أرسي

---

(١٢) ويجري في هذا الاتجاه أيضا قول الرسول لواحد من صحابته أبدي ملاحظة علي كثرة انتشار الشعرات البيض في رأسه : شَيَّبَتْني « هُود » وأخواتها.

(١٣) الشوكاني / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(١٤) بل بالعكس نري كاتب مادة " Muhammad " في « دائرة المعارف الإسلامية المختصرة » يستبعد تماما أن تكون هذه الروايات قد لفقها المسلمون ، ويذكر أن هذه الأعراض العجيبة قد كانت لمن شاهدها من المسلمين دليلا قويا علي أن الوحي مصدره السماء (ص / ٢٩٣ علي الشمال) .

أساسًا صُلْبًا أقيم عليه فكرتي حتي تجيء متينة متماسكة تثبت لعواصف التشكيك والمماحكات الجدلية.

وبهذا نصل إلي ادعاءات من اتهموه بأنه كان مصابا ببعض الأمراض العصبية . ونبدأ بالصرع . والواقع أنه عليه السلام لم يُتَّهَمْ من أحد من معاصريه العرب بهذا المرض . ومع ذلك فإن هذا الاتهام قديم ، ومن أوائل من اتهمه به الكاتب البيزنطي ثيوفانيس[١٥]، ثم شاع هذا الادعاء بين الأوروبيين حتي العصر الحديث[١٦] . وفي الواقع يستطيع أي إنسان يعرف سيرة النبي عليه السلام وشخصيته أن يجزم صادقا بأنه لا يمكن أن يكون مصابًا بالصرع ، إذ لو كانت عوارض الوحي هي أعراض الصرع لكان رد الفعل التلقائي عند أصحابه أن يسارعوا فينقذوه ويمنعوه من أن يؤذي نفسه أثناء النوبة ، ولكن الذي كان يحدث هو أنهم كانوا يَدَعُونه لا يقربونه حتي ينجلي عنه الوحي فيفيق حينئذ من نفسه دون أن يكون هناك علامة فزع علي وجهه أو زوغان بصر أو معاناة ، أو أيّ شيء مما يشاهَدُ علي المصروع ساعة إفاقته من غاشيته . إن الغريب ، لو كان الرسول عليه السلام مصابا بالصرع ، أن الوحي كان يفاجئه وهو قائم أو جالس أو متوكئ علي عسيب أو راكب علي ناقته فلا يسقط علي الأرض شأن المصروعين . ثم ما الذي كان يدفعه إلي الصعود إلي غار حراء وقضاء الليالي ذوات العدد وحده هناك وهو يعرف أنه معرض لنوبات الصرع في أي وقت ويمكن أن يسقط من حالق فتُدَقّ عنقه ؟ بل ما الذي جعل خديجة الزوجة المحبة المتفانية تتركه يذهب إلي هناك معرِّضا نفسه لهذا الخطر القاتل ؟ إن ألفريد جيوم ينفي بقوة هذا الاتهام علي أساس ما كان يتمتع به الرسول من رجاحة العقل والاتزان العقلي والنفسي واتساع أفقه السياسي وصلابته في دعوته . ومن الطريف أنه ، في الوقت الذي يؤكد هذا المستشرق فيه أن دراسة الظواهر النفسية للتجربة الدينية تنسف هذا الاتهام نسفا[١٧] ، نجد أن كاتب مادة " Muhammad " في «دائرة المعارف الإسلامية المختصرة » يؤكد أن الأطباء النفسيين المحدَثين يعترفون بصحة تشخيص الأعراض المصاحبة للوحي علي أنها أعراض الصرع ، وإن سارع إلي القول عقيب ذلك بـ « أننا يجب أن ندعهم يقررون بأنفسهم طبيعة حالته بدقة »[١٨] ، متظاهرًا بذلك بالموضوعية وعدم دس أنفه فيما لا يحسنه ، مع أنه لو كان صادقا في ادعاء الموضوعية لما زعم أن الأطباء النفسيين المحدثين قد أكدوا صحة التشخيص المشار إليه ، أو لذكر لنا بصراحة أسماء هؤلاء الأطباء ، وعلي أي أساس أكدوا ذلك ، وهل عُرِضَتْ عليهم أعراض الوحي عرضا أمينا . أما قوله إننا ينبغي أن ندع هؤلاء الأطباء يقررون بأنفسهم طبيعة حالته عليه السلام بدقة فليس له من معني عندي إلا أنهم لم يقولوا شيئا ، لأنهم لا يمكن أن يكونوا قد قرروا

---

[١٥] انظر مادة " Muhammad " في « دائرة المعارف الإسلامية المختصرة» . وانظر أيضا بعض إشارات إلي ذلك عند جيوم(ص / ٥٢) .

[١٦] انظر منزيس / ٢٢٧ ، وكذلك جب / ٢٣ ود . هيكل / ٢٧.

[١٧] جيوم / ٢٥.

[١٨] ص / ٣٩٣ علي اليمين.

صحة ذلك التشخيص ، في الوقت الذي يقول فيه هو إن علينا أن ندعهم يفعلون ذلك . علي أن المسألة ليست بهذه الصعوبة المزعومة فإن المعاجم الطبية ودوائر المعارف مبذولة لمن يستطيع أن يقرأ ويفهم.

جاء في« New Medical Dictionary » لمحرريْه F. M. Margerison و A . D . Banker .في مادة: (Epilepsy) "الصرع مرض يصيب الجهاز العصبي ، ويميزه فقدان الوعي وكذلك التقلصات في كثير من الأحيان ... وهو يبدأ عادة في الطفولة ... والمصابون به هم أشخاص انفعاليون غير متزنين ، ومهيأون للتقوقع بعيدا عن الدنيا والعيش في الأوهام . وعادة ما تنشأ نوبة الصرع عن الضغط الانفعالي أو التهيج اللاإرادي.

أما عن أعراض الصرع ففي الحالات العنيفة ... تحدث النوبة فجأة ويسقط المصروع كاللوح ، وغالبا ما يؤذي نفسه أثناء ذلك إيذاءً شديدا ، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة . أما الوجه فيكون أولا شاحبا ثم ينقلب إلي الازرقاق مع انسداد مجري التنفس . وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات في الارتعاش والتشنج ، وتدور حدقتا العين، وينقبض الفك ويرتخي ، وقد يعض المصروع لسانه بقوة . كذلك ربما تبول أو تبرّز علي نفسه . وتدريجيا يروح المريض في غيبوبة فترتخي العضلات حينئذ وينام لعدة ساعات قبل أن يستيقظ في نهاية النوبة وعقله يعاني بعض التشويش . وفي بعض الحالات لا تنتهي النوبة بعد بضع دقائق بل تستمر مع ازدياد النبض وارتفاع درجة الحرارة ... وقد يحدث أن يفيق المريض ظاهرا فيمارس أموره دون أن يكون واعيا فِعْلاً بما يفعل . ومن غير المستبعد أن يرتكب مثل هذا الشخص جريمة قتل في هذه الحالة ... أما في نوبات الصرع الخفيفة فقد يغيب الوعي لبضع ثوان دون أن تصاحبه أية تقلصات . وقد يُعْرَف عن مثل هذا المريض أنه عرضة لشحوب الوجه المفاجئ وفقدان خيط الحديث . وقد يظهر عليه أنه رجع إلي حالته الطبيعية بعد بضع ثوان ، ومع ذلك فقد يرتكب هذا الشخص عملا إجراميا في هذه الثواني القليلة ، ولكنه رغم ذلك لا يُعَدّ مسؤولا عنه .وهناك الصرع الچاكسوني ... وقد تأتي نوبته علي هيئة تنميل في أصابع إحدي اليدين أو إحدي القدمين ثم ينتشر التنميل في سائر العضو . وغالبا ما يحتفظ المصاب بهذا الصرع بوعيه طوال مدة النوبة.

وبالنسبة للعلاج ، فإن الأطفال المصابين بالصرع ينبغي أن يُعْنَي بتربيتهم مع أهمية تجنيبهم عوامل القلق والخوف بأقصي ما يستطاع ... ومن الضروري أن يبتعدوا عن الأشغال التي قد يؤدي فقدان وعيهم أثناءها إلي أن يؤذوا أنفسهم أو الآخرين . ويجب أن تُخْلَع الأسنان الصناعية عند النوم . وأثناء النوبة لابد أن يُمْنَع المصروع من إيذاء نفسه بأن يُدَسّ شيء بين أسنانه حتي لا يعض لسانه....››[٩١].

---

[٩١] انظر أيضا « دائرة المعارف البريطانية » / مادتي" Epilepsy " " Epi- leptic Fit ".

ولا أظن إلا أن القارئ سوف يكتشف الآن بنفسه دون أية مشقة زيف الربط بين عوارض الوحي المحمدي وبين أعراض الصرع ونوباته ، فلا الرسول كان شخصا انفعاليا غير متزن ، ولا هو كان يتقوقع في داخل أوهامه بعيدا عن الدنيا والناس من حوله ، بل كان يشارك بكل طاقته وانتباهه واهتمامه في نشاطات الحياة راعيا ، وتاجرا ، وزوجا ، ومحاربا ، وداعيا إلي ربه ، وحاكما ، وقائدا عسكريا ... إلخ . كذلك فإنه عليه السلام لم يكن ، حين ينتابه الوحي ، يسقط كاللوح ، ولا حدث قط أن آذي نفسه أثناء ذلك ، كأن يعض لسانه مثلا . كذلك لم يكن فكُّه ولا عضلاته تنقبض وترتخي علي نحو تشنجي(ولا داعي طبعا للحديث عن التبول والتبرز) . ثم إنه لم يُعانِ قط من تشوش عقله ، ولم يرتكب مرة عملا خطيرا لا أثناء الوحي ولا بعد انقشاعه . وأيضا لم يحدث البتة أن فَقَدَ خَيْطَ الحديث وهو يتكلم مع أحد من أصحابه عند نزول الوحي عليه ، أو شعر بتنميل في أصابع يديه أو قدميه قط ، أو ارتفعت درجة حرارته حينذاك أو تسارع نبضه ، بل علي العكس كان عليه السلام يحس ببرد في ثناياه[٢٠] . أما وجهه الكريم فقد كان يحتقن حمرة(وقد يربدّ) ، ولكنه لم يزرقّ أبدا ، ولا انسد مجري تنفسه . وطبعا لم يحدث قط أن صرخ عليه الصلاة والسلام عند مجيء الوحي . وهذا من الناحية السلبية ، أما من الناحية الإيجابية فإن أعراض الوحي التي سبقت الإشارة إليها ، كصلصلة الجرس ودويّ النحل حول وجهه الشريف وثقل جسمه الشديد فجأة، لا تجد في الصرع ونوباته أي تفسير . وإذا كان الرسول ، حين مجيء الوحي ، يروح في سبات فإن هذا شيء ، وفقدان الوعي شيء آخر . ذلك أننا لا نقول عن المُغْفِي[٢١] إنه في غيبوبة أو فاقدٌ وعيه ، بل نقول ببساطة إنه راح في سبات مثلا . وفضلا عن ذلك كان الرسول ، عندما يفيق من الوحي ، يسأل عن صاحب المشكلة التي استدعت نزول الوحي ويجيبه في التوّ بما نزل عليه بلغة أدبية هي أرقي ما شهد الأدب العربي . وليس هذا أبدا شأن المصروعين . بل إنه في المرة التي نزل فيها الوحي بتبرئة أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، نجده قد أفاق وهو يضحك من البِشْر[٢٢] ، ولا يمكن أن تكون هذه حالة المفيق من الصرع.

ومن الأمراض العصبية التي اتُّهِم بها الرسول محمد عليه السلام الهستريا(الهَرَع) ، وهو مرض عقلي يصيب المعتلّي الأعصاب والمضطربي التكوين . وسببه ، كما يقول المتخصصون ، هو كبت الشخص لرغباته الجنسية في اللاشعور حيث لا تهدأ هذه الرغبات بل تتمرد حتي تجد لها متنفسا عن طريق آخر . ولهذا المرض أعراض

---

[٢٠] «الإتقان » للسيوطي / ١ / ٦٠.

[٢١] استخدمت هنا كلمتي « سُبات » و « إغفاء » تبعا لما قال بعض الصحابة عن هذا العارض عند النبي عليه السلام ، وإن كان المرحوم د . دراز قد بين أنه شيء مغاير للنوم تماما ، فإنه كان يعتريه صلي الله عليه وسلم واقفا وقاعدا وسائرا ، وكان يعروه فجأة ، ويزول عنه فجأة ، وكانت تصاحبه الأصوات التي سبقت الإشارة إليها . وهي ملاحظة سديدة منه رحمه الله انظر (« النبأ العظيم » /٦٤) .

[٢٢] البخاري / ١.

عضوية وأخري عقلية : فالأولي مثل تشنج العضلات وشلل الأطراف ، والعمي ، والصمم ، والقيء ، والرجفة ، وضياع الصوت أو الكلام ، وعجز اليد عن الإحساس بالأشياء التي تلامسها .أما الأعراض العقلية فتتبدّي في حدوث فجوات في الذاكرة ، والمشي أثناء النوم . وربما هجم المصاب أثناء تجواله علي الآخرين ، فإذا أفاق من النوبة لم يتذكر شيئا من ذلك . ومن هذه الأعراض أيضا الغيبوبة ، وتوهم رؤية أشياء أو سماع أصوات ليس لها وجود ، وكذلك ازدواج الشخصية . وربما أدت الهستريا إلي الجنون إذا كانت حادة . وقد يحدث خلط بين الهستريا(الهَرَع) والصرع[٢٣] . ولعل هذا هو السبب في أن منزيس اتهم الرسول بالمرضين كليهما[٢٤] . ونظرة إلي طبيعة هذا المرض وأعراضه تغنينا عن الرد عليه .

أما بوكيه ، وهو رجل دين بريطاني كثيرا ما يحرف الروايات ولا يعزوها إلي مصادرها ولا حتي إلي المراجع الإنجليزية التي ينقل عنها ، فهو يفسر الوحي بأنه نوع من النوبات العصبية(هكذا من غير تحديد) . وقد بحثت في

"New Medical Dictionary"

تحت عنوان " Nervous Disorder " (الاضطراب العصبي) ، وهاك ما ورد فيه:

«الاضطراب العصبي معناه الحالة التي يشكو فيها المريض من أعراض لا توجد أعراض عضوية تفسرها ، ولكن تنشأ من حالة العقل المضطربة. ويصاحبها في الغالب ضعف في الصحة ، لكن ليس إلي الحد الذي يتسبب عنه ألم أو شلل أو عجز يسعي المريض للحصول علي نصيحة طبية بشأنه . وتُسْتَعْمَل المصطلحات الثلاثة الآتية: "Neurosis و Psychoneurosis و Neurasthenia" بمعني واحد علي رغم أن الـ Neurasthenia (الإنهاك العصبي) ، وتعني ضعف الأعصاب وإنهاكها ، تقتصر في أغلب الأحيان علي الدلالة علي الإرهاق الذهني والعضوي الشديد القسوة ، مع الاكتئاب واللامبالاة والصداع والآلام غير الواضحة التي تجيء في أعقاب أنواع العدوي الحادة مثل الأنفلونزا . ويشبه الوهن العصبي (Nervous Debility)

الإنهاك العصبي ، وإن لم يكن بهذه القسوة .ويكون المريض « مرهقا » ضعيف الصحة من سوء الغذاء ، وقد يصاحب ذلك قلق غالبا ، وتنشأ حلقة مفرغة يؤثر خلالها الجسم والعقل كلاهما في الآخر . وتكون العضلات في حالة سيئة ، ولا تستجيب الدورة الدموية كما ينبغي للتغيرات التي تطرأ علي الجسم أو علي درجة الحرارة ، كما يتعرض الجهاز الهضمي بسهولة للاضطراب . والذي يحدث هو أن

---

[٢٣] انظر مادة " Hysteria " في كل من « دائرة المعارف البريطانية » و "New Medical Dictionary" .

[٢٤] منزيس / ٢٢٧.

المريض يركّز علي الأعراض العضوية فيزيد من قلقه .وكل المطلوب عادة هو تغيير الجوّ مع العناية بالصحة العامة عن طريق الأدوية المقوية والتغذية الجيدة.

وكرد فعل للاضطراب الانفعالي الشديد يمكن أن تحدث الأعراض العضوية التالية : فقد يتوقف القلب من لحظة إلي أخري أو تتزايد دقاته ، ويجف الريق ، ويحدث تشنج في الحلق وعضلات القناة الهضمية لدرجة القيء في بعض الأحيان . وكثيرا ما يكون هناك ألم في الرأس وصعوبة في التنفس وإحساس بالاختناق . وقد يسيل العرق ويحدث تنميل ورعشة في الأطراف ، ويعقب الحالة الانفعالية إحساس بالإرهاق والاكتئاب.

وفي هذا المرض يعاني المريض من بعض الانفعال الذي لا يكون واعيًا به لأنه مدفون في عقله الباطن ، وكل ما يحس به هو أعراضه العضوية . وهو يتصور أنه مريض لدرجة خطيرة أو أنه علي شفا الجنون ، ومع تزايد قلقه هذا تزداد الأعراض العضوية وضوحًا.»

وفي مادة "Neurasthenia" يذكر نفس المعجم أن هذا المرض يأتي في أعقاب التوتر العضوي الشديد والضعف الناشئ عن النزيف الدموي أو تسمم المخ بسبب سُمّيّات الحُمَّي أو التسمم البطيء من جراء تعفن الدم المزمن . ووجهة النظر الحديثة هي أن التوتر الذهني أيضا وراء هذا المرض ... إلخ . ويري القارئ كيف أن هذه الأسباب لا تتوفر منها في حالة الرسول عليه السلام ولا سبب واحد ، علاوة علي أن النوراستنيا لا تستمر ، كما يفهم من هذا الكلام ، ثلاثا وعشرين سنة هي مدة الوحي.

وتحت نفس العنوان أيضا " Neurasthenia " تذكر « دائرة المعارف البريطانية » ثمانية أعراض لهذا المرض هي : الشعور العام بالتعب الذي تصحبه حالة مختلطة من الإثارة والاكتئاب والصداع الذي قد يصاحبه الدوخان والصمم وغيام الوعي المؤقت ، وكذلك النوم القَلِق الذي لا يجلب نشاطا بل تعكره الأحلام ، وأيضا ضعف الذاكرة وبخاصة تجاه الأحداث القريبة ، وغيام الرؤية ، وصنوف الضوضاء أو طنين الأذن ، والاضطرابات المتنوعة التي تصيب الإحساس ، مثل انعدام الشعور بالألم(وهذه الاضطرابات تؤثر في ظهر اليدين علي وجه خاص ، وفي الصدر عند النساء) ، بالإضافة إلي اضطرابات مختلفة سمبتاوية الأصل ، وبخاصة البرودة في مواضع بعينها وبالذات في الأطراف ، والارتفاع المرضي في درجة الحرارة ، وتورد الخدود ، والعرق ، إلي جانب مظاهر مختلفة للاكتئاب المصحوب باضطرابات في وظائف الأعضاء.

وتنقسم النوراستنيا ، حسبما جاء في هذه المادة ، إلي أربعة أنواع : المخية والمَعِديّة والشوكية والجنسية . وهناك احتمال قوي أن ينشأ عن النوع الأول منها عدد من المخاوف المرضية(فوبيا) ، كالرعب من الزحام أو من الوحدة أو من الأماكن المغلقة أو من الاختلاط بالناس أو من الأشياء التي تسقط أو من السفر بالسكة الحديدية . كما أن ثمة احتمالات أن يظل المريض أسير سلسلة من الأفكار المترابطة

يجترها باستمرار ولا يستطيع الخلاص منها ، وبخاصة بالليل إذ يشتد إلحاحها عليه . وأحيانا ما تتسلط عليه الرغبة في العدِّ .ومثل هؤلاء المرضي يعانون من الانفعالية المسرفة والمسارعة إلي الابتهاج والحزن الشديدين . وقد يكونون ساخرين متشككين أو متشائمين أو يعكفون علي استبطان ذاتهم، ويتمركزون حول نفوسهم، ولا يستطيعون الكلام إلا عن أنفسهم أو عن أمور تهمهم هم فقط .ومع ذلك ففي كثير من الحالات تكون قدرتهم الذهنية عظيمة، إلي جانب غياب الأفكار المختلّة التي تلاحظ عند السوداويين.

وإذا قابلنا بين هذا الوصف الطبي وبين عوارض الوحي فسنلاحظ أن ثمة اتفاقا محدودا في بعض مظاهر عَرَض واحد من هذه الأعراض الكثيرة ، وهي العرق وتورد الخد(وفي بعض الروايات أن وجهه كان يتربّد) ، والإحساس بالبرودة في بعض أعضاء الجسم ، وإن ذكرت« دائرة المعارف البريطانية »أن ذلك يغلب أن يكون في الأطراف ، بينما كان الرسول يحس ببرد في ثناياه أحيانا[٢٥] . وأما طنين الأذن فهو غير الصلصلة التي لم يكن عليه السلام يحس بها دائما بل في نوبات الوحي الشديدة الوطأة فقط . بيد أن هذا ، كما قلت من قبل، لا يعدو أن يكون اتفاقا محدودا في بعض مظاهر واحدٍ فقط من هذه الأعراض الكثيرة ، وهو لا يعني شيئا بالمرة . وينبغي ألا ننسي ذلك الصوت الذي يشبه دويّ النحل والذي كان بعض الصحابة يسمعونه حول وجهه الكريم ، فهو ليس شعورًا ذاتيا يتوهمه الرسول بل هو صوت موضوعي تحسه آذان الآخرين ويميزونه بكل وضوح . وقد تقدم أن من غير الممكن أن يكون الرسول هو الذي كان يُحْدِث ذلك الصوت . وأزيد هنا أنه ليس هناك معني لمثل هذا الافتراض ، إذ ما الذي كان يقصده الرسول عليه السلام بذلك ؟ ثم ما القول في الظاهرة الأخري التي أحسها زيد بن ثابت حين ثقلت فخذ الرسول علي فخذه حتي شعر أنها ستنكسر والتي أوشكت الناقة أن تبرك تحت وطأتها لولا أن ترجّل الرسول عليه السلام عنها ؟ ثم ذلك العارض الذي كان يعروه(وسُميّ مرة سُبَاتا ومرة إغفاء ومرة سَكِينة) والذي كان الرسول يشاهِد فيه إنسانا يبلّغه كلاما بليغا يتضمن أفكارا واضحة محدّدة ، ردا علي سؤال وجه إليه من فوره أو مشكلة نجمت فاستدعت نزول ما نسميه نحن المسلمين وحيا ، هذا العارض أين مكانه هنا ؟ إن من الممكن طبعا أن يدَّعي الكافر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يزوّر الوحي مسبقا ، فإذا فاجأته هذه الحالة أبرز ما كان قد أعده من قبل من كلام . وقد قيل هذا بالفعل كما سبق بيانه ، ولكن فات زاعِمَ هذا الزعم أن معظم الوحي كان ينزل ردا علي سؤال مباغت أو حلا لمشكلة نجمت فجأة من غير أن يكون ثمة وقت لتفكير أو تجهيز كلام.
فهذا عن عوارض الوحي ، ولكن ماذا عن الأعراض الأخري لهذه الاضطربات العصبية ؟ ماذا عن الاضطراب العقلي ، والقلق ، وضعف الصحة ، وسوء حالة العضلات ، والانحراف الذي يصيب الجهاز الهضمي ، والصداع ، والاكتئاب ، والارتفاع المرضيّ في درجة الحرارة ، والدوخان ، والصمم ، والنوم القلق الذي

---

[٢٥] « الإتقان » للسيوطي / ١ / ٦٠.

تعكر صفوه الأحلام المفزعة (٣٤٥) ، والاضطراب الذي يصيب وظائف الأعضاء ، وانعدام الشعور بالألم ، وتعرض القلب أحيانا للتوقف ، والإحساس بالاختناق ، وضعف الذاكرة وبخاصة بالنسبة للأحداث القريبة ، وغيام الرؤية ، وجفاف الريق والتنميل ، ورعشة الأطراف ؟ إن تلك هي أعراض الاضطراب في الجهاز العصبي ، ومنه النوراستنيا . ومن الواضح أنه لا شيء منها ينطبق علي حالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان متزنا تمام الاتزان من الوجهة النفسية ، وكانت صحته طوال حياته جيدة تمامًا . ولم أقرأ فيما أذكر أنه شكا مرضا قبل مرضه الأخير الذي تُوُفِّيَ فيه علي رغم ما خاضه من الحروب وتعرض له من ألوان الإيذاء . كذلك كانت ذاكرته مضرب المثل في القوة ، وبصره حديدا . وكان عليه السلام ينام عادة مبكرا ، ويستيقظ في جوف الليل يصلي لربه ويتأمل في الملكوت ، ويغمره الاطمئنان الروحي ، هذا الاطمئنان الذي لازمه طول حياته ونضح علي لسانه عند صعود روحه إلي ربه ، إذ قال وهو يشير إلي السماء في ثقة وسكينة: « بل الرفيق الأعلي! ». كذلك لم نسمع أنه قاء يوما . أما بالنسبة للمخاوف المرضية (Phobias) فدونك حياة الرسول ، وهي مفصلة تفصيلا لم تُفَصَّله أية حياة أخري (إذ قد دخلت كتب السيرة والحديث وراءه حتي في غرفة النوم أحيانا) ، وأتحداك أن تضع إصبعك علي أية فوبيا في شخصيته ، أو أن تعثر علي أية فكرة كانت تتسلط عليه باستمرار فلا يستطيع أن يعيش حياته علي نحو طبيعي أو يتعامل مع الآخرين تعاملا صحيا ، أو أن تلحظ عليه أي خروج عن حد الاعتدال في أي من عواطفه أو انفعالاته . ثم إنه لم يكن ساخرا متشككا في الطبيعة البشرية ولا كان متمركزا حول نفسه واهتماماته الشخصية ، بل كان عقله ونفسه وعواطفه رحبة عميقة وسعت الكون كله والبشرية كلها لا أتباعه فقط . وأخيرا لو كان مريضا بهذا المرض العصبي أو ذاك لكان رد فعله الطبيعي هو البحث عن علاج عند أحد الكهان أو السحرة أو الحكماء(الأطباء) الذين كانت تعج بهم الجزيرة العربية ، بدل أن يظل يعاني هذه المتاعب طول حياته . ولقد رأينا قَبْلُ مِنْ صَدْقِه ما يجعلنا نستبعد تماما أنه كان يدّعي رؤية جبريل كذبا ، هذه الرؤية التي لا يمكن أن يفسرها لنا أي من هذه الأعراض . فها أنت ذا تري أننا لا بد أن ننبذ أيضا اتهامه عليه السلام بأنه كان معتل الأعصاب ، إذ إن اعتلال الأعصاب لا يُورث يقينا كاليقين الذي كان عليه الرسول طوال ثلاث وعشرين سنة هي مدة الوحي والذي لم ينل منه أي إيذاء أو مؤامرات أو حروب أو مجادلات مع أصحاب العقائد المختلفة ، وفيهم الأحبار والقساوسة الذين قتلوا الكتب المقدسة بحثا ودرسا ، هذا اليقين الذي ضَؤُلَ معه مقام كسري وهرقل والمقوقس والنجاشي وزعماء العرب في اليمن وفي الشمال فأرسل النبي الكتب إليهم

---

(٢٦) حدث وأنا أكتب هذه السطور في ليلة الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٨٥ أن استمعت في المذياع إلي الأستاذ علي عيسي في برنامجه (« سَجَا الليل » بإذاعة القاهرة) يذكر الحديث الذي يشكو فيه خالد بن الوليد إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم من الأرق ، وكيف علّمه الرسول دعاء يقوله فيذهب عنه أرقه . والشاهد هنا أن الرسول لم يكن يعاني من أرق أو اضطراب في نومه ، بل كان الصحابة يلجأون إليه إذا أرقوا ، فينصحهم من واقع حياته وتجربته الهانئة مع النوم.

يدعوهم إلي الإسلام ، هذا اليقين الذي عَنَتْ له رؤوس العرب من قادة عسكريين كخالد وعمرو ، ومن تجار أصحاب ثروات كأبي بكر وأبي سفيان ، ومن رؤساء قبائل أو حكّام علي بلادهم كعَدِيّ بن حاتم الطائي وباذان . ثم هل يمكن أن يكون معتلّ الأعصاب أو مصابا بالنوراستنيا من يحتفظ بتلك الصداقات النادرة في تاريخ العلاقات الإنسانية ؟ وإذا افترضنا أنهم كانوا يخافونه وهو معهم ، ولا أدري لِمَ كان ينبغي أن يخافوه وقد كان أعزل وحيدا فاتبعوه وساروا وراءه فقوي هو بهم ، فكيف بَقُوا طول حياتهم يحبونه ويعظمونه ؟ أكان عليّ وأبو بكر وعمر وعثمان وخالد وابن عوف وطلحة والزبير والعباس وأبو هريرة وأبو ذر وأُبَيّ وزيد بن حارثة وزيد بن ثابت وعائشة وزينب وصفية وريحانة(اليهوديتا الأصل) ومارية (القبطية) وحفصة وعشرات غيرهم من أصدقائه وأحبائه المقربين الذين كانوا يشاهدونه في كل حالاته ولا يخفي عليهم من أسراره خافية ، أكان هؤلاء جميعا عُمْيا لم يتبينوا أنه مريض ؟ أكانوا من الغفلة بحيث جازت عليهم حِيَلُه ومزاعمه ، أستغفر الله ، وفيهم أصحاب العيون الثاقبة والألسنة الجريئة والعقول التي تقلب الأمر تقليبا قبل أن تعتنقه وتدافع عنه ؟ إن المصابين باعتلال الأعصاب لا يتنبأون فتصدق نبوءاتهم ، ولا يتصدَّوْن للخرافات يهدمونها هدما ، ولا يصححون الانحرافات التي وقع فيها أصحاب الأديان السابقة فيردونهم إلي جادة الصواب ويقولون لهم إن الله واحد لا اثنان ولا ثلاثة ، وإنه رب العالمين لا رب هذه الأمة أو تلك ، وإنه صاحب السلطان المطلق والقدرة اللامتناهية الذي لا يمسه لُغُوب ، وإن البشر جميعا سواسية أمام عدله الذي لا يحده حد ، وإن الحياة ليست عبثا لا طائل تحته بل هي ممتدة إلي ما بعد الموت حيث الحساب الدقيق والرحمة للضعف البشري والانتقام من الجبارين علي أساس من المسؤولية الفردية التي تشمل نيّة الشخص وجهده وطاقته . أمن الممكن أن يكون هذا كله ، وغيره كثير ، نتاج أعصاب معتلة وعقل مضطرب ونفس مكتئبة ؟

ولا يبقي الآن إلا اتهامه بالهلوسة[٣٤٦] . وبرغم أن كاتب مادة "Hallucination " في « دائرة المعارف البريطانية » يخبرنا بأنه لا يوجد لها تعريف دقيق تماما فإننا سنأخذ بما ورد في " New Medical Dictionary" ، الذي يقول إنها تنشأ عن اضطراب عقلي يعتقد بسببه المريض أنه يري أو يسمع أو يذوق أو يشم أو يلمس أشياء ليس لها وجود . ولو أخذنا بما تقوله« دائرة المعارف البريطانية »من أن الأسوياء قد يكونون عرضة للهلوسة فلا بد أن نعرف أن ذلك مقتصر عادة علي رؤية بعض معارفهم وهم في كرب الموت مثلا رغم البعد المكاني الذي يفصل بينهم .كذلك تذكر « دائرة المعارف البريطانية » أن الأسوياء غالبا ما يتحققون في الحال أنها هلوسة ، بخلاف المختل العقل ، فإنه عندما يتكرر الهلواس يعجز عن التحقق من عدم وجوده . ويمضي كاتب المادة فيقول إن الهلواس يمكن أن يكون مثلا بصريا وسمعيا أو بصريا ولمسيا أو أكثر من ذلك في نفس الوقت ، ولكنه يعقب بقوله إن هذا نادر إلا في حالة الشخص الواقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي مثلا . ومما ورد في هذه المادة أيضا أن بعض الهلاويس يمكن استدعاؤها بالتحديق إلي سطح صقيل ،

---

[٢٧] لاحظ أنه قد اتُّهم قبل ذلك بالصرع . وانظر أيضا إرڤنج / ٢٠٠ ، ولاحظ تخبطه في الحكم علي شخصية الرسول مما يدل علي عدم اقتناعه بما يقول.

وإن لم يَعِ الشخصُ الذي يفعل ذلك أن له دخلا فيه . كذلك فإن حالات الوجد الصوفي والتركيز الانفعالي الحاد علي موضوع مثالي قد تؤدي، فيما يبدو ، إلي أن يري الشخصُ في بعض الأحيان هذا الموضوع المثالي بوضوح(٣٤٧) .
الهلوسة إذن مرض عقلي ، ولسنا في حاجة إلي أن نعيد القول بأن الرسول صلي الله عليه و سلم كان مثالا للاتزان النفسي والعقلي ، فلا اضطرابات ذهنية ولا مواجيد صوفية أو ما أشبه . ولو افترضنا أنه ، برغم ذلك ، قد تعرض مرة للهلوسة فلا شك أنه كان سيتنبه في الحال لعدم صحة ما يراه أو يسمعه . ويزيد هذا تأكيدا أنه عليه السلام أول ما نزل عليه الوحي لم يسارع بالتصديق بل ظن أنه ربما كان واهمًا وخاف علي نفسه خوفا شديدا ، واستمر ذلك فترة طويلة حتي تكرر ظهور جبريل له ونزول الوحي عليه ، وعند ذلك اطمأن . كذلك فليس ثمة خبر واحد في حياة الرسول يشير ولو من بعيد إلي أنه صلي الله عليه و سلم كان يستدعي الوحي استدعاء ، بل العكس هو الصحيح ، فقد رأيناه عليه السلام في أكثر من مرة يُسْأل فيفتي باجتهاده ، ثم يفاجأ بَعْدُ بنزول الوحي بخلاف ما قال . وعموما فإن الوحي لم يكن ينزل إلا إذا كان هناك سبب يستدعي نزوله، وهو ما يسمي في « علوم القرآن » بـ « أسباب النزول » ، مما يقطع بأن الرسول لم يكن يحاول التدخل في هذه العلمية ولو علي غير وعي منه . إن هذه الحقيقة الأخيرة كفيلة باستبعاد أن يكون الوحي بعد بدايته الأولي ، وبالذات في المرحلة المدنية ، نوعا من الهلوسة ، فإن القرآن لم يكن ينزل والرسول مركّزٌ انتباهه تركيزا انفعاليا حادا علي أي موضوع مثالي . كذلك فإن الوحي لم يتخذ يوما صورة هذا الموضوع محل التركيز ، بل كان يَنْزِل آياتٍ قرآنية تعالج المشاكل المثارة التي كانت تفاجئ الرسول نفسه في معظم الأحيان ، وتردّ علي ما يُطْرَح بشأنها من استفسارات ... إلخ . ثم إن الوحي لم يتخذ صورة واحدة بل صورا مختلفة كما سبق بيانه . أما من ناحية المضمون فإنه كان ينزل كل مرة بشيء جديد.
وبالإضافة إلي ذلك ، فإن هذه الهلوسة المزعومة لا تقدم لنا أي تفسير للظاهرة التي لاحظها من تصادف أن كان جزء من جسد الرسول فوقه ، كزيد بن ثابت ، الذي أحس بأن فخذه ستُرَضّ حينما نزل وَحْيٌ أثناء وجود فخذ الرسول فوق فخذه ، فلما انقشع الوحي زال شعوره بالثقل الباهظ الذي كان في فخذ الرسول وزال معه إحساسه بالألم العنيف ، وكالناقة التي كادت أن تُدَقّ عنقها عندما نزل الوحي عليه صلي الله عليه وسلم لولا أن ترجل من فوقها . كذلك فإن هذا الادعاء لا يفسر لنا سر ذلك الصوت الذي يشبه دوي النحل ، والذي كان الصحابة يسمعونه بوضوح حول وجهه الكريم .إن هذا الصوت لم يكن إحساسا متوهَّما ، بل كان صوتا موضوعيا له وجود خارج ذات الرسول عليه السلام ، ولولا ذلك ما التقطته آذان الصحابة . ومن ناحية أخري فإن « دائرة المعارف البريطانية » تُرْجِع الهلوسة إلي ذكريات قديمة منسية ، فكيف يمكن تفسير رؤية الرسول لجبريل(في المرة الأولي علي الأقل) مع أن من المستحيل إرجاع ذلك إلي ذكري قديمة ، أو تفسيرُ الوحي الذي كان ينزل ردّا علي

---

(٣٨) وانظر في هذا الموضوع أيضا « الموجز في التحليل النفسي » لسجموند فرويد / ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش / ١١٦.

مشاكل نشأت لتوها ولم يحدث أن وُجِدت من قبل في المجتمع العربي أو المحيط الذي كان يتحرك فيه الرسول ، كما هو الحال مثلا في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، أو مسجد الضرار ، أو صلاة الخوف ، وأشباه ذلك ، وهي كثيرة جدا ؟ بل كيف نُفَسِّر النبوءات التي وردت في القرآن وتحققت كلها ، من أول توعد أبي لهب وزوجته بالنار مما يدل علي أنهما سيموتان كافرين(وهو ما حدث بالفعل) ، مرورا بنبوءة انتصار الروم علي الفرس في بضع سنين عقب هزيمتهم الثقيلة علي أيدي هؤلاء الأعداء ، إلي وعد القرآن للمؤمنين لَيَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين وأن الله مستخلفهم وممكِّنٌ لهم دينهم وغير ذلك ؟ إن الهلوسة لا يمكن أن تفسر لنا شيئا من هذا . كذلك كيف يمكن أن تفسر لنا الهلوسة ما في القرآن من إشارات علمية يستحيل تعليلها في نطاق معارف الرسول وعصره بل وما بعد عصره بقرون(كما سيأتي بيان ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب) ؟ ثم إن العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة يختلفون حول تفسيرها هي نفسها من الناحية العضوية . تري هل يمكن أن تبني الهلوسة دينا كالإسلام قوامه تنزيه الخالق وتصويره بما يناسب جلاله وقدسيته ، ونفي عبثية الحياة وإرساء المسؤولية الفردية مع أخذ ظروف كل شخص ونصيبه من الضعف البشري في الاعتبار ؟

وبعد ، فإن هذه الادعاءات لا تؤدي إلي طائل ، فضلا عن سخفها وفسادها . وإن اضطراب غير المؤمنين بالرسالة المحمدية في توجيه الاتهامات إلي صاحبها ليوحي بأنهم قد أصمّوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم عن سماع الحقيقة ، فهم يُقْبلون علي الإسلام منذ البداية ليهاجموه ويفندوه . إن أصواتهم لتذكرنا بأصداء خافتة لأصوات مشابهة كانت تتردد في مكة علي ألسنة المشركين وفي المدينة علي ألسنة اليهود ، متهمةً محمدا مرة بأنه مسحور ، وأخري بأنه ساحر ، وثالثة بأنه شاعر ، ورابعة بأنه مجنون ، وخامسة بأنه كذاب ، غير مستقرة علي اتهام واحد ولا قادرة علي إثبات شيء مما يقولون . ومع هذا كله فقد انتهي أمرهم بالرجوع عن هذه الاتهامات والدخول في الدين الذي جاء به هذا الساحر الشاعر المجنون ، مكذِّبين بذلك أنفسهم بأنفسهم . وإني أعتقد أنه سوف يأتي اليوم الذي يحدث فيه لكفّار العصر الحديث ما حدث لرصفائهم القدامي.

الباب الثانـي
القـــــــرآن

مقارنة بين القرآن
والأديان الأخري

الذي يميز الإسلام عن غيره من الأديان هو الوحدانية المطلقة بكل معانيها . وهناك سورة كاملة في القرآن ، وإن كانت قصيرة ، نزلت لتقرير هذا المعني تقريرا حاسما جازما لا لَبْسَ فيه ولا تردد ولا مواربة:‹‹ قُل : هو اللَّهُ أَحَدٌ $ اللهُ الصَّمَد $ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكُنْ له كُفُوًا أحَد.›› [١] وهذه الوحدانية المطلقة تخالف العقائد التي كانت موجودة أيام ظهور الإسلام ، مما يدل علي أن النبي عليه السلام لم يقتبس أفكاره عن الله من أحد : فالجاهليون كانوا يرفضون تماما هذه الوحدانية ويستغربون بشدة أن يدعو محمد إلي إله واحد بدلا من آلهة متعددة « : أَجَعَلَ الآلهة إلهًا واحِدًا ؟ إن هذا لَشَيْءٌ عُجَاب $ ... $ ما سَمِعْنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختِلاق ››[٢] . ويتضح من هذه الآية الأخيرة أن مفهوم الوحدانية كان جديدًا عليهم ، فها هم أولاء يحتجون لتعدد الآلهة بأنهم لم يسمعوا بالوحدانية . وسواء أكان المقصود بـ « الملة الآخرة » هنا عقيدة النصاري في الآلهة أم عقائد الجاهليين الوثنيين فإنه يتبين من هذا النص أن « الشرك بالله » كان هو العقيدة المقررة التي درجوا عليها منذ زمن طويل:‹‹ قالوا : إنّا وجَدْنا آباءَنا علي أُمَّةٍ وإنّا علي آثارهم مُهتَدون » ، حتي إن الوحدانية ، علي بساطتها ومنطقيتها ، قد صدمتهم صدمة عنيفة واستفزتهم إلي محاربة الرسول عليه السلام ودعوته بكل طاقاتهم ، ولم يكفّوا عن هذه المحاربة الا عندما عجزوا تماما عن المضيّ فيها ، وهو ما استغرق نحو عشرين سنة منذ بداية الدعوة حتي فتح مكة.

وقد يدلّك علي مبلغ العناء الرهيب الذي قاساه الرسول في دعوة قومه إلي الله الواحد كثرةُ الآيات التي تناقشهم في مفاهيمهم الشِّرْكية ، ففي سورة « النجم » مثلا ، وهي من السُّوَر المبكرة ، نجده سبحانه وتعالي يعيب عليهم سخف منطقهم الذي يسول لهم أن ينسبوا إليه ثلاثة من أصنامهم هي اللات والعزي ومناة علي أنها بناته . يقول جل شأنه : « أفَرَأَيْتُم اللاتَ والعُزَّي $ ومَناة الثالثة الأخري ؟ $ ألكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنْثي $ تلك إذن قِسْمَةٌ ضِيزَي $ إنْ هيَ إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان .إنْ يتَّبعون إلا الظنَّ وما تهوَي الأنفسُ . ولقد جاءهم من ربهم الهُدَي $أم للإنسان ما تَمَنَّي ؟ $ فللّه الآخرة والأولي $ وكَمْ مِنْ ملَكٍ في السماوات لا

---

[١] سورة الإخلاص.
[٢] ص/ ٥- ٧ .

تُغْنِي شفاعَتُهم شيئا إلاَّ من بَعْد أن يَأْذَنَ اللهُ لمن يشاءُ ويَرْضَي $ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثي ›› [٣].
ولم يكونوا يَدَعُون أية شبهة دون أن يعضوا عليها بالنواجذ في جدالهم العقيم الذي لم يكن ينفع معه منطق مستقيم . انظر إليهم وقد جاء ذكر عيسي بن مريم عليه السلام أمامهم فإذا هم يصيحون:‹‹ أآلهتنا خير أم هو؟›› [٤] . ويرد القرآن علي هذا المنطق السخيف مبينًا بواعثهم في هذا الصياح:‹‹ ما ضَرَبوه لك إلا جَدَلاً، بل هم قَوْم خَصِمون›› [٥] . ومثل هذا المنطق الملتوي لا تفلح معه عادةً أية حجة . وعبثا يبين لهم الرسول بناء علي أمر الله أنه ‹‹ إنْ كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أوَّلُ العابدين›› [٦] ، أما عيسي فما ‹‹ هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مَثَلاً لبني إسرائيل›› [٧] . ولكن كل هذا لم يكن بالنسبة إلي عامة جمهورهم إلا صيحات في واد ، فها هو ذا القرآن في موضع آخر من السورة ذاتها يعود إلي مناقشة هذا المنطق التافه مرة أخري : ‹‹ وجعلوا له من عِبَادِه جُزْءًا . إن الإنسان لَكَفُور مُبِين $ أم اتَّخَذ مما يخلُق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ $ وإذا بُشِّر أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمن مثلا ظل وجهه مُسْوَدّا وهو كظيم $ أوَ مَنْ يُنَشَّأ في الحِلْيَة وهو في الخصام غير مُبين ؟ $ وجعلوا الملائكة الذين هم عِبادُ الرحمن إناثا . أشَهدوا خَلْقَهم ؟ ستُكتَبُ شهادتُهم ويُسألون›› [٨] . ووجه التفاهة في هذا التفكير أنهم يجعلون ذرية الله إناثا في الوقت الذي يضيقون هم فيه أشد الضيق وتسودّ وجوههم خزيًا وعارًا إذا وُلِدَتْ للواحد منهم أنثي . ولو جروا في سخفهم علي منطق مستقيم لرحبوا إذن بإنجاب الإناث بل لافتخروا بهن واستكثروا منهن . ويزداد المرء عجبا حين يري هؤلاء الذين يكرهون الإناث(وبعضهم كان يدسّهن في التراب وهن أحياء)يعبدونهن معتقدين أنهن يقربنهم إلي الله زلفي:‹‹ ما نَعْبدهم (أي الأصنام ، التي يَعُدّون بعضها إناثًا) إلا ليقربونا إلــي اللَّـهِ زُلْفَي›› [٩] .
ومهما يشرح القرآن لهم أن كل ما في الكون مخلوق لله وعبد له سبحانه وتعالي ويستطيع الله لو أراد أن يصطفي من مخلوقاته ما يشاء فإنهم لا يقتنعون ، فقد سدوا آذانهم سدا: ‹‹ لو أراد اللهُ أن يتخذ ولدا لاصطفي مما يخلق ما يشاء›› [١٠] . إنهم يكرهون الوحدانية وينفرون منها أشد النفور: ‹‹ وإذا ذُكِر الله وحده اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذُكِر الذين مِنْ دونه إذا هم يستبشرون›› [١١] . ولو أنهم كانوا صادقين في ادعائهم أنهم لا يعبدون الأصنام إلا لأنها تقربهم إلي الله زُلْفَي لاستبشروا بذكر الله الذي هو مُتَّجَهُ قلوبهم الحقيقي . من هنا نفهم لماذا يلح القرآن علي مفهوم الوحدانية ، وندرك كذلك مدي الجهد الفادح الذي كان رسولنا الكريم عليه

---

[٣] النجم / ١٩ – ٢٧ .
[٤] الزخرف / ٥٨ .
[٥] الزخرف / ٥٨ .
[٦] الزخرف / ٨١ .
[٧] الزخرف / ٥٩ .
[٨] الزخرف / ١٥ – ١٩ .
[٩] الزمر / ٦ .
[١٠] الزمر / ٤ .
[١١] الزمر / ٤٥ .

أفضل الصلاة وأزكي السلام يبذله ، فها هو ذا سبحانه وتعالي يقول في سورة « الفرقان: ‹‹ له مُلْكُ السماوات والأرض ، ولم يتخذْ ولدا ، ولم يكن له شريكٌ في المُلْكِ، وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديرا››[12] ، كما يقول في سورة« المؤمنون » : « ما اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ ، وما كان معه مِنْ إلهٍ ، إذن لَذَهَبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعلاَ بَعْضُهم علي بَعضٍ . سبحان اللَّهِ عما يَصِفون›› [13] .وعلي ما في هذه الحجة من بساطة مشرقة تقتحم العقول السليمة اقتحاما نجدهم قد أغلقوا قلوبهم علي ما فيها من ظلمات ، حتي إن القرآن ليبدئ من جديد ويعيد في هذه القضية كأنه لم يقل من قبل شيئا وكأنهم لم يسمعوا ولم يفكروا:‹‹ لو كان فيهما آلهَةٌ إلا الله لفسدتا›› [14] ، وهي نفس الحجة السابقة، وإن صيغت في عبارة مختلفة شيئا ما . وها هم أولاء أيضا يعودون إلي ترديد نفس مفاهيمهم المهلهلة :‹‹ وقالوا : اتخذ الرحمنُ وَلَدًا . سبحانه ! بل عِبادٌ مُكْرَمون $ لا يَسْبِقونه بالقَوْلِ وهم بأمره يعملون $يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضي . وهم من خشيته مشفقون $ ومن يقُل منهم : إني إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم .كذلك نجزي الظالمين›› [15] ، مما دعا القرآن إلي أن يكرر إنذاره لهم حتي يعطي من نفسه العذر قبل أن يعاجلهم بعقوبة الدنيا أو يرديهم في قرارة الجحيم: « ويُنْذرَ الذين قالوا : اتخذ اللهُ ولدا $ ما لهم به من علمٍ ولا لآبائهم .كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كَذِبا›› [16] ، وإلي أن يعيد تساؤله السابق المفحِم: «أفأصْفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قَوْلاً عظيما›› [17] .كما يأمره عليه السلام أن يقول: « الحمدُ لله الذي لم يتّخذْ وَلَدا ولم يكن له شَرِيكٌ في المُلْك ولم يكن له وَلِيٌّ من الذُلّ›› [18] وأن يكبّره سبحانه تكبيرا . ولم يكتف المشركون بذلك بل أشركوا به سبحانه الجن: « وجعلوا لله شُركاءَ الجنَّ . وخَلَقهم وخَرقُوا له بنينَ وبناتٍ بغَيْر علْم›› [19] .ويحاول القرآن مرة أخري أن يجعلهم يفكرون في تهافت ما يستمسكون به من عقائد باطلة فيقول لهم إنه « سبحانه هو الغَنيّ›› [20] ، ويسألهم « : بديعُ السماواتِ والأرضِ ، أنَّي يكونُ له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ؟›› [21] .كما أن فيه آية تتعرض لعبادة الشمس والقمر ، وهي: « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجُدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدو للهِ الذي خَلَقهنَّ إن كنتم إياه تعبدون›› [22].

---

[12] الفرقان / ٢.
[13] المؤمنون /٩١ .
[14] الأنبياء / ٢٢.
[15] الأنبياء / ٢٦ ــ ٢٩ .
[16] الكهف / ٤ـ ٥ .
[17] الإسراء / ٤٠ .
[18] الإسراء / ١١١ .
[19] الأنعام / ١٠٠ .
[20]يونس / ٦٨ .
[21] الأنعام / ١٠١ .
[22] فُسِّلت / ٣٧ .

فهذه هي عقيدة الجاهلية في الألوهية ، فمن أين استمد النبي عليه السلام مفاهيمه الصحيحة عن الله رب العالمين ، القاهر فوق عباده ، الذي يعلم السِّرّ وأخفي ، الرحمن الرحيم ، الشديد البطش ، العزيز الجبار ، السريع الحساب ، الذي لا يكلف نفسا إلا وسعها ، ذي العرش ؟ إن المستشرقين يقولون إنه قد استقاها من الحنفاء .
ومع أننا قد فندنا هذا الزعم من قبل فإننا نضيف هنا أن فكرة الحنفاء عن الله سبحانه لم تكن إلا صدًي خافتا مما أبقاه كرّ الغداة ومَرّ العشي علي مدي الأحقاب المتطاولة من ديانة إبراهيم عليه السلام ، صدي ليس فيه هذا التفصيل ولا الوضوح ولا الحضور في العقل والقلب . ولقد كان بعضهم يعظ في الأسواق فلم يُجَابَهْ بهذه الحرب الضروس التي كُتِب علي محمد عليه السلام أن يخوضها . والسبب هو أن ما كانوا يدعون إليه لم يكن بهذا الحسم والوضوح ومصادمة العقائد القديمة مثلما كان الدين الذي نزل عليه . وهذا في الألوهية فقط ، وناهيك عن دعوة العدل والمساواة ، وعقيدة الحياة الأخري والجنة والنار والحساب الدقيق لكل ذرة عملها الإنسان من خير أو شر ، والعبادات المختلفة بسماتها الفارقة لها عما في الأديان الأخري ، والحلال والحرام ، والقيم الأخلاقية النبيلة ، وقواعد الذوق المهذب في التعامل بين الناس ، والحقوق ، والحدود ... إلخ.
ومن بين الآيات المتعلقة بعقيدة التوحيد آيتان تلفتان النظر بوجه خاص هما: « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إلهٌ واحدٌ ، فإياي فارْهَبُون»[٢٣] ، و « الحمدُ للَّه الذي خلق السمواتِ والأرضَ وجعل الظُّلُماتِ والنورَ ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون»[٢٤] . وكما هو واضح فهاتان الآيتان تهاجمان عقيدة الثنوية(الزرادشتيه والمانوية) ، وهما تدلان علي أن القرآن ، كما لم يستق أفكاره في العقيدة الإلهية من مصدر عربي ، فهو لم يستقها من ديانة فارس ، التي كانت تقول بإلهين اثنين هما النور والظلمة.
فإذا انتقلنا إلي اليهودية والنصرانية فسوف نجد أن القرآن قد رد تحريفات أهل الكتاب : فأما اليهود فإن المقيمين منهم بيثرب كانوا يزعمون أن عُزَيْرًا ابن الله ، مثلما يقول النصاري إن المسيح هو ابن الله . وقد رد القرآن عليهم ، وبيّن أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شِرْكِيّ قديم: « وقالت اليهودُ : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وقالت النصاري : المسيحُ ابنُ اللهِ . ذلك قولهم بأفواهِهِم ، يُضَاهئون قول الذين كفروا من قبلُ . قاتَلَهم اللهُ أنَّي يُؤْفَكون»[٢٧] . والعجيب أن بعض المستشرقين يعدون اتهام القرآن لليهود بأنهم يقولون « عُزَيْرٌ ابن الله » سرّا غامضا يتعصّي علي الحلّ لأنه ليس في أسفار العهد القديم ما يشير إلي هذا[٢٨] ، غافلين بذلك عن نقطتين هامتين : الأولي أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يكذب أبدا ، وقد فرغنا من هذه القضية . ثم إنه لا يوجد أي داع يحمله علي اتهام اليهود بهذه التهمة باطلا . والثانية أنه لو كان محمد عليه السلام قد تقوّل عليهم ذلك تقوُّلاً لردوا عليه ولسجل القرآن حينئذ هذا الردَّ أو لأتت

---

[٢٣] النحل / ٥١ .
[٢٤] الأنعام / ١ .
[٢٥] التوبة / ٣٠ .
[٢٦] انظر جيوم / ٥٢ .

به السنة المطهرة ، وهو ما لم يحصل، فدل ذلك علي أن هذا الاتهام صحيح[٢٩] . وليس هذا هو كل ما أراد اليهود أن يشوهوا به عبثا جلال الألوهية ، فإن في العهد القديم نصوصا أشنع من هذا ، ومنها علي سبيل المثال ما جاء في الأصحاح الثاني من سفر التكوين/١ : ٣ : « فأكملت السماوات والأرض وكل جندها .وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدّسه . لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا . » وقد ردّ القرآن علي هذا التخريف قائلا: « ولقد خلقنا السمـاوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مَسَّنا مِنْ لُغُوب››[٣٠] . واقرأ كذلك هذه الآيات: « وسمعا (أي آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادي الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت››[٢٩] . وهي ، كما تري ، تصور الله كأنه واحد من البشر : فهو يمشي في الجنة نهارا ، وآدم وامرأته يسمعان صوته(ولعله كان يتنحنح ، أستغفر الله سبحانه ، علي عادة الشيوخ الكبار عندما يمشون) فيختبئان منه ، فلا يعرف الله(سبحانه وتعالي عن هذه السخافات والرذالات) أين هما ، فيُضْطَرّ إلي سؤالهما . فأين هذا مما وصف به القرآنُ المولي جل شأنه من العلم المطلق ، والإبصار والسمع اللذين يحيطان حتي بأخفي خلجات الضمائر ؟ وفي سفر التكوين أيضا وصف لمصارعة تمّت بين يعقوب عليه السلام(الذي يَنْسُب إليه العهد القديم ، كَذِبًا ، من صنوف الإفك والاحتيال والخداع الكثير) وبين الله سبحـانه لم يقدر فيها القاهر فوق عباده علي عبده يعقوب فرجاه أن يطلقه بعد أن ضربه علي حق فخذه ، فلم يطلـقه إلا بعد أن حصل علي بركته [٣٠].

ومن سفاهة اليهود ، هؤلاء الذين يزعم المستشرقون أن محمدا قد سرق جزءا كبيرا من دينه وعقيدته منهم ، قولُهم عن رب العزة صاحب الكرم والجود إن يده مغلولة : «وقالت اليهودُ : يدُ اللهِ مغلولة !غُلَّت أيديهم ، ولُعِنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان

---

[٢٧] انظر مثلا تفسير البيضاوي للآية / ٣٠ من سورة «التوبة»

[٢٨] ق / ٣٨ . ويلاحظ أن الأيام التي ذكرت التوراة أن الله قد خلق فيها السماوات والأرض هي أيام عادية كأيامنا هذه . أما القرآن فإنه قد صرح بأن « يوما عند ربك كألف سنة مما تَعُدّون » (الحج / ٤٧) ، كما تحدث عن اليوم الذي تَعْرُج فيه الملائكة والروح إليه سبحانه قائلا إن مقداره خمسون ألف سنة (المعارج /٤) . وهذا هو فرق ما بين الخرافة والعقل ، فإن الشمس والقمر لم يكونا قد خُلِقا حين ابتدأ الله خلق السموات والأرض ، ولم يكن هناك إذن ليل ولا نهار ، فكيف يكون اليوم حينئذ كيومنا ؟ ثم لماذا يتخذ الله يومنا نحن مقياسًا ونحن لم نكن قد وُجِدْنا بعد ، والأيام تختلف طولا باختلاف الكواكب وما تدور حوله من شموس ؟

[٢٩] تكوين / ٣ / ١٠٨ .

[٣٠] انظر القصة في سفر« التكوين » ٣٢ / ٢٥ – ٣١ ، و ٣٥ / ١٠٩ . وانظر كذلك "A New Commentary on Holy Scripture Including the Apocrypha, edited by Charles Gore, Henry Leighten Goudge and Alfred Guillaume " في التعليق علي الآيات / ٢٢ – ٣٢ من الأصحاح/ ٣٢ من سفر « التكوين » / ٥٨ – ٥٩ .

يُنْفِقُ كيف يشاء . ولَيزيدَنَّ كثيرًا منهم ما أُنْزل إليك من ربك طُغيانا وكفرا›› [(٣١)] ، وقولُهم عنه سبحانه أيضا: ‹‹ إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء›› [(٣٢)] . فهل قائلو مثل هذه الكُفْريّات ممن يمكن أن يُتَّهم محمد عليه السلام بأنه قد سرق منهم أفكارهم في الألوهية أو غيرها ؟ أفلو كان ذلك الاتهام صحيحا أكان الغيظ يأكل قلوبهم ويدفعهم إلي هذا الحد من التجديف وقلة الأدب مع خالقهم ، أم كان الأحري أن يتهموه مواجهة ، أو حتي في الخفاء ، بهذه السرقة؟ فلِمَ لَمْ يفعلوا إذن ؟

علي أن هذا ليس كل شيء ، فإنهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه: ‹‹ وقالت اليهود والنصاري : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق›› [(٣٣)] ، ويدّعون أنهم إذا دخلوا النار فلن يمكثوا فيها إلا أياما معدودة :‹‹ وقالوا :لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياما معدودة . قل أتَّخَذْتُمْ عِنْد اللّهِ عهدا فلن يُخْلِفَ اللهُ عهدَه أم تقولون علي الله ما لا تعلمون ؟ $ بلي ، من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئتُه فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون›› [(٣٤)] ، ‹‹ ذلك بأنهم قالوا : لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياما معدودات ، وغَرَّهم في دينهم ما كانوا يَفْتَرون›› [(٣٥)] ، وهو مفهوم سقيم عن الحساب الإلهي ، إذ يسوي بين الله وبين قضاة البشر الذين يجوز عليهم الحيف وممالأة أحد الخصمين بالباطل علي الآخر ومحاباة المجرم . وأين هذا من مفهوم الإسلام عن العدل الإلهي المطلق ؟ : ‹‹ فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيرًا يَرَه $ ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرّا يَرَه››[(٣٦)] . صحيح أن القرآن يتحدث عن عفو الله ورحمته ، ولكن هذا العفو وهذه الرحمة ليسا مقصورين علي أقوام دون آخرين، بل بابهما مفتوح لكل إنسان يريد أن يتوب.

فإذا انتقلنا إلي النصرانية ، التي اتُّهم سيد البشر أيضا بأنه قد اقتبس منها بعض عقائد دينه ، فسوف نجد أن العقيدة الإسلامية تخالف عقيدة النصاري من أساسها . فبينما يقول النصاري إن الله ثالث ثلاثة ، وإن عيسي هو ابن الله ، وإن الأقنوم الثالث هو الروح القُدُس(وإن كان بعضهم يضع مريم بدل الروح القُدُس) ، وإن عيسي عليه الصلاة والسلام قد صلبه اليهود ، وإن صلبه كان كفارة للخطيئة الأصلية ، خطيئه آدم التي أُخْرج بسببها من الجنة ، نري القرآن ينفي هذا كله ولا يعترف به ، ويري في عصيان آدم رأيا آخر تماما.

فالله في الإسلام هو واحدٌ أحَد ، ويستحيل بمقتضي كونه إلها أن يكون اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، وكل من في السماوات والأرض إنما هو عبد الله خلقته يداه الكريمتان ، سواء في ذلك عيسي عليه السلام أو روح القُدُس أو أي مخلوق آخر صغر شأنه أو كبر: ‹‹ قل : هو اللهُ أحدٌ $ الله الصَّمَد $ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفُوًا أحَد›› [(٣٧)] ،

[(٣١)] المائدة / ٦٤ .
[(٣٢)] آل عمران / ١٨١ .
[(٣٣)] المائدة / ١٨ .
[(٣٤)] البقرة / ٨٠ .
[(٣٥)] آل عمران / ١٤ .
[(٣٦)] الزلزلة / ٧- ٨ .
[(٣٧)] سورة ‹‹ الصَّمَد ››

«وقال الله : لا تَتَّخذوا إلهين اثنين . إنما هو إلهٌ واحد ، فإياي فارْهَبون›› [٣٨] ، « وقالوا : اتَّخَذَ الرحمنُ ولدًا $ لقد جئتم شيئا إدّا $ تكاد السماوات يتفطَّرْن منه ، وتنشقُّ الأرض ، وتخِرُّ الجبالُ هدّا $ أن دَعَوْا للرَّحمن وَلَدا $ وما ينبغي للرحمن أن يتَّخذَ وَلَدا $ إنْ كلُّ من في السماوات والأرض إلا آتِي الرَّحْمنِ عَبْدا››[٣٩] ، « إن هو (أي سيدنا عيسي عليه وعلي نبينا أزكي الصلاة وأفضل السلام) إلا عَبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مَثَلاً لبني إسرائيل›› [٤٠] . ومن هنا يكفّر القرآن من يقول إن الله ثالث ثلاثة . وهو يرتكز في نفي هذا التثليث ، كما ارتكز في نفي التثنية ، علي بدهية عقلية هي أن الله يستحيل أن يكون إلا واحدا: « لقد كفر الذين قالوا : إن اللَّـهَ ثالثُ ثلاثةٍ . وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحد››[٤١]، ويدعو من يقول بالتثليث إلي نبذ هذه العقيدة الوثنية: « ..لا تقولوا : ثلاثة . انْتَهُوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السموات وما في الأرض ، وكفي بالله وكيلا » ، ثم يمضي قائلا « : لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبدًا للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبُون››[٤٢] . وهو في هذه الآية الأخيرة يشير إشارة سريعة إلي اعتقاد النصاري في روح القُدُس بوصفه ثالث الثلاثة في الثالوث الذي يؤمنون بأن إلههم يتكون منه . إن عيسي عليه السلام وكذلك روح القدس ليسا إلا عبدين من عباد الله ، ومثلهما مريم عليها السلام: « وإذ قال اللهُ : ياعيسي ابنَ مريم ، أأنت قلتَ للناس : اتخِذوُني وأُمّيَ إلهَيْن مِنْ دُونِ الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكونُ لي أن أقول ما ليس لي بِحَقّ . إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمتَه . تعلم ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِك . إنك أنت علاَّمُ الغُيُوب $ ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَني به : أن اعْبُدُوا اللَّهَ ربِّي وربكم ، وكنتُ عليهم شهيدًا مادمتُ فيهم . فلما توفيتَني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم . وأنت علي كل شيء شهيد››[٤٣].

إن عيسي عليه السلام ليس إلا رسولا ، وأمه صِدِّيقة . وما أجمل وأعمق وأوجز وأوعي قوله تعالي عنهما في الآية الكريمة التالية: « ما المسيحُ بنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خلت من قَبْلِهِ الرسلُ ، وأمه صدِّيقة . كانا يأكلان الطعامَ . انظر كيف نُبيّنُ لهم الآيات ، ثم انظر أنَّي يُؤْفَكُون! ››[٤٤] والمعني : ألا تفهمون ؟ لقد كانا يأكلان الطعام(بكل ما لهذه العبارة من أبعاد) ، أي أنهما كانا يحتاجان إلي الطعام ويحتاجان بعد هضم هذا الطعام إلي تصريفه . وفي هذا الكفاية.

وإذا كان النصاري يستندون إلي الميلاد الإعجازي لعيسي عليه السلام كحجة علي أنه ابن الله ، فإن القرآن يردّ بأن عيسي إن كان قد وُلِد من غير أب فإن آدم قد خلق من غير أب ولا أم: « إنّ مَثَلَ عيسي عند الله كَمَثَلِ آدمَ . خلقه من ترابٍ ، ثم قال له :كُنْ ، فيكون›› [٤٥] . فانظر كيف يزن القرآن الأمور بميزان الذهب . إنه لا ينكر

---

[٣٨] النحل / ٥١ .
[٣٩] مريم / ٨٨ – ٩٥ .
[٤٠] الزخرف / ٥٩ .
[٤١] المائدة / ٧٣ .
[٤٢] النساء / ١٧٢ .
[٤٣] المائدة / ١١٦ – ١١٧ .
[٤٤] المائدة / ٧٥ .
[٤٥] آل عمران / ٥٩ .

ولادة عيسي المعجزة ، ولكنه لا يرتب عليها له أية ألوهية أو بنوة لله لأنه لا صلة قط بين الأمرين . وقد كان في استطاعة محمد عليه السلام ، لو كان هو مؤلف القرآن ، أن يريح نفسه من هذه المتاهة وينفي مع ألوهية المسيح ولادته الإعجازية ، ولكنه لم يفعل . ثم لم يكتف بهذا بل نفي عن مريم عليها السلام ما افتراه اليهود عليها ، وعدّ ما يقولونه عن عِرْضها الشريف كفرا وبهتانا عظيما ، وجعله من بين الأسباب التي استوجبت أن يحرم الله عليهم بعض ما كان أحل لهم من طيبات [٤٦].

والقرآن لا يعترف لعيسي عليه السلام بولادته المعجزة فحسب بل يعترف له أيضا بأنه تكلم في المهد وأنه(بعد أن أصبح نبيا) كان يخلق الطير وينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ، ويبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتي بإذن الله ، وينبئ قومه بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم . ولكنه لا يرتب علي هذا أن يكون عليه السلام شيئا آخر غير أنه رسول من عند الله رب العالمين ، وإلا فليس عيسي هو الرسول الوحيد الذي أيده الله بالمعجزات . ومن أعجب العجب ، لو كان من يكفرون بمحمد ورسالته يتدبرون ، أن رسولنا عليه السلام لم ينكر مرة وقوع المعجزات علي أيدي سابقيه من الأنبياء برغم تكرار تحدي المشركين واليهود له أن يأتيهم بمعجزة وردَّه عليهم أنه ليس إلا بشرا رسولاً . لقد كان بمقدوره أن ينفي وقوع المعجزات من أي رسول قبله ، وعلي من يجادله أن يثبت العكس [٤٧]، وهو مستحيل . ولكنه عليه السلام لم يفعل ، فما دلالة ذلك ؟

وكما نفي القرآن أن يكون عيسي إلها أو ابنًا للإله نفي أيضا أن يكون عليه السلام قد صُلِب أو قُتِل بأية طريقة أخري ، وأكد أنه قد شُبِّه لهم : « وما قتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبِّه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لَفِي شك منه .ما لهم به من علم إلا اتّباع الظنّ . وما قتلوه يقينا $ بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما›› [٤٨].

والقرآن حين يؤكد أنه عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصْلَب فليس ذلك لأن محمدا عليه السلام ، كما زعم بعض المستشرقين ، قد استبشع هذه النهاية ورأي أنها لا تليق أن تقع لرسول من رسل الله ، فقد سجل القرآن علي اليهود أنهم « كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق›› [٤٩] . فلو كان ما زعمه هؤلاء المستشرقون صحيحا فلمَ لَمْ يَنْفِ وقوع القتل علي أيّ من الأنبياء ؟ إذن فالمسيح لم يُقْتَل ولم يُصْلَب ولم يَفْدِ بصلبه البشر ، لأن القرآن لا يعترف أصلا بوراثة الخطيئة ، إذ « ليس للإنسان إلا ما سعي›› [٥٠] .

---

[٤٦] انظر الآيات / ١٥٥ – ١٦٠ من سورة «النساء»

[٤٧] انظر مثلا مادة " Miracles " في معجم الفيلسوف الفرنسي الشهير ڤولتير : "Philosophical Dictionary" ، ونفس المادة وكذلك مادة "Hume" في " Dictionary of philosophy" لـJennifer Speake تَرَ كيف أن كثيرا من الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين ، رغم أنهم من بيئة نصرانية تؤمن بالمعجزات إيمانًا مطلقا ، لا يؤمنون بوقوع شيء منها . ومنهم ڤولتير وكذلك ديڤيد هيوم ، الذي أفاض القولَ في شرح رأيه في هذه القضية د . زكي نجيب محمود في كتابه عنه ، وهو ما يبين لك كيف أنه كان من السهل علي سيدنا رسول الله ، لو كان مخادعا ، أن ينفي وقوع أية خوارق علي يد أي إنسان .

[٤٨] النساء / ١٥٧ – ١٥٨ .

[٤٩] انظر الآية /٦١ من سورة « البقرة » ، و الآية / ١١٢ من سورة « آل عمران »

[٥٠] النجم / ٥٠ .

وفضلا عن ذلك فإن القرآن يقرر في أكثر من موضع أن الله سبحانه وتعالي قد تاب علي آدم بعد أن استغفره عليه السلام . ثم إن العقوبة قد وقعت بخروجه هو وأمنا حواء من الجنة : « وقلنا : يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها حيث شئتما ، ولا تَقْرَبا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين $ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عَدُوّ ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلي حين $ فتلقَّي آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » ، و « قالا (أي آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المحرمة) : ربنا ، ظَلَمْنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكُنْ من الخاسرين››[51] . فمن هذا كله تري ألا معني لعقيدة الخطيئة الأصلية وتكفير المسيح(الذي هو ابن الله علي ما تقول به هذه العقيدة) عن البشر خطيئتهم بموته علي الصليب . والطريف أنه ، برغم ما يعتقده النصاري في المسيح وأنه الإله أو ابن الإله وأنه جاء ليفدي البشر من خطيئة أبيهم آدم بالموت علي الصليب ، نري الإنجيل يقول في صلب المسيح المزعوم: ‹‹ وكان المجتازون يجدّفون عليه (أي علي المسيح وهو علي الصليب) وهم يهزون رؤوسهم قائلين : يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام ، خلّصْ نفسك إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب .وكذلك رؤساء الكهنة أيضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا : خلَّصَ آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها . إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به . قد اتكل علي اللـه فلينقذه الآن إن أراده . لأنه قال :أنا ابن الله . وبذلك كان اللصان اللذان صُلِبا معه يُعَيِّرانه›› [52] .ولو كان عيسي عليه السلام قد جاء ليموت علي الصليب ويفدي البشر لكان جوابه علي هذا الاستهزاء أن الله لن ينقذه مما هو فيه وإلا لضاع معني مجيئه إلي العالم . أما رده عليه السلام علي حسب رواية الإنجيل فهو آخر شيء يمكن أن يرد علي الخاطر . ولنستمر في القراءة : ‹‹ وفي الساعة السادسة كانت ظلمة علي الأرض إلي الساعة التاسعة . ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إيلي إيلي ، لما شبقتني ؟ أي إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟ ›› [53] ، وهو ما يفيد قطعا أنه لم يكن يتوقع أن يتركه الله يموت هذه الميتة البشعة . أما إنجيلا يوحنا ولوقا فإن روايتيهما تختلفان عن هذه الرواية ، وهو ما يدلك علي عدم التزام تلك الكتب بالوقائع التاريخية . ومعروف أن هذه الأناجيل قد كُتِبَتْ بعد المسيح عليه السلام بعشرات السنين ، ولم يُتنخَّل ما ورد فيها كما تنخل جامعو السنة النبوية أحاديث الرسول عليه السلام ، التي هي مع ذلك لا تبلغ مرتبة القرآن أبدا من حيث الدقة والوثاقة.

فإذا جئنا إلي ما يقوله الكتاب المقدس عن الأنبياء وجدنا عجبا . انظر مثلا ما يقوله عن نوح عليه السلام: ‹‹ وابتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعري داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه علي أكتافهما ومشيا إلي الوراء ، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلي الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم

---

[51] البقرة / ٣٢ – ٣٧ .

[52] إنجيل متي / ٢٧ / ٣٩ – ٤٤ .

[53] نفس الأصحاح / ٤٥ – ٤٦ ، وانظر كذلك مرقس / ١٥ / ٢٩ – ٣٧ .

ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعونٌ كنعان . عَبْدَ العبيد يكون لإخوته . وقال : مباركٌ الربُّ إلهُ سام ، وليكن كنعان عَبْدًا لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم›› [٥٤] . إن من الصعب أن يفهم الواحد منّا سبب لعن نوح لابنه كنعان ، الذي وقع نظره عليه وهو عريان دون قصد ، إذ إن نوحا هو الذي سكر وتعري(وهو ما لا يصدق العقل وقوعه من نبي) ، فهو المسؤول إذن عن ذلك لا كنعان .وانظر كذلك ما يقوله الكتاب المقدس عن لوط عليه السلام: « وصعد لوط من صوغر ، وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه .وقالت البِكْر للصغيرة :أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلمّ نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا .فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ، ودخلت البِكْر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث في الغد أن البِكْر قالت للصغيرة :إني قد اضطجعت البارحة مع أبي .نسقيه خمرًا الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما›› [٥٥] .إن الإنسان ليسد أنفه وهو يقرأ هذه النتانات . أما يعقوب عليه السلام فيصوره الكتاب المقدس غشاشا كذابا محتالا ، ويتفنن في وصفه وقد لبس جلود جَدْيَي المعزي ليوهم أباه الضرير(سيدنا إسحاق عليه السلام) أنه عيسو لا يعقوب ليحصل علي البركة التي وعد بها أبوه أخاه عيسو . والعجيب أن الحيلة تنجح ويحصل يعقوب زورا وبهتانا علي البركة ، ولا ينفع في هذا اكتشاف الأب للحيلة الدنيئة ، وكأن البركة ليست من الله أوكأنه سبحانه لا يعرف الحقيقة [٥٦] . أما داود عليه السلام فيقول عنه الكتاب المقدس إنه وقع نظره ، وهو يمشي فوق سطح قصره ، علي امرأة أحد قواده وهي تستحم في فناء بيتها المجاور للقصر ، وكانت رائعة الجمال ، فأرسل إليها «وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها.» ولم يكتف داود بهذا بل دبر مؤامرة تخلص بها من زوجها [٥٧] .وعندما شاخ داود وأراد عبيده أن يدفئوه في شيخوخته ، التي لم ينفع معها تدثيره بالثياب ، قالوا له : ليفتّشوا لسيدنا الملك علي فتاة عذراء، فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ، ولتضطجع في حضنك فيدفأ سيدنا الملك›› [٥٨] .وقد اتُّهِم يهودُ المدينة سيدَنا سليمان بالسحر [٥٩] . ثم هناك «نشيد الأنشاد » المنسوب له عليه السلام بما فيه من عهر وحرقات جنسية . أما القرآن فقد طهر الأنبياء جميعا عليهم السلام من كل دنس ورجس ، وصوَّرهم كما كانوا في الحقيقة مُثُلاً عليا ومنارات للخُلُق الكريم المطهر . فهل يصح أن يقال بعد هذا كله إن القرآن قد سُرِق من كتب اليهود والنصاري ؟

---

(٥٤) تكوين / ٩/ ٢٠ – ٢٧ .
(٥٥) تكوين / ١٩ / ٣٠ – ٣٦ .
(٥٦) انظر « تكوين » / ٢٧ كله .
(٥٧) انظر « صموئيل الثاني » / ١١ كله .
(٥٨) الملوك الأول / ١ / ١- ٤ .
(٥٩) البقرة / ١٠٣ .

فها نحن أولاء نري أن القرآن لم يستلهم عقيدته من عرب الجاهلية أو من الحنفاء أو من ثنوية فارس أو من أفكار اليهود عن الله أو من ثالوث النصاري ، وإن لم يمنع ذلك أن تكون هناك بعض النقاط المتفقة مع بعض ما عند أهل الكتاب مما لم يصبه التحريف . وتفسير الإسلام لهذا الاتفاق هو أن التوراة والإنجيل والقرآن جميعًا من عند الله ، غير أن الكتابين الأولين قد أصابتهما يد التحريف فجاء القرآن ليصحح مادخلهما من تحريفات ، أما ما ظل علي حاله من غير تحريف فإن الإسلام لا يخالفه لأنه من عند رب العالمين .

فهذا عن العقيدة . فإذا جئنا إلي التشريع وجدنا أن القرآن قد أبقي ما هو خير ونَبَذ ما لم يعد صالحا للبشرية بعد أن بلغت الطور الذي وصلت إليه في أيام الإسلام ، أو ما انتهي الغرض منه ، أو ما استتبعته الخرافات الوثنية من عادات وتقاليد.

فالعرب في الجاهلية كانوا يقدمون القرابين إلي أوثانهم ، وكانت هذه القرابين تشمل أبناءهم . وقد حرموا بعض الحيوانات والزروع إلا علي ناس مخصوصين ، كما حرموا ركوب حيوانات أخري ، ومنعوا ذكر اسم الله علي نوع ثالث منها ، فجاء الإسلام ونسف كل هذا « : وجعلوا لِلّه مما ذَرَأَ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيبا ، فقالوا : هذا لِلَّه ، بِزَعْمِهم ، وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلي اللّه ، وما كان لِلَّه فهو يَصِلُ إلي شركائهم . ساء ما يحكُمون $! وكذلك زَيَّن لكثير من المُشْركين قتْلَ أولادِهم شُرَكاؤهم ليُرْدُوهم ولِيَلْبِسُوا عليهم دِينَهم . ولو شاء اللهُ ما فعلوه ، فَذَرْهم وما يَفْتَرُون $ وقالوا : هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لا يطْعَمُها إلا من نشاء ، بِزَعْمهم ، وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظهورُها ، وأنعامٌ لا يذكرون اسم اللّهِ عليها افتراءً عليه . سيَجْزيهم بما كانوا يَفْتَرون $ وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لِذكورنا ومحرَّمٌ علي أزواجنا ، وإن يَكُنْ مَيْتَةً فهم فيه شركاء . سيَجْزيهم وَصْفَهم ، إنه حكيم عليم $ قد خسِر الذين قتلوا أولادَهم سَفَهًا بغير علم وحَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ افتراءً علي الله . قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين›› [٦٠] ، « ما جعل اللهُ من بَحِيرِة ولا سائبة ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ، ولكن الذين كفروا يَفْتَرُون علي الله الكذبَ ، وأكثرهم لا يعقلون››[٦١] ، « إنْ يدْعُون من دُونِه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مَرِيدًا $ لعنه اللهُ ، وقال : لأتَّخِذَنَّ من عبادِك نصيبا مفروضا $ ولأُضِلَّنَّهم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فليُبَتِّكُنّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهم فَلَيغَيرُنّ خَلْقَ الله . ومن يتّخِذِ الشيطانَ وليّا من دون الله فقد خَسِر خُسْرانا مُبِينا››[٦٢] .

وفي مجال العبادة (ولنحصر أنفسنا في الحج وحده كمثال فقط) فإن الإسلام قد طهّر الكعبة من الأوثان ومتعلقاتها ، وحرم أن يطوف أي مشرك أو عريان بالبيت بعد العام الذي نزلت فيه سورة« براءة »، وأوجب علي المسلمين أن يُفِيضوا جميعا من مكان واحد حتي يقضي علي العنجهية التي كانت تسول لبعض القبائل أن يتفردوا بمكان مخصوص يُفِيضون منه وحدهم: ‹‹ يا أيها الذين آمنوا ، إنما المشركون نَجَسٌ

---

[٦٠] الأنعام / ١٣٦ – ١٤٠ .

[٦١] المائدة / ١٠٣ .

[٦٢] النساء / ١١٧ – ١١٩ .

، فلا يَقْرَبوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا›› (٦٣)، ‹‹ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس››(٦٤) . كما أبطل التقليد السخيف الذي كان يتبعه بعض أهل المدينة عند عودتهم من حجهم ، فقد كانوا لا يدخلون دارا ولا فسطاطا من بابه ، ولكن من نقب أو فرجة من الخلف ، ظانين أن هذا من البِرّ: ‹‹ وليس البِرُّ بأن تأتوا البيوت من ظُهورها ، ولكنَّ البرَّ من اتقي . وأتوا البيوتَ مِنْ أبوابها››(٦٥) . كذلك وضع الإسلام نهاية للنَّسِيء، الذي كان عرب الجاهلية يلجأون إليه إذا كانوا في حرب وأتي عليهم شهر من الأشهر الحرم ، إذ كانوا يستمرون في الحرب ويعوضون هذا الشهر بشهر آخر ليس من الأشهر الحرم ، مفسدين بذلك حكمة هذه الأشهر ‹‹ : إنما النَّسِيءُ زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يُحِلُّونه عاما ويُحَرّمونه عاما ليُواطئوا عِدَّة ما حرَّم اللهُ فيُحِلّوا ما حرّم الله . زُيِّن لهم سوءُ أعمالِهم ، والله لا يَهْدي القومَ الكافرين››(٦٦) .

وقد كان النساء في الجاهلية يُحْرَمْن من الميراث ، فجاء الإسلام وجعل لهن في الميراث نصيبا مفروضا ، مثلهم مثل الرجال سواء:‹‹ لِلرِّجالِ نصيبٌ مِمّا ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيبٌ ممّا ترك الوالدان والأقربون مما قَلَّ منه أو كَثُر ، نصيبا مفروضًا››(٦٧) ، ووزع الميراث علي نحو لم تعرفه الجاهلية بل ولا الأديان السابقة . وكان الرجل في الجاهلية إذا مات عن امرأة وله عصبة ألقي هذا ثوبه علي المرأة قائلا:‹‹ أنا أحق بها ›› ، ثم إذا شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوجها غيره . كذلك كان الواحد منهم يتزوج بامرأة أبيه ، فجاء الإسلام وحرم كل ذلك: ‹‹ يا أيها الذين آمَنوا ، لا يَحِلُّ لكم أن تَرِثُوا النِّساء كَرْهًا›› (٦٨)، ‹‹ ولا تَنْكِحوا ما نَكَحَ آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَف . إنه كان فاحشةً ومَقْتًا وساء سبيلاً›› (٦٩) .كما حرم صُوَرًا أخري من الزواج غير القائم علي التراضي من الطرفين مما لا تقبله النفوس الحرة الكريمة ، وهو ما فصّلته السنة المطهرة . كذلك وضع الإسلام حدا لوأد البنات وجعله من أفظع الشُّنَع: ‹‹ وإذا الموؤودةُ سُئِلَت(أي يوم القيامة) $: بأيِّ ذَنبٍ قُتِلت؟ ›› (٧٠) .

وقد كان القمار والخمر من مفاخر العرب ، وما أكثر القصائد التي يتمدّح فيها شعراؤهم بإراقة الأموال عليها ، فجاء الإسلام فحرمها بتاتا:‹‹ إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تُفْلحون›› (٧١) .

وكانت الثروة هي أساس التفاضل بين الناس ، كما كان للعصبية الجنسية والقبلية سلطان قاهر ، فقضي الإسلام علي هذه المفاهيم المتدنية:‹‹ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرِّبكم عندنا زُلْفَي إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضِّعْف بما

---

(٦٣) التوبة / ٢٨ .
(٦٤) البقرة / ١٩٩ .
(٦٥) البقرة / ١٨٩ .
(٦٦) التوبة / ٣٧ .
(٦٧) النساء / ٧ .
(٦٨) النساء / ١٩ .
(٦٩) النساء / ٢٢ .
(٧٠) التكوير / ٨ – ٩ .
(٧١) المائدة / ٩٠ .

عملوا ، وهم في الغرفات آمنون›› [٧٢] ، ‹‹ يا أيها الناسُ ، إنا خلقناكم من ذكَرٍ وأنثي ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لِتَعَارَفوا . إن أكْرَمَكم عند اللّهِ أتقاكم . إن اللهَ عليم خبير ››[٧٣] . كما كانت قبيلة القاتل تؤخذ بجريرته ، فهدم القرآن هذا وأقام مكانه مبدأ المسؤولية الفردية:‹‹ ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخري››[٧٤].

فإذا انتقلنا إلي عبادات أهل الكتاب فسنري أن الإسلام قد أتي بما يخالفها ، فهو مثلا قد ألغي القرابين التي كانت تُقَدَّم لله. كما وضع حدا لوساطة الكاهن أو القسيس وأصبح المسلم مرتبطا ارتباطا مباشرا بربه ، سواء في عبادته أو في التكفير عن سيئاته . ومن هنا فليس في الإسلام شيء اسمه ذبيحة إثم مثلا أو ذبيحة سلامة أو ذبيحة خطيّة [٧٥]. كذلك فالنجاسات في الإسلام قد تخلصت مما يصاحبها ويترتب عليها في اليهودية من عبء باهظ يخنق الأنفاس . ولعل هذا المثال الواحد ، وهو من أخف التشريعات الخاصة بالنجاسة ، يعطيك لمحة عن مدي التضييق الذي فرضته اليهودية علي أتباعها ورفع الإسلام السمح إصْرَه عن المسلمين : ‹‹ وإذا كانت امرأة يسيل دمها أياما كثيرة في غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها (وهو ما يسمي في الإسلام بـ‹‹ الاستحاضة ››) فتكون كُلَّ أيام سيلان نجاستها كما في أيام طَمْثها . إنها نجسة . كلّ فراش تضطجع عليه كل أيام سيلها يكون لها كفراش طَمْثها . وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها . وكل من مسَّهن يكون نجسا فيغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلي المساء . وإذا طَهُرَتْ من سَيْلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر .وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فَرْخَيْ حمام وتأتي بهما إلي الكاهن إلي باب خيمة الاجتماع ، فيعمل الكاهنُ الواحد ذبيحة خطيّة والأخر مُحْرَقة ، ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها . فتعزلان بني إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا في نجاستهم وبتنجيسهم مسكني الذي في وسطهم›› [٧٦] . ومن يرد أن يقرأ حكم النجاسات الأخري فليقرأ الأصحاحات الثمانية من الحادي عشر إلي الثامن عشر من السفر ذاته . أما في الإسلام فليس علي المستحاضة إلا أن تسد نزيف الدم بقطعة قطن مثلا ، وكلما حان ميعاد صلاة توضأت من جديد . وكذلك يحلّ لزوجها أن يعاشرها . فأين هذه السماحة من ذلك الإعنات؟[٧٧]

وفي القرآن إشارة سريعة إلي هذا العنت في دعاء المؤمنين ربهم‹‹ : رَبَّنا ، ولا تَحْمِلْ علينا إصْرًا كما حَمَلْتَه علي الذين من قبلنا››[٧٨] .أما الصلاة والصيام والزكاة فإن طريقة أدائها وأحكامها مختلفة في الإسلام عنها في اليهودية . ثم إنه ليس في اليهودية حجّ .وهذا كله ينطبق أيضا علي النصرانية.

أما الأطعمة فلم يُحَرَّم منها في القرآن إلا ‹‹ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنَّطيحة وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكَّيتم ، وما ذُبِح

---

[٧٢] سبأ / ٣٧ .

[٧٣] الحجرات / ١٣ .

[٧٤] الإسراء / ١٥ . وانظر ‹‹النجم ›› / ٣٦ – ٤٠ .

[٧٥] اقرأ تفصيلات ذلك وغيره في سفر‹‹ اللاويين›› / ١ – ١٠ .

[٧٦] لاويين / ١٥ / ٢٥ – ٣١ .

[٧٧] انظر في ذلك مثلا ‹‹ فقه السنة ›› / ١ / ٨٦ – ٨٩ .

[٧٨] البقرة / ٢٨٦ .

علي النُّصُب››[٧٩]، مع السماح للمضطر أن يتناول من ذلك علي قدر الضرورة لا يعدوها « :فمن اضطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غيرَ متجانِفٍ لإثم فإن اللـه عفور رحيم››[٨٠]
وقد كان سبحانه حرّم علي اليهود « كلَّ ذي ظُفُرٍ، ومن البقر والغنم حَرَّمْنا عليهم شحومَهُما إلا ما حملت ظهورُهما أو الحَوَايا أو ما اختلط بِعَظْمٍ››[٨١]، وذلك جزاء بغيهم وظلمهم« : ذلك جزيناهم ببغيهم››[٨٢]، « فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حَرَّمْنا عليهم طيبات أُحِلّتْ لهم، وبِصَدِّهم عَن سبيل الله كثيرا $ وأخذِهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل» [٨٣] ، فأزال الإسلام هذا كله . وهو ما يوضحه القرآن بقوله تعالي مخاطبا موسي عليه السلام « : ورحمتي وَسِعَت كُلَّ شيء ، فسأكتبها للذين يَتَّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون $ الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأمّيَّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث، ويَضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم» [٨٤] .وقد اعترض اليهود علي الإسلام لإباحته هذه الأطعمة وادّعَوْا أنها محرمة في شريعة إبراهيم ، الذي ينتسب إليه المسلمون أيضا ، فرد القرآن عليهم قائلا « :كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيلُ علي نفسه من قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التوراةُ . قل : فَأْتُوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين $ فمن افتري علي الله الكَذِبَ من بَعْدِ ذلك فأولئك هم الظالمون $ قل : صَدَقَ الله ، فاتّبِعوا مِلّة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين» [٨٥].
وكان العرب في الجاهلية يتقارضون بالربا ، بل كان الدائن ، إذا حلّ الأجل ولم يستطع المدين أن يسدّد دينه برِبَاه ، يمدّ له في الأجل ويزيد في الربا ، فنزل القرآن ليضع خاتمة لهذا كله مهددا أشد التهديد من لا يرعوي عن ذلك « : يا أيها الذين آمنوا ، اتّقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِي من الربا إن كنتم مؤمنين $ فإنْ لم تفعلوا فَأْذَنوا بحرب(أي استعدوا لحرب) من الله ورسوله . وإن تُبْتُم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون $ وإن كان ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلي مَيْسَرة ، وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لكم إن كنتم تعلمون››[٨٦] . فانظر كيف انتقل الإسلام إلي الجانب المقابل وجعل ترك الدين لا الربا وحده هو خير الخطتين . وفي موضع آخر من القرآن يقول رب العزة جل شأنه: « يا أيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفةً ، واتقوا الله لعلكم تُفْلحون $ واتقوا النارَ التي أُعِدَّت للكافرين» [٨٧] .ومن النقاط التي يخالف فيها الإسلام اليهودية مسألة الربا . صحيح أن اليهودية تحرم الربا هي أيضا ، بيد أن هذا التحريم لا يمتد ليشمل إقراض الأجنبي بالربا ، بل يقتصر علي تقارض اليهود فيما

[٧٩] المائدة / ٣ .
[٨٠] المائدة / ٣ .
[٨١] الأنعام / ١٤٦ .
[٨٢] الأنعام / ١٤٦ .
[٨٣] النساء / ١٦٠ .
[٨٤] الأعراف / ١٥٦ ــ ١٥٧ .
[٨٥] آل عمران / ٩٣ ــ ٩٥ .
[٨٦] البقرة / ٢٧٨ ــ ٢٨٠ .
[٨٧] آل عمران / ١٣٠ ــ ١٣١ .

بينهم ، مما يعكس نزعة التعصب الجنسي المقيت لديهم ، هذا التعصب الذي وجدناه يتبدي في اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تَمَسّهم ، مهما اجترحوا من جرائم(وحياتهم كلها جرائم وسفالات) ، إلا أيامًا معدودات ، كأن الله سبحانه وتعالي يهودي مثلهم ، لعنهم الله أني يؤفكون ! أما الإسلام فنزعته إنسانية، ولذلك فإن باب الخلاص فيه ، كما سبق أن أوضحنا ، مفتوح علي مصراعيه لكل من آمن بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وعمل صالحا ، بغض النظر عن جنسيته وعن دينه السابق . ومن هنا فقد حرم القرآن الربا مطلقًا ، سواء كان المقترض مسلما أو كافرا . يقول العهد القديم « : لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا . للأجنبي تقرض بربا ، لكن لأخيك لا تقرض بربا» [٨٨] ، ويقول القرآن الكريم « : يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وذروا ما بَقِيَ من الرِّبا إن كنتم مؤمنين $ فإن لم تفعلوا فأْذَنوا بِحَرْبٍ من اللَّهِ ورسولِه . وإن تُبْتُم فلكم رؤوس أموالكم .لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون» [٨٩] ، هكذا بلا تمييز بين مسلم وغيره . ومما يرتبط بهذه النقطة ما أشار إليه القرآن العزيز في الآية التالية: « ومِنْ أهْلِ الكتابِ من إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّه إليك ، ومنهم من إنْ تَأْمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّه إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيلٌ . ويقولون علي الله الكَذِبَ وهم يعلمون» [٩٠] .

هذا ، وكان اليهود في المدينة يزعمون للمسلمين أن الرجل إذا جامع زوجته(الجماع الطبيعي) من الخلف جاء الولد أحول ، فذكر المسلمون ذلك لسيدنا رسول الله عليه أزكي الصلوات وأفضل التسليمات ، فنزل قوله تعالي ينقض هذا الهراء اليهودي : «نِساؤكم حَرْثٌ لكم ، فَأْتُوا حَرْثَكُم أنَّي شئتم» [٩١] . أما النصاري فقد ابتدعوا الرهبنة ، التي اشتطوا فيها وهم يظنون أنهم يبتغون بها رضوان الله ، فجاء القرآن وعاب هذا عليهم: « ورهبانيةً ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاءَ رضوان الله ، فما رَعَوْها حقَّ رعايتها» [٩٢] ، إذ إنها تدابر الغرائز الإنسانية وتحرّم بلا معني مفهومٍ نعم الله التي تفضل بها علي عباده.

ومن هذه الأمثلة التي اقتصرنا فيها علي القرآن الكريم ولم نتطرق إلي الأحاديث النبوية الشريفة ، وهي مجرد أمثلة لا تغطي كل أوجه الاختلاف بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية ، يتضح لكل ذي بصر أن للإسلام شخصيته المستقلة ، وهي شخصية سوية تتمشي مع العقل الإنساني المحرَّر من أغلال الوثنيات والخرافات ، ومع الغرائز الإنسانية المعتدلة ، أي باختصار : مع الحياة الطيبة المشرقة . ومن هنا نفهم قوله تعالي: « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصَدِّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه»[٩٣] . إنه يوافق التوراة والإنجيل فيما لم تَمَسّه يد التحريف من العقائد

---

[٨٨] تثنية / ٢٣ / ١٩ ــ ٢٠ .
[٨٩] البقرة / ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .
[٩٠] آل عمران / ٧٥ .
[٩١] البقرة / ٢٢٣ .
[٩٢] الحديد / ٢٧ .
[٩٣] المائدة / ٤٩ .

، وفيما لا يزال من التشريعات للبشرية صالحا . أما إذا كان ثمة تحريف أو اقتضت ظروف الإنسانية تبديلا في هذا التشريع أو ذاك فإن القرآن يصدع عندئذ بالحق المبين . ومن هنا كذلك تتضح سخافةُ بل سفاهة الاتهام الذي يحاول المستشرقون أن يشوهوا به وجه القرآن والإسلام ، والذي يقول إن الإسلام مسروق من اليهودية والنصرانية وتقاليد الجاهلية وعاداتها .

الثقة المطلقة و العلم المحيط

مما يلفت النظر في القرآن الكريم تلك الثقة المطلقة التي يتحدث بها عن مستقبل الإسلام ،وما ينتظر أعداءه من هزائم نكراء برغم عُددهم و عديدهم و أموالهم وسخريتهم و استهزائهم . وقليلة هي السور (وبالذات المكية) التي لا تتوعد من يكذبون محمدا عليه الصلاة ويؤذونه بالقول و الفعل وحبك المؤامرات ، وهذا التوعد و تلك الثقة يتخذان صورا مختلفة : فقد يقص القرآن قصص الأمم الخالية التي وقفت من رسلها وأنبيائها ما وقفه أعداء محمد منه ، و كيف كانت نهايتهم سوداء منكرة. وعادة ماتنتهي قصة كل نبي وأمته و ما حلَّ بها من عذاب إلهي مريع بطمئنة الرسول بأن عذابا مثل هذا ينتظر قومه ، وأنه آت لا محالة فلا داعي للاستعجال ، وأنه إذا كان الله يمهلهم فليس معني ذلك أنه قد أهملهم .وهذه القصص من الكثرة في القرآن بحيث لا أجد أي داع للاستشهاد ببعض منها . وقد وردت تلك القصص في بعض الأحيان موجزة (كما في سورة"البروج" و "ق" و "الفرقان") ووردت في بعض الأحيان الأخري مفصلة (مثلما هو الحال في سورة "الأعراف " و " يونس " و "هود") بل إن بعض السور قد اقتصر علي أخبار تلك الأمم مع رسلها أو كاد ، و بعضها الآخر قد سمي باسم نبي من الأنبياء (مثل سورة "يونس" و "هود " و "إبراهيم"). كما أن هناك سورة سميت باسم "الأنبياء" ، هكذا بإطلاق . و بعض هذه القصص يتعلق بأمم لم يرسل إليها رسول و لكنها كفرت بأنعم الله فأذاقها الله الفقر من بعد غنًي ودمر حضارتها تدميرا ، وذلك مثل الآيات التي تتحدث عن سبأ و جنتيهم اللتين بدلتا جنتين ذواتي أكل خمط و أثل و شئ من سدر قليل ، و أسفارهم التي باعد الله بينها و جعلهم أحاديث و مزقهم كل ممزق [(١)] وكذلك الآية التي ضرب الله فيها "مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون " [(٢)] . وقد يورد القرآن قصة فرد نال عقابه جزواء كفره وطغيانه ، كما في قصة صاحب الجنة الذي اغتر بماله وثماره ولم يؤد حق الشكر لله تواضعا واعترافا بالنعمة فمحق الله جنته [(٣)] و كقصة قارون الذي خسف الله و بداره الأرض وجعله عبرة لمن كانوا يحسدونه علي ما كان

---

(١) سبأ / ١٥ .
(٢) النحل / ١١٢ .
(٣) الكهف / ٣٢ – ٤٤ .

فيه من نعيم [٤] . إن القرآن يؤكد في مواضع مختلفة أن الله سبحانه ناصر رسله في الدنيا و الآخرة : " إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد "[٥]، " و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين*إنهم لهم المنصورون *و إن جندنا لهم الغالبون " [٦] . و هو في موضع آخر يسوق ذلك المعني ذاته و لكن علي غير النحو المباشر ، فيقول عز من قائل : "و لينصرن الله من ينصره . إن الله لقوي عزيز *الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر . و لله عاقبة الأمور " [٧] . و ما أكثر ما يتحدي القرآن الكفار بمثل هذه العبارة : "قل :يا قوم ، اعملوا علي مكانتكم ، إني عامل .فسوف تعلمون *من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم " [٨] ، و هي نفس العبارة التي تحدي بها بعض الرسل الماضين قومهم :فشعيب عليه السلام يقول لقومه بعد كل ما بذل من جهد لهدايتهم عبثا : "يا قوم اعملوا علي مكانتكم إني عامل .سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و من هو كاذب " [٩] . و مثل ذلك قوله تعالي لنبيه محمد عليه السلام : "قل : كل متربص ، فتربصوا ،فستعلمون من أصحاب الصراط السوي و من اهتدي " [١٠] . وقريب منه قوله سبحانه : " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " [١١]. وقد يجئ التهديد أصرح من هذا : "إنَّ ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين " [١٢] .و ما أكثر ما يؤكد القرآن أن هؤلاء المستهزئين سيحيق بهم ما كانوا به يستهزؤن [١٣] ،كما يلفت نظر النبي عليه الصلاة والسلام إلي أن هؤلاء الكفار إن كانوا الآن يتقلبون في الثروة و القوة والنعيم فينبغي ألا يبالي بهم ، إذ سوف يأتي اليوم الذي يفقدون فيه كل هذا البريق و تدور عليهم دائرة بغيهم وسوئهم : "فلا يغررك تقليهم في البلاد " [١٤]،"لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد *متاع قليل ثم مأواهم جهنم ، و بئس المهاد " [١٥] .و كان الكفار كلما استعجلوا ما يتوعدون به من عقاب أكد لهم القرآن أن العذاب آت فلا يستعجلون : "أتي أمر الله فلا تستعجلوه " [١٦] ، و أن الأمر أمر إمهال لا إهمال : "و كأين من قرية أمليت لها و هي ظالمة ، ثم أخذتها و إليَّ المصير " [١٧] . و في مواضع أخري ينذرهم بأن العقاب قادم في الطريق : " إقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون *ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه

---

[٤] القصص / ٥٦ .
[٥] غافر / ٥١ .
[٦] الصافات / ١٧١- ١٧٣ .
[٧] الحج / ٤٠ – ٤١ .
[٨] الزمر / ٣٩ – ٤٠ .
[٩] هود / ٩٣ .
[١٠] طه / ١٢٤ .
[١١] الشعراء / ٢٢٧ .
[١٢] الأنعام / ١٣٤ .
[١٣] انظر مثلا "الأنعام " / ١٠ ، و الأنبياء / ٤١ .
[١٤] غافر / ٤ .
[١٥] آل عمران / ١٩٦ – ١٩٧ .
[١٦] النحل / ١ .
[١٧] الحج / ٤٨ .

وهم يلعبون *لاهية قلوبهم " [١٨] ، وأن النذر تتوالي :"هذا نذير من النذر الأولي *أزفت الازفة . ليس لها من دون الله كاشفة " [١٩] ، وأن العذاب يقترب رويدا رويدا :" ولايزال الذين كفروا تصيبهم قارعة أو تحلُّ قريبا من دارهم حتي يأتي وعد الله " [٢٠] . وقد يسوق هذا المعني ملفوفا ، كما في هذه السورة لتي يلفت الله فيها الأبصار إلي ظاهرة انقشاع الظلام شيئا شيئا و فراره أمام ضوء الشمس الساطع :" ألم تر إلي ربك كيف مدَّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ؟ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا *ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا " [٢١] . و إذا ضاقت من الرسل و المؤمنين الصدور لتراخي الزمن بالكفار من غير عقوبة طمئنهم بأن النصر مهما يبطئ فهو آت آت :"حتي إذا استيئس الرسل و ظنوا أنهم كذبوا جاءهم نصرنا فننجي من نشاء .ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين " [٢٢] ، "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؟ مستهم البأساء و الضرَّاء و زلزلوا حتي يقول الرسول و الذين آمنوا معه : متي نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب "[٢٣].و عندما قامت الحرب بين الإسلام وجيوش الكفر كان القرآن يصدع بمثل هذه الآيات :"إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا " [٢٤] ، "سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب " [٢٥] .لقد كان الكافرون دائما يهددون رسلهم بأنهم سيخرجونهم من أرضهم ،«فأوحى إليهم ربهم : لنهلكن الظالمين *ولنسكننكم الأرض من بعدهم .ذلك لمن خاف مقامى و خاف وعيد » [٢٦] .

و هذه الثقة التي ينضح بها القرآن المجيد في كل سورة تقريبا لم تكن مقصورة علي مواجهته مع الوثنيين العرب ، بل واجه بها أيضا أهل الكتاب من يهود ونصاري .

و لست أنوي أن أفيض في هذا بل يكفي مثال واحد مع كلٍّ ، فقد تحدي القرآن بني إسرائيل أنهم إذا كانوا يعتقدون حقا و صدقا أن الجنة لهم من دون الناس فليتمنَّوا الموت «قل : إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبدا بما قدَّمت أيديهم .والله عليم بالظالمين » [٢٧] . و يقول البيضاوي في تفسير هاتين الآيتين : «و عن النبي عليه الصلاة و السلام : لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه » .فتأمل هذه الثقة المطلقة تجد أنها لا يمكن أن تكون إلا من لدن العزيز القدير .و الواقع أن القرآن لم يتحدَّهم بهذا الأمر مرة واحدة بل أعاد التحدي كرة أخرى ليكمدهم إن كانت لديهم ذرة من إحساس بالكرامة : « قل :يا أيها الذين هادوا ، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين * و لا يتمنَّونَه أبدًا بما قدَّمت أيديهم . والله

---

[١٨] الأنبياء / ١- ٣ .
[١٩] النجم / ٥٦ – ٥٨ .
[٢٠] الرعد / ٣١ .
[٢١] الفرقان / ٤٥ – ٤٦ .
[٢٢] يوسف / ١١٠ .
[٢٣] البقرة / ٢١٤ .
[٢٤] آل عمران / ١٠ .
[٢٥] آل عمران / ١٥١ .
[٢٦] إبراهيم / ١٣ – ١٤ .
[٢٧] البقرة / ٩٤ – ٩٥ .

عليم بالظالمين » [٢٨]. و هذه الثقة و هذا التحدِّي الذي أراد القرآن أن يضع به حدًا لجدال أهل الكتاب السفيه الذي لا يؤدي إلي طائل تجدهما في الآية التالية التي يدعو فيها الرسول نصاري نجران إلي المباهلة ،وذلك حين جاؤوه فحاجُّوه في عيسي عليه السلام فبين لهم القرآن بمنطق العقل الباتر أنه ليس إلا عبدا رسولا و أنه إذا كان قد وُلِد من غير أب فقد خلق آدم بلا أب و لا أم ،فلم ينفع معهم منطق الفطرة السليمة و العقل الواضح النزيه فقال القرآن مخاطبا الرسول : «فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلْم فقل : تَعَالوا ندْع أبناءنا و أبناءكم ونساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنة الله علي الكاذبين * إن هذا لهو القَصَصُ الحقُّ. وما من إله إلا الله ،و إن الله لَهُوَ العزيز الحكيم *فإن توَلَّوْا فإن الله عليم بالمفسدين » [٢٩] . والذي حدث هو أنهم لما دُعُوا إلي المباهلة قالوا : دَعْنا حتي ننظر .فلما تخالوا (أي خلا بعضهم إلي بعض) قالوا للعاقب (وكان ذا رأيهم) : ما تري ؟ فقال :والله ، لقد عرفتم نبوته ،ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم .والله ما بَاهَلَ قومٌ نبيا إلا هلكوا .فإن أبيتم إلا إلفَ دينكم فوادعوا الرجل (أي سالموه)وانصرفوا .فأتوا رسول الله صلي الله عليه وسلم و قد غدا محتضنا الحسين و آخذا بيد الحسن ،وفاطمة تمشي خلفه ،و علي رضي الله عنه خلفها ،وهو يقول :إذا أنا دعوت فأمنوا ،فقال أسقفهم :يا معشر النصاري إني لأري وجوها لو سألوا الله تعالي أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ،فلا تباهلوا فتهلكوا .فأذعنوا لرسول الله صلي الله عليه وسلم وبذلوا له الجزية :ألفي حلة حمراء و ثلاثين درعا من حرير .فقال عليه الصلاة والسلام :والذي نفسي بيده ،لو تباهلوا لمسخوا قِرَدَة و خنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي نارًا ، ولاستأصل الله نَجران و أهله حتي الطير علي الشجر [٣٠] . فتأمل هذه الثقة المطلقة من جانب محمد و آل بيته حتي الأطفال منهم ،وهذ الجبنَ و الهلع الذي يدل علي كذب إيمان النصاري و فساد عقيدتهم وأنهم إنما يتمسكون بها تقليدا للآباء من غير فهم و لا إقتناع خوفا علي المصالح و الرئاسات والسمعة الشخصية .فهل يحق بعد هذا كله أن يقال إن محمدا سرق أو حتي تشبَّع ،منغير أن يحس ، أفكار أهل الكتاب و عقائدهم ؟ويتصل بهذا الثقة التي لا تتزعزع ولا تتلجلج تحدي القرآن للكفار الذين ادعوا أن محمدا قد افتراه أن يأتي بمثله :"فليأتوا بحديثٍ مثلِه إن كانوا صادقين " [٣١] ، ثم خفف عنهم فطالبهم أن يأتوا بعش سور مثله مفتريات ،وليستعينوا وليستعينوا بكل من يعرفون ،ولن يستطيعوا أبدا ذلك : " أم يقولون: افتراه ؟ قل : فَأْتوا بعَشْرِ سِوَرٍ مثلِه مفترياتٍ،وادْعُوا من استطعْتم من دونِ الله إن كنتم صادقين* فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ و ألا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ؟ " [٣٢] .ثم خفَّفَ عنهم مرة أخري فتحداهم أن يأتوا ولو بسورة مثله : " أم يقولون :افتراه ؟ قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين " [٣٣] ، وأعاد التحدي

---

[٢٨] الجمعة / ٦ – ٧ .
[٢٩] آل عمران / ٦١ – ٦٣ .
[٣٠] البيضاوي في تفسير الآيات السابقة .
[٣١] الطور / ٣٣ .
[٣٢] هود / ١٣ – ١٤ .
[٣٣] يونس / ٣٨ .

مرة رابعة قاطعة :"وإن كنتم في ريب مما أنزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين *فإن لم تفعلوا ،ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناسُ والحجارة أعدت للكافرين " [٣٤] . وهو يفتتح كثيرا من سوره بحرف أو حرفين أو أكثر من حروف الهجاء ، ثم يعقّب بأن آياته قد رُكِّبَت من هذه الحروف التي هي ملك أيديهم يستطيعون أن يتصرفوا فيها علي النحو الذي يحبُّون ،وهو تحدٍّ ملفوف بأنهم سيعجزون عن الإتيان بمثله ، فمن أين لمحمد هذه الثقة الراسخة الصلبة إلا أن يكون مصدرها هو الله ، الذي بيده ملكوت كل شئ وهو القاهر فوق عباده ؟

ولست أريد أن أخوض أكثر من ذلك في هذا الموضوع ، بل كل ما أحب أن أقوله هو أن الكفار ، بعد كل هذه التقريعات الموجعة ، لم يستطيعوا أن يأتوا ولو بآية واحدة من مثل آيات القرآن . وهذه حقيقة تاريخية لا تُمَارَي .زكيفما نظر الباحث إلي هذه المسألة فهو منتَهٍ إلي أن هذا التحدي لا يمكن أن يصدر عن بشر مهما تكن ثقته بنفسه : فمن جهة تجد أن القرآن قد أكد مرارا أنهم لن يقدروا علي الإتيان بمثله ، وهو ما حدث .فهذه ثقة تتمثل في التنبؤ القاطع بالغيب . ومن جهة أخري فإن عجز الكفار في حد ذاته هو دليل علي أن هذا القرآن ،من حيث المبدأ، تنقطع من دونه الرقاب و الأنفاس ولا يبلغ قمته الشمَّاء بشر .فالمحصلة النهائية إذن أن هذا التحدي لم يقُمْ له أحد ، وأن الثقة التي وراء هذا التحدي ليست ثقة ادَّعاها الغضب الأهوج أو افتعلها التهويش الكاذب ، بل هي ثقة من بيدِه الأمر و النهي ومن يقول للشئ "كن" فيكون .

وتأخذنا الإشارة إلي التنبؤ بالغيب في الفقرة السابقة إلي الحديث عن النبوات التي وردت في القرآن و صاحبت نزول الوحي من بدايته إلي نهايته تقريبا .ففي أول الدعوة عندما اشتد أذي أبي لهب عمِّ الرسول له صلي الله عليه وسلم نزلت سورة "المسد " التي يتوعد الله سبحانه وتعالي فيها هذا العم بأنه "سيصلي نارا ذات لهب " [٣٥] . ومعني ذلك أن مصيره سيكون إلي الجحيم ، وه ما لن يحدث إلا إذا بقي علي كفره حتي مماته ، وقد كان .

و في سورة "القمر" و هي من سور العهد المكي المبكرة ،نقرأ قول الله تعالي "سيهزم الجمع ويولون الدبر " [٣٦] .و في رواية عن عمر أنه لما نزلت هذه الآية عُمِّي معناها عليه إلي أن سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يرددها فانكشف له معناها .و هذا هو نص كلام البيضاوي عند تفسير هذه الآية : " وقد وقع (أي هذا الأمر) يوم بدر ،وهو من دلائل النبوة . وعن عمر رضي الله عنه أنه لما نزلت قال : لم أعلم ما هو .فلما كان يوم بدر رأيت الرسول صلي الله عليه وسلم يلبس الدِّرع ويقول : "سيُهْزَمُ الجمعُ "فعلمته ".

وفي موضع آخر من القرآن نجد هذه الآية الموجزة الحاسمة : " إنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئين " [٣٧] ،التي يقول البيضاوي في سبب نزولها : " قيل: كانوا خمسة من

---

[٣٤] البقرة / ٢٣ ـ ٢٤ .
[٣٥] المسد / ٣ .
[٣٦] القمر / ٤٥ .
[٣٧] الحجر / ٩٥ .

أشراف قريش :الوليد بن المغيرة ، و العاص بن وائل و عدي بن قيس و الأسود بن عبد يغوث و الأسود بن عبد المطلب يبالغون في إيذاء النبي صلي الله عليه وسلم و الاستهزاء به ،فقال جبريل عليه السلام لرسول الله صلي الله عليه وسلم :"أمرت أن أكفِيَكَهُم ". فأومأ إلي ساق الوليد فمر بنَبال فتعلق بثوبه سهم ،فلم ينعطف تعظُّما لأخذه ، فأصاب عرقا في عقبه فقطعت فمات . وأومأ إلي أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتي صارت كالرحي ومات .وأشار إلي أنف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات ، وإلي الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتي مات ،وإلي عيني الأسود بن عبد المطلب فعمي .وسواء صحت الرواية أو لم تصح فلا نزاع في أن هؤلاء المستهزئين لم يستطيعوا أنينالوا من حياة رسول الله ولا دعوته منالا ،أي أن وعد الله لرسوله قد تحقق .

وفي سبب نزول الآيات الكريمة التالية :«ألم* غلبت الروم* في أدني الأرض ،وهم من بعد غلبهم سيغلبون *في بضع سنين .لله الأمر من قبل و من بعد .ويومئذ يفرح المؤمنون* بنصر الله.ينصر من يشاء ،وهو العزيز الرحيم *وعد الله ،لا يخلف الله وعده ،ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٣٨] يقول البيضاوي « رُوي أن فارس غَزَوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى ،وقيل : بالجزيرة ،وهي أدني أرض الروم من الفرس ،فغلبوا عليهم .وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون و شمتوا بالمسلمين و قالوا :أنتم والنصاري أهل كتاب ونحن وفارس أُمِّيّون .وقد ظهر إخواننا علي إخوانكم ،ولنَظْهَرَنَّ عليكم ،فنزلت .فقال لهم أبو بكر : لا يُقرَّنَّ الله أعينكم،فوالله لتظهرنَّ الروم علي فارس بعد بضع سنين .فقال أبيُّ بن خلف :كذَبتَ! اجعل بيننا وبينك أجلا أُناحِبُكَ (أراهنك) عليه.فناحبه علي عشر قلائص من كل واحد منهما ،وجعلا الأجل ثلاث سنين .فأخبر أبو بكر ،رضي الله عنه ، رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال:البضع ما بين الثلاث إلي التسع ،فزايده في الخطر (الرهان)ومادِّه في الأجل .فجعلاه مائة قَلُوص إلي تسع سنين .ومات أُبيٌّ من جرح رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد ،وظهرت الروم علي فارس يوم الحديبية ،فأخذ أبوبكر الخطر من ورثة أبيّ وجاء به إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال :تصدَّق به » و الآية من دلائل النبوة لأنها إخبار بالغيب .و العجيب أن يأتي المستشرق سافاري فيعلق ،في ترجمته للقرآن ،علي هذه الآية بقوله :« إن المسلمين بعد أن تحققت هذه النبوءة اتخذوها حجة قاطعة علي نبوة محمد .ولكن من السهل إدراك تهافت مثل هذه الحجج القائمة علي نبوءة غامضة كهذه بمقدور أي إنسان يعرف حالة الإمبراطورية الرومانية و إمبراطورية الفرس أن يتنبأ بها بدقة » [٣٩] . والحق أن الأمر ليس بهذه السهولة التي يزعمها هذا المكابر ،وإلا فهل كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف من حالة الإمبراطوريتين أكثر مما يعرف أبيُّ بن خلف وأبو سفيان و غيرهما من دهاة قريش المضرَّسين الذين كانوا يجوبون الشام والعراق و اليمن بتجارتهم ،وكان بعضهم

---

[٣٨] الروم / ١-٦ .

[٣٩] Savari ,le Coran ,p.365,n.2.

يقابل الحكام و الولاة هناك كما رأينا في حوار أبي سفيان و هرقل في بلاط العاهل البيزنطي ؟ فلماذا إذن عرف الرسول ذلك ولم يعرف قومه ،الذين تحدَّوا أبا بكر علي مائة قلوص تكذيبا منهم بنبوءة القرآن بانتصار الروم علي الفس في بضع سنين فكسبها أبو بكر منهم ؟ إن من السهل مثلا أن يحس الإنسان المجرب إحساسا عاما أن ثمة حربا قادمة بين دولتين متعاديتين ،أما أن يتنبأ بوقوعها في مدي لا يتجاوز تسع سنوات ،ويتنبأ كذلك بانتصار الجانب الذي انهزم من فوره ،وتقع الأمور بالضبط كما قال فيكسب الرهان ممن تحدَوْه ،فهذا أمر خارق ، وبخاصة إذا علمنا أن هذه النبوءة لو لم تتحقق لكان لها علي مستقبل الإسلام أوخم العواقب .إن أجهزة المخابرات المصرية بعقولها البشرية المتخصصة و عقولها الألكترونية المعقدة تخطئ كثيرا في مثل هذه الأمور .ولنا نحن المسلمين في حرب رمضان المجيدة و توقيتها و نتائجها عبرة ،إذ فشلت المخابرات الإسرائيلية المسنودة من مخابرات الغرب كله أن يتنبأ بوقوع المعركة و نتيجتها [٤٠] علي أن هناك قراءة أخري (بغض النظر عن صحتها) للفعلين « غلبت» و« سيغلبون» في الآيات السابقة ،ورواية مختلفة عن سبب نزولها ،إذ تقرأ هذه الآيات علي النحو التالي :«غَلَبَتْ الرومُ في أدني الأرض و هم من بعد غلبهم سيُغْلَبُون » و معناها «أن الروم غلبوا علي ريف الشام ، والمسلمون سيغلبونهم ،وفي السنة التاسعة من نزوله (أي نزول الوحي بهذه الآيات)غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم .وعلي هذا تكون إضافة «الغلب» (أي الهزيمة) إلي فاعله » [٤١].

فهذه أمثلة من النبوات القرآنية في العهد المكي .أما في المدينة فقد رأينا القرآن يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام بعبارة موجزة حاسمة كالتي طمئنه بها أنه يسكفيه المستهزئين ،لكن الأمر هذه المرة كان متعلقا باليهود والنصاري :« فسيكفيكهم الله » [٤٢] وقد كان .

و هناك قوله تعالي مخاطبا رسوله الكريم « والله يعْصِمُكَ من الناس» وعن أنس رضي الله عنه :كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يُحرَسُ ،حتي نزلت فأخرج رسول الله رأسه من قبة أدَم فقال :انصرفوا أيها الناس ،فقد عصمني الله من الناس » [٤٣] و عاش النبي بعد ذلك أعواما لم يكفَّ أعداؤه أثناءها عن محاربته والتآمر عليه بكل السبل ،ومع ذلك لم ينالوا منه منالا .بل إن بعضهم همَّ بالفعل بقتله عليه السلام ولم يكن أحد يحرسه ،وكان في عدوه السيف بينما هو عليه السلام أعزلا .ولم يستطع الرجل أن يقتله بل انتهي الأمر في دقائق بإسلامه .ومثال ذلك قصة اليهودية التي وضعت السمَّ في لحم شاة قدمته إليه هو وأصحابه ،فقتل السمُّ واحدا من الصحابة ،ونجا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

و في سورة «الفتح» إشارة إلي رؤيا رآها النبي عليه السلام عشية غزوة الحديبية ، وفيها يدخل هو وأصحابه مكة وقد حلقبعضهم رأسه وقصر بعض آخر شعره ،فقصها النبي علي أصحابه ففرحوا .لكنهم لما تم صلح الحديبية ،الذي عادوا بمقتضاه

---

[٤٠] انظر كتابنا «المستشرقون والقرآن » الذي نقلنا منه هذا الرد مع بعض التصرف والإضافة / ٣٠ – ٣١ .

[٤١] انظر البيضاوي في تفسير هذه الآيات .

[٤٢] البقرة / ١٣٧ .

[٤٣] انظر البيضاوي في سبب نزول هذه الآية .

أدراجهم ،فلم يدخلوا مكة علي أن يدخلوها عامهم المقبل حزنوا وقال بعضهم : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت .فنزلت الآية التالية :«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين ،محلقين رؤوسكم ومقَصِّرين لا تخافون ،فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (وهو فتح خيبر)» [٤٤] . ولما سألوا النبي بعد قدومه المدينة :«ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمنا ؟» كان جوابه «بلي .أقلت لكم «من عامي هذا ؟» . قالوا :«لا». قال : «فهو كما قال لي جبريل عليه السلام » [٤٥] . كان ذلك في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، وفي نفس الوقت من السنة التي تليها دخل المسلمون ،كما قال الصادق الأمين بناءا علي رؤياه ،مكة محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ،وذلك بمقتضي صلح الحديبية نفسه [٤٦] .

كذلك وردت في سورة «الممتحنة » نبوءة بأن الله سيجعل مودة بين المسلمين والمشركين ،وذلك بعد أن لجَّت بين الفريقين العداوة والبغضاء وتقطعت الأواصر تماما،وبخاصة بعد نزول قوله تعالي: «لا تتخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » [٤٧] . ونص النبوءة هو :« عسي الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتُم منهم مودة .والله قدير ،والله غفور رحيم » [٤٨] . وقد أنجز عز شأنه ما وعد ىففُتِحَت مكة و دخل المشركون الإسلام أفواجا ، وحلت المودات محل العداوات [٤٩] .كما تنبَّأ القرآن الكريم للمؤمنين بأنه سبحانه مستخلفهم ،أي ناصرهم و مُبَوِّئهم مكانا قياديا علي خريطة العالم الروحية والسياسية ،ووعدهم بأنه ناصر دينهم علي الأديان كلّها ،وهو ما تحقق بحذافيره فلم تمُرَّ إلا سنون قليلة علي وفاة سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي كانت الإمبراطورية الفارسية ذات المجد التليد و التاريخ العريق في خبر كان ،وحتي امتُلِخَت الشام ومصر درَّتا الإمبراطورية البيزنطية من أيدي البيزنطيين إلي الأبد بمشيئة الله .ثم لم تمر بضع عشرات أخري من السنين حتي بلغ المسلمون الصين شرقا ،وتوغلوا في أوروبا من جهة الجنوب الغربي إلي أن وصلوا جنوب فرنسا و شكلوا رعبا قاتلا للأوروبيين مئات من السنين . وبذلك صدق الله وعده :«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم ، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا :يعبدونني لا يشركون بي شيئا » [٥٠] ،«هو الذي أرسل رسولَه بالهُدَي ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ علي الدين كلّه ولو كره المشركون » [٥١] ، «هو الذي أرسل رسوله بالهدي و دين الحق ليظهره علي الدين كله ،وكفي بالله شهيدا » [٥٢] .وقريب من النبوءات المنتشرة في القرآن و التي لم أذكر هنا سوي بعضها ما ورد فيه أيضا من آيات تتعلق

---

[٤٤] الفتح / ٢٧ .
[٤٥] انظر البيضاوي مثلا في تفسير الآية السابقة ،وابن هشام /٢١٠/٣٠ .
[٤٦] انظر ابن هشام / ٤ / ٣ .
[٤٧] الممتحنة / ١ .
[٤٨] الممتحنة / ٧ .
[٤٩] انظر ،في تفسير هاتين الآيتين ،البيضاوي مثلا .
[٥٠] النور / ٥٥ .
[٥١] التوبة / ٣٣ .
[٥٢] الفتح / ٢٨ .

بمعارف علمية :تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوجية) وطبية وتشريحية وكيميائية وطبيعية (فيزيائية)وفلكية كان مستحيلا علي محمد ،لو لم يكن رسول مؤيدا بالوحي الإلهي ، ومستحيلا كذلك علي أي إنسان في عصره في شرق العالم و غربه و شماله وجنوبه بل و فيما بعد عصره بقرون طوال ،أن يحلم بله أن يكون علم بها .وأقل ما يمكن أن يقال بالنسبة لهذه الحقيقة هو ما خرج به الدكتور موريس بوكاي الطبيب الفرنسي المشهور من دراسة الكتب الدينية الثلاثة :التوراة ولإنجيل والقرآن و المقابلة بينها و بين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : (لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم ، و ذلك دون أي فكر مسبق بموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنت أعرف قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي علي أي مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث) [٥٣] .ليس هذا فحسب ، بل يمضي الطبيب الفرنسي قائلا :(وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص علي العهد القديم و الأناجيل .أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة إلي أبعد من الكتاب الأول ،أي سفر «التكوين» ،فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات اعلم رسوخا في عصرنا .وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولي منها حتي نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ،ونعني بها شجرة أنساب المسيح .وذلك أن نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان علي الأرض) [٥٤] . أما النتيجة التي وصل إليها الدكتور بوكاي فهي هي الحكم الذي أصدره القرآن علي هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، وذلك دون محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولا المقدرة العلمية التي تمكنه من القيام بما قام به العالم الفرنسي من دراسة .استمع إلي ما يقوله الدكتور بوكاي : (إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التي لا يحتملها التصديق و تلك الأخري التي لا تتفق والعلم لا يبدو لي أنها لا تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولا تقع المسئولية فيها إلا علي البشر .ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية وما نصيب الخيال والهوي في عملية تحريرها ،أو ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ،أو ما نصيب التعديلا غير الواعية التي أدخلت علي الكتب المقدسة) [٥٥] .ثم يعود الدكتور بوكاي إلي الحديث عن دراسته التطبيقية علي القرآن الكريم فيقول : (أما الجزء الثالث (يقصد:من كتابه) فسيجد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم علي دراسة أحد الكتب المقدسة و هو تطبيق لم يكن ليتوقع الإنسان .كما سيجد القارئ في ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذي هو في متناول كل يد ، من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتي الآن مستغلقة أو غير مفهومة .ولا عجب في هذا إذا

---

(٥٣)

(٥٤)

(٥٥)

عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان) [٥٦] .و أنا ، إذ أستشهد بالدكتور بوكاي ، لا أعني أن أحدا لم يسبقه إلي مثل هذه الدراسة ،فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكني قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهي جانب واحد فقط من الجوانب التي يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهي ، قد أدت بهذا العالم (وغيره كما ذكرت في الهامش السابق)إلي الدخول في دين الإسلام .هذا ،ولست أنوي أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم في القرآن المجيد ، فما أكثر الكتب التي قامت ، كما قلت آنفا ،بهذه المهمة ،و إن غالي بعضها في الربط بين حقائق العلم الحديث و نظرياته وبين بعض الآيات ، التي يصعب علي الدارس الموضوعي أن يري فيها شيئا قاطعا أو علي الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة و دَعْك ممن يرَوْنَ في بعض الآيات أشياءا لا وجود لها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ،وإنما سأكتفي بمجرد ذكر عدد من الآيات الكريمة ،وراجع بنفسك تفسيرها في ضوء حقائق العلم الحديث : «ويسألونك عن المحيض .قل :هو أذي ،فاعتزلوا النساء في المحيض ،ولا تقربوهن حتي يطهرن » [٥٧] ، «الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ،حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات » [٥٨] ،« وينزل من السماء من جبال فيها من برد » [٥٩] ، «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين »[٦٠] ،«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين *ثم جعلناه نطفة في قرار مكين *ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة .فخلقنا المضغة عظاما ،فكسونا العظام لحما ،ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » [٦١] ،«وجعلنا من الماء كل شئ حي » [٦٢] ، «ويخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من

---

[٥٦] المرجع السابق / ١٤ . وقد كانت هذه الدراسة سببا في إسلام العالم الفرنسي ،كما كانت دراسة مشابهة لها سببا في إعلان عالمين آخرين شهيرين من بريطانيا وكندا إسلامهما أثناء المؤتمر الأول للإعجاز الطبي في القرآن منذ أيام (شهر سبتمبر ١٩٨٥) ،هذا المؤتمر الذي هاجمه بعض الأساتذة المصريين الذي يفخرون بأنهم تابعون مخلصون للفكر الغربي الحديث .وبهذه المناسبة أذكر أني كنت أتناقش منذ نحو سنة مع زميل له نفس إتجاه هؤلاء المهاجمين ، وذكرت فيما ذكرت إسلام الأستاذ رجاء جارودي ،فما كان منه إلا أن عزا دخوله في الإسلام إلي أنه يبحث عن دور يؤديه أو عن شئ يلفت إليه الأنظار (لا أدري بالضبط عباراته ،ولكنها تدور حول هذا المعني) ، وكأن جارودي ، الذي من المؤكد أن هذا الأستاذ كان يفخر بترديد آراءه و أفكاره قبل أن يعلن إسلامه ، كانت تنقصه الشهرة وهو الذي كان ملء السمع و البصر ، لا في فرنسا وطنه وحدها ، بل في العالم أجمع .إني مازلت أتذكر دعوة «الأهرام» للأستاذ جارودي في أعقاب الهزيمة الناصرية في ١٩٦٧ م ، و الضجة التي أحدثها المثقفون ذوو الميول الغربية من أمثال صاحبنا حول الزائر الفرنسي ، ودعوة أحدهم أثناء إحدي محاضرات الأستاذ جارودي إلي عقد (زواج سعيد) بين الماركسية التي كان هذا الأستاذ المحاضر أحد كهنتها الكبار في ذلك الوقت ،وبين الإسلام .إن هذا الموقف الذي اتخذه صاحبنا من الأستاذ جارودي بعد إعلانه إسلامه ليذكرني بموقف يهود المدينة من عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبارهم الكبار المحترمين ، فقد أثنوا عليه خير الثناء عندما سألهم الرسول عليه السلام بإيعاز منه ،فلما ظهر لهم ابن سلام ، وكان مختفيا في اثناء ذلك ،ونطق أمامهم بالشهادتين انقلبوا عليه يسبونه سبا موجعا .وغني عن القول أني لا أزكي علي الله أحدا ، ولكني فقط أردت استخلاص العبرة .

[٥٧] البقرة / ٢٢٢ .

[٥٨] الأعراف / ٥٧ .

[٥٩] النور / ٤٤ .

[٦٠] النحل / ٦٦ .

[٦١] المؤمنون / ١٣ – ١٤ .

[٦٢] الأنبياء / ٣٠ .

بعد خلق في ظلمات ثلاث »[٦٣] ، «والشمس تجري لمستقر لها .ذلك تقدير العزيز العليم *والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم *لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار .وكل في فلك يسبحون » [٦٤] « فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماء دافق *يخرج من بين الصلب والترائب » [٦٥] .ولنعد مرة ثانية إلي الدكتور بوكاي ،الذي يقول:«ومن الثابت فعلا أنه في فترة تنزيل القرآن ...كانت المعارف العلمية في مرحلة ركود منذ عدة قرون ،كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمي الذي واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن .إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذي يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذي سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذي يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوي ذات صفة علمية مثيرة للدهشة فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب علي عصرهم ،وإن محمدا صلي الله عليه وسلم بالتالي قد استلهم دراساتهم .إن من يعرف ،ولو يسيرا ،تاريخ الإسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافي و العلمي في العالم العربي في القرون الوسطي لاحقا لمحمد صلي الله عليه وسلم ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوي الوهمية .فلا محل لأفكار من هذا النوع ،وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحي بها أو المصوغة بشكل بين تماما في القرآن لم تتلق التأييد إلا في العصر الحديث .من هنا ندرك كيف أن مفسري القرآن (بما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم)قد أخطأوا حتما وطيلة قرون في تفسير بعض الآيات التي لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلي معناها الدقيق) [٦٦] .وهنا نصل إلي الايات التي ذكرت آنفا أنني أحب أن أستأني عندها قليلا ،فقد وجدت في التفاسير القديم ما يؤكد هذا الذي يقول الدكتور بوكاي :ففي تفسير قوله تعالي :«وأوحي ربك إلي النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون *ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ،فيه شفاء للناس » [٦٧] يقول الشريف الرضي :«والعسل عند المحققين غير خارج من بطون النحل ،وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأضغاث النبات ،لأنه يسقط كسقوط الندي في أماكن مخصوصة و علي أوصاف معلومة .والنحل تتبع تلك المساقط وتعاهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلي كوراتها والمواضع المعدة له ،فقال سبحانه :«يخرج من بطونها .» والمراد «من جهة بطونها »،وجهة بطونها أفواهها .وهذا من غموض هذا البيان وشرائف هذا الكلام » [٦٨] .فانظر كيف أن العلماء المحققين في عصر الشريف الرضي (القرن الخامس الهجري) يقررون أن العسل لا يخرج من بطون النحل ومن ثمّ عدَّ هو قوله تعالي : « يخرج من بطونها شراب .....» مجازا من مجازات القرآن ،التي أدار عليها كتابه الذي اقتبسنا منه

---

(٦٣) الزمر / ٦ .
(٦٤) يس / ٣٨ – ٤٠ .
(٦٥) الطارق / ٥ – ٧ .
(٦٦) موريس بوكاي / ١٤٥ – ١٤٦ .
(٦٧) النحل / ٦٨ – ٦٩ .
(٦٨) تلخيص البيان في مجازات القرآن / ١٩٣ .

النص السابق .والصواب هو ما قاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل ، التي تجمع الرحيق و يتحول في معدتها إلي عسل تقوم بإفرازه بعد ذلك [٦٩] .
وفي خطأ مشابه يقع الإمام الباقلاني ،إذ يعدُّ قوله تعالي :«والله خلق كل دابة من ماء» [٧٠] نوعا من التعميم في التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ،ولكنه عمم القول .فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا ؟ يقولون إن (الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي ، و أن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ،فلا حياة ممكنة بلا ماء .وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة علي كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو :أيحتوي هذا الكوكب علي كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟) [٧١] .والطريف أن الباقلاني قد قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون في عصره مطعنا في القرآن الكريم ، وهذا نص كلامه :«قوله عز وجل :«والله خلق كلَّ دابَّة من ماء ». قال الملحدون :وفي هذه الآية إحالة من وجوه :أحدها أنه خلق كل دابة من ماء ،وليس الأمر كذلك ،لأن منها ما يُخْلَق من بيض وتراب و نطفة ...والجواب أن قوله :«كلّ» لا يقتضي استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم و التخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه،إذ علمنا أن من الدواب ما لم يخلق من ماء .علي أن من الناس من يقول :أصل الأشياء كلها أربعة :الماء والهواء والنار و الأرض، وكل دابة مكونة من بلّة و رطوبة» [٧٢] . و الآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضي و الإمام الباقلاني عليهما لا تحتاج إلي تعقيب ، اللهم إلا القول بأنّ هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما هائلا جدا بالقياس إلي معارف العرب والعالم كله في عصر الرسول ،ومع ذلك فالقرآن علي صواب و هذان العالمان الذان يعكسان معارف عصريهما هما المخطئان .ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالي :«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد في السماء » [٧٣] ،فقد فسر البيضاوي ،وهو مفسر متأخر نسبيا (إذ عاش في القرن الثامن الهجري) ، عبارة «كأنما يصَّعَد في السماء» علي النحو التالي :«شبهه (أي شبه الله من يريد أن يضله) مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه ،فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة .ونبه به علي أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود .وقيل معناه كأنما يتصاعد إلي السماء نبوّا عن الحق و تباعدا في الهرب منه ». أما تفسير الآية في ضوء مكتشفات العلم التجريبي فهو أن الذي يضله الله يشعر بنفس ضيق الصدر الذي يحسه الصاعد في طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلا تجد الرئتان كفايتهما من الهواء والأوكسوجين [٧٤] . وأنا ،وإن لم أكن متخصصا في أي

---

[٦٩] انظر مادة «عسل النحل » في «الموسوعة الثقافية » .أما البيضاوي ،وهو متأخر عن الشريف الرضي بثلاثة قرون ،فهو يأخذ بالتفسير الصحيح للعبارة ،لكنه يذكر أيضا الرأي الآخر من غير تعقيب .
[٧٠] النور / ٤٥ .
[٧١] موريس بوكاي / ٢١٢ . وانظر كذلك تفسير هذه الآية في «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» والتعليق العلمي في أسفل الصفحة التي فيها هذا التفسير .
[٧٢] «نكت الانتصار لنقل القرآن» للباقلاني / ٢٠٢ .
[٧٣] الأنعام / ١٢٥ .
[٧٤] انظر مالك بن نبي /٢٨٧ .

فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب عليّ أن أوافق الدكتور موريس بوكاي الذي يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما والذي يخالف من يقولون أن فكرة ضيق التنفس كانت موجودة عند العرب في عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو علي ٣٥٠٠ متر في شضبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقي ،في رأيه ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع [٧٥] . وتنهض مخالفتي للدكتور بوكاي علي أساس أن الآية تتحدث عن «التصعد» في السماء ، وهو ما لم يكن متاح لأي إنسان في عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج)ولا فيما بعده ببضعة عشر قرنا ،لا «التصعيد في الجبال» كما يفيد كلامه . كذلك فإن الرسول عليه السلام كما نعرف من سيرته الشريفة ،لم يصعد غير جبلي حراء وثور :أولهما في فترة التحنث السابقة علي البعثة، و الثاني في طريقه هو و أبي بكر إلي يثرب .ولم ترد في السيرة أية إشارة ،ولو من بعيد ،إلي أي أثر لهذا الصعود علي جهازه التنفسي عليه السلام .ولم يثبت أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد زار صنعاء ،التي يشير إليها الدكتور بوكاي [٧٦] .بل إني أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية في ذلك العصر ،حتي لو كانوا أحسوا بشئ من هذا ، قد تنبهوا إلي السبب الحقيقي لذلك . وأحب أن أكرر القول كي لا ننسي إن القرآن يتحدث عن «التصعد في السماء» لا «التصعيد في الجبال» . ثم هاهي ذي كتب التفسير القديمة تقول إن المقصود أن الكافر الذي أغلق قبه يستحيل عليه الإيمان كما يستحيل علي أي بشر أن يصعد في السماء ،وهو ما يدل دلالة قاطعة علي أن فكرة ضيق التنفس المشار إليها كانت مجهولة لدي هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلا شك يعيشون في ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلي الحياة البدائية التي كان يحياها عرب الجاهلية و عصر المبعث .

وثمة آية أخري أراني ،رغم عدم تخصصي كما سلف في أي من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلي أن أخالف في تفسيرها الدكتور بوكاي ، الذي يكرر كلام المفسرين القدامي بشأنها ، و هي قوله تعالي :«وهو الذي مرج البحرين :هذا عذب فرت ، وهذا ملح أجاج ،وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » [٧٧] . وهذا نص كلامه :« معروفة تلك الظاهرة التي كثيرا ما تشاهد عند عدم الاختلاط الفوري لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهر الكبيرة .ويري البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصبي نهر دجلة و الفرات ،الذين يشكلان بالتقائهما بحرا ،إذا جاز القول ، طوله أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفي الخليج ينتج تأثر المد ظاهرة طبيعية هي انحسار الماء العذب إلي داخل الأراضي ،وذلك يضمن ريًا طيبا » [٧٨] . و الحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع :فمن الناحية اللغوية يصعب عليَّ أن أوافق العالم الفرنسي و مفسرينا القدامي علي أن أداة التعريف في «البحرين » هنا للعهد ،الذي قيل علي أساسه إن «البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات .ذلك أن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء و الأنعام و الأناسي ،وهي مفاهيم عامة لا تشير

---

[٧٥] المرجع السابق / نفس الصفحة (بالهامش).

[٧٦] الفرقان / ٥٣ .

[٧٧] الفرقان / ٥٣ .

[٧٨] بوكاي / ٢٠٥ .وانظر ،في تفسير هذه الآية ،البيضاوي والزمخشري والنسفي والجلالين مثلا .

إلي ظلام بعينه ولا رياح بعينها ولا ماء معين ولا أنعام وأنَاسِيّ مخصوصة ،فلم يقال إذن إن «البحرين » هنا هما بحران معينان (دجلة والفرات)؟ إن السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ،ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضي ان يكون «البحران» أيضا هما «النهر والبحر» بإطلاق ، أي أن (ال)فيهما هي (ال) الجنس لا العهد .و فضلا عن ذلك فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلي مدي بعيد في داخل البحر أو المحيط ، يختلط في النهاية بمائهما ، ومن فظاهر الأمر أن النهر يبغي في البداية علي البحر (عندما يشق ماءه الملح ويزيحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغي في النهاية عليه (عندما يختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذي يفقده خاصة العذوبة ويعطيه بدلا منها ملوحته) ،فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ؟ أما «المنخب في تفسير القرآن الكريم » فإنه يقول ي هامش خصصه للتعليق علي هذه الآية إنها ربما «تشير إلي نعمة الله علي عباده بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار في الصخور القريبة من الشاطئ بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ،بل إنهما يلتقاين مجرد تلاق :يطفوا العذب منهما فوق الملح كأن بينهما برزخا يمنع بَغْي أحدهما علي الآخر و حِجْرا محجورا ،أي حاجزا خفيا مستورا لا نراه ». لكنّ ثمة نقطة هامة يبدو لي أن كاتِبَيْ هذا التعليق ،علي رغم جدته وطرافته (بالنسبة لي علي الأقل)،قد أغفلاها ،إذ إن الماء العذب و الماء المالح الذين يلتقيان في الصخور علي هذا النحو لا يمكن تسميتهما بحرين .ثم إذا كان الماءان في هذه الصخور لا يلتقيان ، فإنهما في عُرْض البحر و المحيط يلتقيان و يتمازجان ويصبحان في النهاية ماءً واحدا ،كما قلنا من قبل. يبدو لي ،والله أعلم ،أن البرزخ الموجود في هذه الاية هو القوانين التي بمقتضاها بَقِيَ كل من الماء العذب والماء الملح كل هذه الدهور المتطاولة التي لا يعلم مداها إلا الله ،وسيبقيان إلي أن يرث الله الأرض والسماوات ،كما هو لا يتغير. فالأنهار تصب في البحار و المحيطات ،وكان المفروض، لو أن الأمر انتهي عند هذا الحد ،أن يختلط الماءان اختلاطا دائما فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ويصبح الماء الموجود علي سطح الأرض من ثم ماءً ملحا .بيد أن التقدير الإلهي قد شاء أن يقوم البخْرُ بحمل الماء من البحار و المحيطات فتسوقه الرياح ليسقط علي الجبال وينحدر إلي الأنهار ماءً عذبا كما كان ،وهكذا دواليك .وهكذا أيضا يبقي الماء العذب والماء الملح كما هما ،ويتعايش البحران دون أن يبغي أحدهما علي الآخر ويقضي عليه .فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحْجُور فيما أفهم ،والله أعلم .كما يبدو لي أيضا أن هذه الآية ، إلي جانب امتنانها علي العباد بهذه النعمة الإلهية ،تتضمن معني مجازيا ،فإني أظن أن المقصود بالماء العذب هنا«المؤمنون» وبالماء الملح «الكافرون» . والمعني أن الإيمان والكفر سيبقيان إلي آخر الدهر لا يستطيع أحدهما أن يقضي علي الآخر تماما .والذي دعاني إلي هذا التفسير هو ما فهمته من أولي الآيات التي تتحدث عن الظواهر الطبيعية في السياق الذي وردت فيه آيتنا هذه ،وهي : «ألم تَرَ إلي ربك كيف مدَّ الظلَّ ،ولو شاء لجعله ساكنا ؟ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قَبْضًا يسيرا»[٧٩] .أما المعني المجازي الذي لمحتُه فيها،بجانب معناها الظاهري،فهو أن الله يطمئن رسوله إلي أن كفر قومه (المرموز

---

[٧٩] الفرقان / ٤٥ – ٤٦ .

إليـه بالظـل،أي الظـلام)إن كـان الآن ممـدودًا فـإن الله قابضــه رويـدا رويـدا ،ومُبْـزِغ شمس الإيمـان عمـا قليل.والـذي أوحـي إلـيَّ بهـذا المعنـي هو السياق الـذي وردت فيـه الآيـة هي وقولـه تعالي : «وهو الذي مرج البحرين ..» فقد كـان المولي سبحانه يتكلم عن الأمم السـابقة التـي كذبت برسـلها عنـادا وطغيانـا فأهلكهـا الله رغم عنفوان قوتهـا وانتشـار سلطانها ،فبدت لـي النقلـة إلـي الحـديث عـن بعض الظـواهر الطبيعيـة غيـر مفهومة إلا في ضوء هذا المعني المجازي.

ونـأتي الآن إلي آخر ىية أحب أن أتريث عندها قليلا ،وهـي قولـه تعـالي فـي سـورة «فاطر» : «وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، و هذا مِلْحٌ أجاج. ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتتسخرجون حِلْيةً تلبسونها » [٨٠] .لقد قرأت هذه الآية مرات لا تحصي ولكن لم ألتفت إلي ما تؤكده من أن الحُلِيّ تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذي كنت أعرفه حتي ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين في آية مشابهة في سورة «الرحمن») لا يوجدان إلا في البحـار .وقفز السؤال إلـي عقلـي علـي الفـور مفزعـا : «أيمكـن أن يكـون القـرآن قـد أخطـأ ؟». إن آيـة سـورة «الرحمن» يمكن ألا تثير مشكلة فنصها هو : «مرج البحـرين يلتقيـان *بينهمـا بـرزخ لا يبغيـان*فبـأي آلاء ربكمـا تكـذبان * يخـرج منهمـا اللؤلـؤ والمرجـان » [٨١] ،ومـن الممكن القول بأن معناها هو أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كلٍّ منهما ،كما تقول مثلا : «إنَّ في يديّ هـاتين مائـة جنيـه » ،ويكون المبلـغ كلـه فـي اليد الأولي بينما الأخري خلو تماما من أي نقود ،ولا تكون قد عَدَوت الحقيقة .أما آيـة سورة «فاطر»فإنها تقول بصريح العبارة : «ومن كلٍّ...تستخرجون حِلْيَةً تَلبَسونها ».

ولم يسعفني ما عندي من تفاسير قديمة ،فأخذت أقلب نظري فـي أرفف مكتبتـي وأنـا حائر ضائق ، وإذ بي ألمح ترجمة عبد الله يوسف علي للقرآن فأفتحها فأجد فيها شفاء نفسي ،إذ يذكر المترجم رحمه الله (في تعليقه علي هذه الآيـة فـي الهـامش) مـن الحلـي البحري اللؤلؤ والمرجان ومن الحلي النهري العقيق وبادة الذهب وغيرهما.ثم رجعت بعد ذلـك إلـي دائـرة المعـارف البريطانيـة (مـادة «Pearl») «والمنتخـب فـي تفسـير القرآن الكريم» فوجدت فـي الأولـي أن اللؤلـؤ يوجـد أيضـا فـي الميـاه العذبـة [٨٢] ،أمـا الكتاب الأخير فكأنه يرد علي حيرتـي إذ يقول : «وقد يستبعد بعض النـاس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحُلِيّ ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك. أمـا اللؤلؤ فإنـه،كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ،يستخرج ايضا من أنواع معينة أخري من الأنهار ، وتوجـد اللآلـئ فـي الميـاه العذبـة فـي إنجلتـرا واسكتلندا وويلـز و تشيكوسلوفاكيا و اليابان...الخ،بالإضافة إلي مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة .ويدخل في ذلك ما تحملـه المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس ،الذي يستخرج من رواسـب الأنهـار الجافـة المعروفـة باليرقـة.ويجـد اليـاقوت كـذلك فـي الرواسـب النهريـة فـي موجـوك بالقرب من باندالاس في بورما العليا .أما فـي سيام وفـي سيلان فيوجد اليـاقوت غالبـا فـي الرواسـب النهريـة و مـن الأحجـار شـبه الكريمـة التـي تسـتعمل فـي الزينـة حجـر

[٨٠] فاطر / ١٢ .

[٨١] الرحمن / ١٩ – ٢٢ .

[٨٢] لاحظ أن المرجان هو اللؤلؤ الكبير كما يقول كثير من المفسرين ، أو اللؤلؤ الصغير كما يقول بعضهم .

التوباز ،ويوجد في الرواسب النهرية في مواقع كثيرة ومنتشرة في البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا ،وهو فلورسيليكات الألومنيوم،ويغلب أن يكون أصفرا أو بنيا .والزيركون Circon) حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية » [٨٣] .وحتي يقدّر القارئ رد فعلي الأول حق قدره أذكر له أن بعض المترجمين الأوروبيين أنفسهم في العصر الحديثقد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحليّ . وقد تجل هذا في ترجمتهم لهذه الآية فمثلا نري رودويل الإنجليزي يترجم الجزء الخاص بالحلي منها هكذا:

"yet <u>from both</u> ye eat fresh fish ,and take forth for you ornaments to wear "

،فعبارة <u>from both</u> تصلح لترجمة آية سورة «الرحمن»لا في هذه الآية.كذلك ينقل رودي باريت هذه الآية إلي الألمانية علي النحو الآتي:

"Aus beiden eBt ihr frisches Fleisch".

إلي هنا والترجمة صحيحة ،فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالي «ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا » و إن استخدم في مقابل «طريا» كلمة frisches ،ومعناها الدقيق «طازج» .لكن تنبه لترجمته للجزء الآتي الذي يقول فيه :

"und (aus dem Salzmeer) gewinnt ihr Shmuck...um ihn euch anzulegen"

، والذي ترجمته : «ولتستخرجون (من البحر الملح)حلية تلبسونها » . ويري القارئ بوضوح كيف أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة «من البحر الملح : aus dem Salzmeer ». وهو ما يوحي باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ و العقيق وغيرهما من أنواع الحليّعلي ما تقول الآية الكريمة .

أما ترجمتا سيل و بالمر (الإنجليزيتان)وترجمتا كازيمرسكي و ماسون (الفرنسيتان)وكذلك ترجمتا ماكس هننج ومولانا صدرالدين (الألمانيتان) علي سبيل المثال فقد ترجمت كلها النص القرآني كما هو ،ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشئ .

ويري القارئ من هذه الآية كيف أن القرآن قبل أربعة عشر قرنا قد أشار إلي حقيقة يستبعدها واحد مثلي يعيش في القرن العشرين و آخرون مثل المستشرق الإنجليزي رودويل ونظيره الألماني رودي باريت ،فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن .وبخاصة أن الأنهار التي ذُكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة تُسْتَخْرَجُ منها تقع في بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ،بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم يُكتَشَفْ إلا في العصور الحديثة ؟أخشي ما أخشاه ،إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ،أن يزعموا أن سيدنا رسول الله قد قام برحلات إلي هذه البلاد خفية في الفترات التي كان يدّعي فيها لخديجة أنه ذاهب إلي غار حراء للتحنث. أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

---

[٨٣] «المنتخب في تفسير القرآن الكريم » في التعليق علي الآية / ١٢ من سورة «فاطر» .

الروح الإلهي

هناك أمر يصعب جدا بل يستحيل علي من يتهمون الرسول عليه السلام بأنه هو مؤلف القرآن أن يعللوه تعليلا يرضي عقل المتجرد الباحث عن الحقيقة ، ألا وهو الروح الإلهي الذي يسود القرآن من مبتدئه إلي منتهاه . افتح القرآن علي أية صفحة واقرأ ، واسأل نفسك: « أهذا كلام بشر ؟ . » إن ما يكتبه البشر يخرج من تحت أيديهم حاملا الطابع البشري : فتجد فيه أفراح البشر وأحزانهم ، ومسراتهم وآلامهم ، ورضاهم وضيقهم ، ونشاطهم ومللهم ، ومبالغاتهم وادعاءاتهم وأخطاءهم ، فهل تري في القرآن شيئا من ذلك؟[1] لقد وُلِد الرسول عليه السلام يتيم الأب ، ثم لحقت أمه بأبيه وهو في عمر الزهرة الغضة ، وكلنا نعرف أحزان اليتيم مهما يحنّ عليه الآخرون ويحاولوا أن يعوضوه عن فقد الأب والأم . وهاكم القرآن ، وقد استغرق تنزيله ثلاثًا وعشرين سنة ، فهل فيه ولو نَبْسَة واحدة عن يتم صاحب الرسالة المتَّهَم من قِبَل أعدائه بأنه صاحب هذا القرآن أو عن المشاعر الذي يستتبعها اليتم في نفوس من ابْتُلُوا به من الصغار ؟ وزيادة علي ذلك فقد مر علينا كيف أن الرسول قد استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، ثم سأله ثانية أن يستغفر لها فأبي، وعاد الرسول عليه السلام من جانب قبر أمه باكيا .وبعض الروايات ترجع سبب النزول في قوله تعالي: « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولِي قُرْبَي مَنْ بَعْدِ ما تَبَيَّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم»[2] إلي تلك الحادثة ، ومع هذا فليس في الآية أي شيء عن مشاعر الرسول آنذاك.

وهناك رواية أخري عن سبب نزول هذه الآية ، وهي وعد الرسول عليه السلام لعمه وهو في غمرات الموت أن يستغفر له فلعل الله أن يسامحه في عدم نطقه بالشهادتين لخوفه من أن تلحقه معرّة من قومه إذا أعلن إسلامه .ومهما يكن الأمر فإن الشاهد هنا هو الشاهد هناك : فهذا عمه الحبيب(وكان له نعم الظَّهر الذي طالما ركن إليه فلقي عنده الحماية والرعاية ولم يُسْلِمه قط لأعدائه) يموت ، والرسول عليه السلام كله الأمل في عفو الله عنه ، فهو الذي رباه وكفله واصطحبه في رحلاته التجارية ، وكانت له معه ومع أولاده ذكريات جميلة . فماذا نجد في القرآن ؟ لا شيء إلا نهي الرسول نهيا باتا عن أن يستغفر لأي قريب له مشرك ، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال أبو طالب . تري لو أن الرسول هو صاحب القرآن فما الذي كان سيضيره لو أعلن علي الملإ أجمعين قرآنا يذكر دخول أبي طالب الجنة بغير حساب ؟ لقد كانت السياسة توجب عليه أن يفعل ذلك ، علي الأقل تشجيعا لآخرين قد يودون أن يقوموا منه مقام أبي طالب دون أن يؤمنوا .ولكن عواطف الرسول شيء ، والقرآن شيء آخر.

---

[1] انظر كتابنا «المستشرقون والقرآن» /٢٥٤ .

[2] التوبة / ١١٣ .

وإذا افترضنا أنه عليه السلام لم ير ، لسبب غريب لا نفهمه ، أن يتحدث في قرآنه عن أمه وعمه وعن مشاعره لفقدهما وهو في أشد ما يكون حاجة إلي حنان الأولي وإلي حماية الثاني من بطش الأعداء الذين لم يكونوا لولاه لِيَرْعَوا فيه إلا ولا ذمة والذين رأيناهم بعد موت هذا العم يأتمرون به عليه السلام ليقتلوه ، فما السر في أن القرآن لا يصور شيئا مما انتاب الرسول عليه الصلاة والسلام من أحزان ثقيلة لوفاة شريكة عمره وحبيبته التي كانت أول من آمن به إذ كفر الناس ، وواسته بمالها إذ حرمه الناس ، ورزقه الله منها الذرية؟ لقد سُمِّيَ العام الذي انتقلت فيه خديجة وأبو طالب إلي ربهما « عام الحزن » ، فدونك القرآن وقلّبه تقليبا فلن تجد إشارة ، مجرد إشارة ، من قريب أو من بعيد ، إلي « عام الحزن » هذا ، وكأن خديجة لم تَمُتْ، وكأن موتها لم يكن ركنا انهدم في جدار مقاومة الكفر والطغيان . لقد ظل رسول الله عليه السلام يذكر خديجة بالخير بعد موتها حتي لقد كانت عائشةُ الصغيرة الجميلة بنتُ صديقه المقرَّب تغار من ذكراها أشد الغيرة ، فأين انعكاس هذا الحب في القرآن ، الذي اتُّهِم بأنه هو مؤلفه ؟ لقد ذُكِرَت مريم عليها السلام في أكثر من موضع ، وذُكِرَت امرأة فرعون ، تلك التي لم يكن أحد من قومه يعرف عنها شيئا ، فلِمَ ألّف قرآنا فيه ذكر هاتين السيدتين في الوقت الذي لم يؤلف مثل ذلك في خديجة لو كان هو صاحب القرآن ؟ بل لماذا لم يؤلف قرآنا في عائشة أو صفية أو زينب أو حفصة ، كما ألف نبيّ هذه الأيام الكذاب في نجوانا وحيًا باردًا غَثّا مثله يستحق عليه من وجهة نظر النقد الأدبي والذوق الفني السليم ، قبل وجهة نظر الدين والصدق والخلق الكريم، أن يُصْفَع علي وجهه وقفاه ؟ ألم يُتَّهَم نبينا بأنه كان عبدا للجنس وندائه ؟ أليس هؤلاء النساء ، في نظر أعدائه ، هن اللاتي قد استولَيْنَ علي حواسه وقلبه وعواطفه ؟ تري لِمَ لَمْ يحاول أن يغازلهن أو يسترضيهن بقرآن يدغدغ غرورهن لو كان مثل عاشق « نجوانا » نبيا مزيفا كذابا ؟

ولم تكن أمه وعمه أبو طالب وزوجته الحبيبة خديجة رضي الله عنها هم كل من ماتوا ممن كان يحبهم أشد الحب فلم ينعكس موتهم في القرآن ، الذي زعم الزاعمون أنه أتي به من عنده ونسبه إلي السماء ، فقد مات عمه وأخوه في الرضاع حمزة أسد الله وأسد رسوله : مات ميتة مأساوية ظلت ذكراها حية في فكر الرسول وقلبه تلذعه ، كما مرّ بنا في قصة إسلام قاتل هذا العم والأخ الحبيب وَحْشِيٍّ الحبشي ، وجاءت ميتته رضي الله عنه مع هزيمة أُحُد القاسية ، التي زادها قساوةً أن المسلمين قد انتصروا في بدايتها نصرا مؤزرا وكانت ستُحْسَم لصالحهم لولا عصيان الرماة لأوامر الرسول . وبرغم ذلك كله لم يذرف القرآن ولا دمعةً واحدة علي هذا البطل المغوار ، بل كل ما جاء عنه هو تلك الآيات في آخر سورة « النحل » تأمر النبي بأنه إذا عاقب فليعاقب بمثل ما عوقب به ، وإن كان الصبر خيرًا للصابرين . ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ، حين مثلت هند ومعها نساء قريش بجثة الشهيد الكريم وشقت بطنه وأخرجت كبده ومضغتها وجدعت أنفه وأذنيه وجعلت منها عِقْدا وقُرْطا ، وجاء أبو سفيان فأخذ يضربه في أسنانه(كرم الله مثواه في دار الخلد) وهو يقول له متشفيا شامتا: « ذُقْ عُقَق » ، أقسم صلوات الله عليه في غمرة أحزانه المفرطة أن يمثّل بثلاثين(وفي رواية:« بسبعين») واحدًا منهم مثلما مثلوا بجثة عمه ، فنزلت

الآيات التالية: « وإن عاقَبْتُم فعاقِبُوا بمثل ما عُوقِبْتُم به ، ولَئِنْ صبرتم لَهُو خَيرٌ للصّابرين $ واصْبِر ، وما صَبْرُكَ إلا باللّه ، ولا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرون $ إن الله مع الذين اتّقَوْا والذين هم مُحْسِنون»[٣] .كلا ، ليس هذا كلام البشر ولا هذه عواطف البشر ، بل هذا صوت الإله سبحانه يرد رسوله إلي خطة العدل والإنصاف ثم ينصحه بالصبر ، فهو خير من العقاب . والله لو أن محمدا هو مؤلف القرآن ما كان ليقول هذا الكلام أبدا حتي لو انخلعت النجوم والكواكب من مداراتها وانطبقت السماء علي الأرض . ولا يمكن أبدا تفسير ذلك بأنه قد هدأت مشاعره فقال ما قال ، فقد رأينا ذكري هذا الاستشهاد المأساوي تلذعه عليه السلام بعد مرور سنوات طوال ، حتي لقد طلب من قاتل عمه الذي أتاه مسلما طلبا لم يطلبه من أحد آخر غيره ، إذ قال له: « لاأَرَيَنَّك . غَيِّبْ عني وجهك . » لقد نزلت آيات سورة « النحل » عليه صلي الله عليه و سلم وسعير الغضب والأحزان يتلظي في قلبه ودخانها يسوّد الدنيا في عينيه ، فما معني الكلام إذن عن هدوء المشاعر إلا أن تكون قوة قاهرة هي التي أمرته بهذا فائتمر ، وصبّرته فصبر ، وأوحت إليه فأعلن ما أوحت به وأطاعه بلا أدني تردد ؟

وما قيل في عمه حمزة يقال في ابن عمه جعفر بن أبي طالب الشهيد الطيار ، فقد مات ، رضي الله عنه ، وهو ينافح عن لواء المسلمين في غزوة مؤتة حتي قُطِعَتْ ذراعاه ، ولم يرض أن يترك راية الإسلام تسقط علي الأرض . ومع ذلك فلا ذكر لجعفر ولا حديث عن الحزن علي جعفر ولا رثاء لأولاد جعفر(الذين تركهم وراءه زُغْبَ الحواصل) في أية سورة من سور القرآن المائة والأربع عشرة . أفيقال بعد هذا كله إن القرآن هو كلام محمدٍ ادّعاه أو توهمه ؟

أكثر من هذا أنه قد مات له عليه السلام ثلاثة أولاد ذكور من خديجة(أو ولد واحد أو اثنان فقط في روايات أخري) ، ومع هذا فليس في القرآن من أوله إلي آخره أي انعكاس لما لا بد أنه ملأ قلبه من الأحزان الممضّة علي هذه الزهور الرقيقة التي صوّحت في بُكْرة النّدي مع أول أضواء النهار . ولولا قوله تعالي: « إن شانِئَكَ هو الأبْتَرُ» [٤] ردّا علي سفاهة قومه الذين عيّروه بأنه أبتر ، أي لا يعيش له أولاد ذكور ، فلربما مرّ هذا الأمر علينا ونحن نقرأ سيرته عليه الصلاة والسلام من غير أن نلقي إليه بالا . فهذا كل ما هنالك . ثم لما هاجر عليه الصلاة والسلام ماتت له بالمدينة ابنتان ، هما رقية وأم كلثوم زوجتا الرجل الحييّ الذي سُمِّيَ من أجلهما « ذا النورين» ، فلم تنزل آية بل ولا كلمة واحدة فيهما . بل إن بعض أحفاده قد ماتوا ، ونحن نعرف مدي ما كان يكنه من حب للأطفال ، فما بالك بأبناء بناته اللائي كُنّ وكان أبناؤهن موضع حبه وعطفه وحنانه ، فلم نسمع بآية نزلت في شيء من ذلك، وكأن هذا الموت قد أصاب بيت أناس لم يسمع بهم محمد ، أناس تفصله عنهم بحار وجبال وصحاري يَحَار فيها القَطَا.

علي أن الذي لا ينقضي منه العجب هو سكوت القرآن تمامًا عن فلذة كبده إبراهيم ، الذي رُزق به علي يأس من خِلْفة الذكور وبعد أن سمع ما سمع من سفاهات السفهاء

---

[٣] النحل / ١٢٦ – ١٢٨ .

[٤] الكوثر / ٣ .

من قومه في أوائل الدعوة حين عيّروه بأنـه « أبتـر » ، فكانت ولادة هذا الطفل فـي أخريات حياة أبيه بمثابة نسمة الهواء المعطَّرة البلِيلة تهب في الأصيل علـي المهجِّر الذي شَوَتْ ريحُ السَّموم وجهَه طوال النهار . لقد روت لنا كتب السيرة والحديث كيف وقعت هذه المصيبة علـي الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حتـي إن اثنين من صحابته كانا يسندانه من تحت إبطيه من هولها ، ودموعه تجري علـي خديه الكريمتين . لكن انظر فـي القرآن الكريم ، فلن تجد شيئا من ذلك حتـي ولا كلمة تعاطف مع هذا الأب المفؤودصلي الله عليه و سلم . إنه حقا كلام السماء ، وليس تسجيلا لأحزانه ولا مصائب بيته .

هذا عن الأحزان ، ولا شكّ أن حياة رسول الله لم تَخْلُ ، علـي المستوي الشخصـي ، من مباهج ومسرات . وهذا القرآن ، فاقرأه آية آية فلن تعثر فيه من ذلك علي شـيء : فلا حديث مثلا عن زواجه بأية واحدة من نسائه ، ولا حتـي عن عائشة أو حفصة ابنتي أقرب أصدقائه إليه ولو من باب المجاملة لأبويهما مقابل ما أسدياه للإسلام من خدمات جُلَّي لا تقدَّر بثمن ، علي الأقل ليضمن استمرارهما فـي تعضيده والتضحية من أجل الدين الذي أتي به.

أما علي مستوي الأمة فقد انتصر المسلمون في كثير من الغزوات ، وهُزموا في أحد ومات سبعون منهم حمزة أسد الله ، وتكالبت عليهم العرب واليهـود كالكـلاب المسعورة في معركـة « الخندق » ، وتَلَقَّوْا في حُنَيْن في أوائل الحرب ضربة كادت أن تُودِي بهم لولا ستر الله وشجاعة الرسول وثباته في موضعه هو ونفر من أصحابه ثبات الأبطال ، وعادوا من مؤتة بعد مصرع ثلاثة من أعظم قوادهم وأصدقائهم شدّا علي أعداء الله والدين ومنهم ابن عمه جعفر ّالطيار ، عدا الجنود الذين لم تحصر كتب السنة أعدادهم .فهل تجد في القرآن آية واحدة يُسْتَشَفُّ منها الحزن علي هؤلاء الشهداء الذين سقطوا صرعي في سبيل الله والدين والوطن ؟ إن غزوات بدر وأُحُد والأحزاب وتبوك وغيرها مسجلة فـي القرآن ، ولكنك لا تجد أبدا لا خفّة الانتشاء البشري بالنصر ولا لوعة الحزن الإنساني للهزيمة ، بل تسمع دائما الصوت الإلهـي موجِّها ومخاطبا ومبصِّرا ومشيرا إلي الدروس والعبر التي يجب علـي المسلمين أن يخرجوا بها من هذا النصر أو تلك الهزيمة . اسمع مثلا ما جاء في بدر: « ولَقَدْ نَصَرَكم اللّه ببدرٍ وأنتم أذلّة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون $ إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يُمِدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين $ بَلَـي ، إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فَوْرهم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسوِّمين $ وما جعله الله إلا بُشْرَي لكم ولِتَطمئن قلوبكم به . وما النصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم $ ليقطع طرَفًا من الذين كفروا أو يَكْبِتَهم فينقلبوا خائبين»[٥] . وقبل أن نمضـي إلـي ما جاء عن ذات الغزوة في سورة « الأنفال » أسألك : أتجد شيئا من أفراح النصر هنا ؟ إن الآيات ليس فيها إلا امتنان الله سبحانه علي المسلمين بأنه نَصَرهم وهم أذلة . أما ما جاء فـي سورة « الأنفال » فهاكَهُ « : وإذ يَعدُكم اللهُ إحدي الطائفتين أنَّها لكم وتَوَدُّون أن غَيْرَ ذَاتِ الشَّوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحِقَّ الحق بكلماته ، ويَقْطَعَ دَابر الكافرين $ لِيُحِق الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِهَ المجرمون $ إذ تستغيثون ربكم

---

[٥] آل عمران / ١٢٣ – ١٢٧ .

فاستجاب لكم أني ممِدّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين $ وما جعله الله إلا بُشْرَي ، ولِتَطْمئنّ به قلوبكم . وما النَّصْرُ إلا من عند الله . إن الله عزيزٌ حكيم $ إذ يُغَشِّيكُم النُّعاسَ أَمَنَةً مِنه وينَزّلُ عليكم من السماء ماءً ليُطَهّركم به ، ويُذْهِبَ عنكم رجز الشيطانِ ، ولِيَرْبِطَ علي قلوبكم ، ويُثَبِّتَ به الأقدام $ إذ يُوحي ربُّك إلي الملائكة أني معكم فثَبِّتُوا الذين آمَنوا . سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بَنَان $ ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه ، ومن يشاقِقِ اللَّهَ ورسولَه فإن اللَّهَ شديدُ العقاب $ ذلكم فذُوقوه وأنَّ للكافرين عذابَ النار $ يا أيها الذين آمنوا ، إذا لَقِيتم الذين كفروا زَحْفًا فلاتُوَلُّوهم الأدبار $ ومن يُوَلِّهمْ يومئذ دُبُره إلا مُتَحَرِّفًا لقتالٍ أو متحيّزا إلي فِئةٍ فقد باء بِغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير $فلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم . وما رَمَيْتَ إذ رميت ولكن الله رمي ، ولِيُبْلِيَ المؤمنين منه بَلاَءً حَسَنا . إن الله سميع عليم $ ذلكم وأن الله موهِنُ كَيْدِ الكافرين $ إن تستفتِحوا فقد جاءكم الفَتْحُ ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نَعُدْ . ولن تُغْنِيَ عنكم فِئتُكُمْ شيئا ولو كَثُرَتْ وأن الله مع المؤمنين»[٦] . فهل تسمع في هذه الآيات هدير الموسيقي العسكرية أو هتافات الجماهير أو غناء الفنانين بكل ما في ذلك من مبالغات وغُلُوّ وتضخيم للنصر وتحقير من شأن العدو ، شأن ردود فعل البشر لمثل هذا الانتصار الساحق الذي لم يكن يتوقعه المسلمون ؟ كلا ، بل هو التوجيه الإلهي للمؤمنين حتي لا يزدهيهم النصر فيَفْتُروا: « فلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكن الله رمي . » أما الكفار فلهم آية واحدة تنبههم بمنتهي الهدوء إلي أن مؤامراتهم وكيدهم وأموالهم ضائعة عبثا ، وأن الخير لهم أن يدخلوا في الدين ويكفوا عن العدوان . أفبعد هذا يقال إن القرآن اختراع محمدي ؟

فهذا عن أول وأعظم انتصار أحرزه المسلمون . وإليك الآن ما نزل من وحي تعقيبا علي أقسي هزيمة لحقت بهم ، هزيمة أُحُد : يقول تعالي: « ولا تَهنوا ولا تَحْزَنوا وأنتم الأَعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين $ إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قرْحٌ مِثْله . وتلك الأيام نُداولها بين الناس ، ولِيَعْلَمَ الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شُهداءَ . والله لا يحب الظالمين $ وليُمَحِّص اللهُ الذين آمنوا ويَمْحَقَ الكافرين $أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنَّة ولما يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ويَعلَمَ الصابرين ؟ $ ولقد كنتم تَمَنَّوْن الموتَ من قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون $ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرُّسُلُ . أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم علي أعقابكم ؟ ومن يَنْقَلِبْ علي عَقِبيه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئا . وسيَجْزِي اللهُ الشاكرين $ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجَّلا . ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِه منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْتِه منها ، وسنَجْزِي الشاكرين $ وكأَيِّنْ من نَبِيٍّ قاتَلَ معه رِبِّيُّن كثيرٌ ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين $ وما كان قولَهم إلا أن قالوا : ربَّنا ، اغفر لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا ، وثَبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا علي القَوْمِ الكافرين $ فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة . والله يُحبُّ المُحْسِنين $ ياأيها الذين آمنوا ، إن تُطيعوا الذين كفروا يردُّوكم علي أعقابكم فتنقلبوا خاسرين $ بل اللهُ مولاكم وهو خَيْرُ الناصرين $ سنُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ بما أشركوا بالله مالم يُنَزِّل به

---

[٦] الأنفال / ٧ ـ ١٩ .

سُلطانا . ومـأواهم النّـارُ ، وبئس مَثْوَي الظـالمين $!ولقد صـدَقكم اللهُ وَعْدَه إذ تَحُسّونهم بإذْنـه حتـي إذا فَشِلْتم وتنـازعتم فـي الأمـر وعصَيتم من بَعدِ مـا أراكم مـا تُحِبُّون : مِنْكُمْ من يُريد الدُّنيا ومنكم من يُريد الآخرةَ ، ثم صرفكم عنهم لِيَبْتَلِيَكم . ولقد عفـا عنكم ، والله ذو فضـل علـي المؤمنين $ إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون علـي أحَدٍ والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غمّا بِغَمٍّ لكيلا تحزنـوا علـي مـا فـاتكم ولا مـا أصابكم . واللهُ خبيرٌ بما تعملون $ ثم أنزل عليكم من بَعْد الغَمّ أمَنَةً نُعاسا يَغْشَي طائفةً منكم ، وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسُهم يظنون بالله غَيْرَ الحق ظنَّ الجاهليـة . يقولـون : هل لنا من الأمْرِ مِن شَيْء ؟ قل : إن الأمرَ كلَّه للّه . يُخْفون في أنفسهم مـا لا يُبْدون لـك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء مـا قُتِلْنـا هـا هنـا . قل : لـو كنـتم فـي بيوتكم لبَـرَزَ الذين كُتِب عليهم القتل إلي مضاجعهم ، وليبتليَ الله ما فـي صدوركم ، ولـيمحِّص مـا في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور $ إن الذين تولَّوْا منكم يـوم التقـي الجمعـان إنمـا استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم $ يـا أيهـا الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فـي الأرض أو كانوا غُزَّي : لو كانوا عندنا ما مـاتوا ومـا قُتِلـوا ، لِيَجْعَلَ اللهُ ذلـك حَسْرَةً فـي قلـوبهم . والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير $ ولَئِنْ قُتِلْتُم في سبيل اللّه أو مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مـن الله ورحمةٌ خيرٌ مما يَجْمَعُون $ ولئن مُتُّم أو قُتِلْتُمْ لإلي الله تُحْشَرون $ فَبِما رَحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ، ولو كُنْتَ فَظّا غليظ القلب لانفضّوا مِنْ حَوْلِك . فاعفُ عنهم ، واستغفرْ لهم ، وشاوِرْهم في الأمر . فإذا عزمت فتوكّل علي اللهِ ، إن الله يُحبُّ المتوكلين $ إن يَنْصركم اللهُ فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصـرُكم مِنْ بَعْدِه .وعلـي الله فليتوكل المؤمنون» [٧] . فهل تسمع شيئا من عويل النساء أو صراخ الأطفال أو أنين المجروحين أو شهقات المقتولين ؟ أم هل تسمع شجارا أو جدالا للتنصل من مسؤولية الهزيمـة ؟ أم هل تـري الـرؤوس المنكّسـة والمسلمون عائـدون آخـر النهـار بعد تلـك الضـربة التـي لـم يتلقَّوْا مثلهـا قسوة وإيجاعًا ؟ أم هل تـراك تسمع صيحاتهم وهم يتكأكأون حول الرسول يتلقَّوْن بظهورهم عنه السهام حتـي لا ينالـه أذي والقتـال دائـر كـالرحي الطحـون ؟ إنك لا تسمع إلا الصـوت الإلهـي المبـارك يربّت علـي الأكتـاف ويأسو الجراح ويعاتب في هدوء وثقة .إنه الله ! ثم أصخ السمع إلي الآية قبل الأخيرة :لقد كـان مِنْ رأي الرسـول أن يبقـي المسلمون فـي المدينـة ، حتـي إذا دخلهـا الكفـار عليهم جعلوها لهم مَقْتَلَـة ، فـأبي المسلمون إلا الخـروج ، وكـان مـا كـان من عصـيان الرماة أوامره عليـه السـلام بـالتزام مـواقعهم وعدم مبارحتهـا مهمـا تكـن النتيجـة ومـا ترتب علي ذلك من هزيمة أليمـة .إن القرآن بعد ذلك كلـه يقول للرسـول: « فـاعْفُ عنهم ، واستغفرْ لهم، وشـاورْهم فـي الأمـر . » ولـو كـان هذا القرآن من عند محمد لاهتبلها فرصـةً وحمل فيهـا علـي من خـالفوه حملـة شـعواء ، وقَلَبَهـا من شُـوريَّة إلـي استبدادية . أمّـا والقرآن مـن عنـد رب العـالمين فإنـه يـأمره بمزيـد مـن الشـوري ، الشـوري الحقيقيـة لا الشـوري علـي طريقـة زعمـاء الغوغـاء الـذين يقبضـون علـي الشـرفاء مـن المـواطنين ويلقـونهم فـي السـجن أو يـأمرون بـدفنهم أحيـاء ثـم لا يجـدون حرجا من أن يظهروا أمام الجماهير وعلـي وجوههم قنـاع الزيـف والبهتـان والخـداع

---

[٧] آل عمران / ١٣٩ ــ ١٦٠ .

اللئيم صائحين: « مزيدا من الديمقراطية » ، وهم في الحقيقة إنما يَعْنُون « مزيدا من العَسْف والجهل والقتل وهَتْك الأعراض . » ولكن أين الثريا من الثـري ؟ وأين رسول الله صلي الله عليه و سلم من قاتلي الأحرار ومصاصي دماء الشعوب ومُذِلّيهم ؟ إن هؤلاء لتوحي إليهم شياطين البغي والتشبث بالسلطان ، أما رسول الله فتوحي إليه السماء وينزل عليه ملك كريم من لدن رب رحيم.

كذلك فعلي العكس من ضعف البشر وأفراحهم وأحزانهم نجد آيات القرآن تعكس أقباسا من الروح الإلهي . وسوف أتوقف هنا قليلا أمام عدد من الآيات التي يستطيع بسهولة أي إنسان مخلص ، مسلما كان أو غير مسلم ، أن يشعر بما فيها من الجلال الإلهي.

إليك مثلا هذه الآيات التي تستنكر انحراف النصاري عن عقيدة التوحيد إلي التثليث الذي يجعلون فيه من المسيح إلها أو ابنا للإله: « لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عبدًا للّه ولا الملائكةُ المقرَّبون .ومن يستنكفْ عن عِبادته ويَسْتَكْبِرْ فسيحشرهم إليه جميعا $فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفِّيهم أجورهم ويزيدهم من فَضْلِه ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وَلِيّا ولا نصيرا»[٨] ، وتأمل ما فيها من إيجاز حاسم وثقة مطلقة واطمئنان تام . ولم لا ؟ أليست أزمّة الأمور كلها والسموات والأرض جميعا في قبضته سبحانه ؟ أوليس كل مخلوق عائدا إليه يوم القيامة فسائله سبحانه ومحاسبه ؟ فأين إذن سيذهب المسيح أو غير المسيح منه سبحانه ؟ وإذا كانت الإشارة إلي المسيح إشارة غير مباشرة في هذا التهديد الذي يتوعد الله به كل مستنكف فإن آية سورة « المائدة » التالية أصرح : إذ فيها ذكر المسيح(وأمه أيضا) باسميهما، وأعنف :فإن الكلام هنا عن الإهلاك لا عن مجرد الاستدعاء والحشر ، وأشمل : لأن التهديد ليس مقصورا علي المستنكفين والمستكبرين وحدهم بل يمتد إلي أهل الأرض كلهم: « لقد كَفَرَ الذين قالوا : إن اللّهَ هو المسيحُ بْنُ مريمَ.

قل : فمن يَمْلِكُ من الله شيئا إن أراد أن يُهْلِكَ المسيحَ بْنَ مريمَ وأمَّه ومن في الأرض جميعًا ؟ وللَّه مُلْكُ السماوات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء ، والله علي كل شيء قدير»[٩] . أما في الآيات التالية فنجد مواجهة بين الله سبحانه وعبده عيسي عليه السلام ونقرأ هذا الحوار: « وإذ قال الله : يا عيسي بن مريم ، أأنت قُلْتَ للناس :اتخذوني وأُمِّيَ إلهين مِنْ دُون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لي أن أقُولَ ما ليس لي بحق . إن كنتُ قلتهُ فقد عَلِمتَه . تعلم ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك . إنك أنت علاّمُ الغيوب $ ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَني به : أن اعبدوا الله ربي وربَّكم . وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتَني كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت علي كل شيء شهيد $ إن تُعذِّبْهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم $ قال

---

[٨] النساء / ١٧٢ ـ ١٧٣ .

[٩] المائدة / ١٧ . علي أن الآية الكريمة ، برغم ذلك ، تعلّق هذا كله علي الإرادة الإلهية : « إن أراد أن يُهْلِك المسيح بن مريم....». كذلك فالتحدي أساسًا موجه إلي كل العباد . ثم إن الله هنا لا يخاطب عباده مباشرة بل يطلب من رسوله أن يقول لهم ذلك: (قل: فمن يملك...؟» .

اللَّه : هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم . لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا . رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه . ذلك هو الفوزُ العظيم»[10] . إن الله عز وجل هنا لا يفعل أكثر من إلقاء هذا السؤال: «أأنت قلت للناس : اتَّخِذوني وأُمِّيَ إلهين من دُون الله ؟ » ، وهو سؤال مباشر وجِدٌّ موجز . ولاحظ كيف أن عيسي هنا يُنَادَي باسمه منسوبا إلي أمه دون ألقاب . إنه الله ينادي عبده ! والآن حَوِّلْ عينيك إلي إجابة المسيح عليه السلام وستجده يتنصل بكل ما في وسعه من جهد من اتخاذ أمته له ولأمه شريكين لله ، فهو يبدأ بتنزيه الله: « سبحانك» ! ، ويثنِّي بأنه لا يمكن أن يكون قد ادَّعي ما ليس من حقه ، ثم يثلِّث بأنه لو كان ذلك قد حدث لكان سبحانه قد علمه . وهنا يقارن السيد المسيح عليه السلام بين ربه وبينه هو نفسه في مسألة العلم ، فالله يعلم كل شيء مما يدور في نفس عبده ، بينما العبد لا يعرف شيئا مما عند مولاه . وهذا ليس مجرد استطراد ، بل هو مقصود قصدا لبيان أن المسيح ، علي عكس كل ما يزعمه له من يدّعون أنهم أتباعه ، ليس إلا عبدًا محدود المعرفة محجوبا عن الغيب لا يعلم منه شيئا . ثم يعود عليه السلام إلي تأكيد أنه لم يقل لأمته إلا ما أرسله الله به وأمره بتبليغه لهم: «اعبدوا الله . » ولاحظ كيف يُتْبِع المسيحُ لفظة الجلالة بقوله: « ربّي وربَّكم » ، بادئا بإضافة كلمة « الرب » إلي نفسه قبل إضافتها إلي قومه ، للتشديد علي أنه مجرد عبد لله ، شأنه شأن قومه والناس أجمعين .ويمضي عليه السلام فيقرر أنه قد أدي الرسالة وبلغ الأمانة ، ويتحمل مسؤوليته كاملة . أما بعد أن توفاه الله إليه فقد انتهت مهمته وأصبح أمر قومه إلي الله ، فهو الذي يعرف ماذا أحدثوا من بعده ، وهو الذي بيده المثوبة والعقاب ، وهم علي كل حال عبيد الله : إن عذّبهم فهو إلههم ولا معقِّب لحكمه ، وإن غفر لهم فبفضل منه ورحمة . وهو في الحالتين العزيز الحكيم ... إلي آخر الحوار . أفلا تحس بالجلال الإلهي في السؤال الموجز الحاسم ، وكذلك في جواب المسيح عليه السلام بما فيه من رجفة العبد الخائف أمام مولاه العزيز المتعال ؟

وعلي هذا النحو من القراءة والتذوق والتحليل أرجو أن تقرأ الآية التالية التي يخاطب فيها المولي سبحانه الظالمين من عباده يوم القيامة بعد أن أمهلهم طويلاً: « ولقد جئتمونا فُرَادَي كما خلقناكم أوَّل مَرّة ، وتركتم ما خَوَّلْناكم وراء ظُهُورِكم . وما نري مَعكم شفعاءَكم الذين زَعَمْتُمْ أنهم فيكم شركاء . لقد تَقَطَّعَ بَيْنَكم، وضلَّ عنكم ما كنتم تَزْعُمُون»[11] ، وكذلك هذه الآيات التي تسجل ما دار من حوار بين القاهر الجبار سبحانه وبين إبليس قوة الشر الرئيسية في العالم: « ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجُدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليسَ لم يَكُنْ من الساجدين $قال : ما مَنَعَك ألا تَسْجُدَ إذ أَمَرْتُك ؟ قال : أنا خَيْرٌ منه .خلقتَني من نار ، وخلقتَه من طين $ قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبَّرَ فيها ، فاخرجْ إنك من الصاغرين $ قال : أَنْظِرني إلي يوم يُبْعَثون $ قال : إنك من المُنْظَرين $ قال : فبما أغويتني لأقْعُدَنَّ لهم صِراطَك المستقيم $ ثم لآتِيَنَّهم من بَيْنِ أيديهم ومن خَلْفِهم وعن أَيْمانهم وعن شمائلهم ، ولا تَجِدُ أكثرهم شاكرين $ قال : اخرج منها مَذْؤوما مدحورا . لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ

---

[10] المائدة / ١١٦ – ١٢٠ .

[11] الأنعام / ٩٤ .

لأمْلأنَّ جَهنم منكم أجمعين» [١٢] ، أو الآيتين التاليتين:« ويُسَبِّح الرعدُ بحمده ، والملائكة من خِيفَتِه . ويرسل الصواعق فيُصيب بها من يشاء . وهم يجادلون في الله ، وهو شديد المِحَال $ له دعوة الحق ، والذين يَدْعُون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كَفَّيه إلي الماء ليبلغ فَاه ، وما هو ببالغهِ . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال $ولله يسجدُ من في السماوات والأرض طَوْعًا وكَرْهًا وظلالُهم بالغُدُوّ والآصال» [١٣] ، أو هذه الآيات التي تصف حال الظالمين وما يأخذهم من رعب يوم الدين: « ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عما يعملُ الظالمون . إنما يؤخّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ $ مُهْطِعين مُقْنِعي رؤوسهم ، لا يرتدّ إليهم طَرْفُهم ، وأفئدتهم هواءٌ $ وأَنْذِرِ الناس يوم يأتيهم العذابُ فيقول الذين ظلموا : ربَّنا ، أخِّرْنا إلي أجلٍ قريب نُجِبْ دَعْوَتَك وَنتَّبع الرُسُل . أَوَلَمْ تكونوا أقسمتم مِنْ قَبْل ما لكم من زَوَال ؟ $ وسكنتم في مساكن الذين الذين ظلموا أنفسهم وتَبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال $ وقد مكروا مَكْرهُم ، وعند الله مَكْرُهم ، وإن كان مكرُهم لتزولَ مِنه الجبال $ فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه . إن الله عزيز ذو انتقام $ يوم تُبَدَّل الأرضُ غيْرَ الأرض والسماواتُ ، وبَرَزُوا لله الواحد القهار $ وتري المجرمين يومئذ مُقَرَّنين في الأصفاد $سرابيلهُم من قَطِران ، وتَغْشي وجوهَهم النارُ $لِيَجْزِيَ اللهُ كلَّ نفس ما كَسَبَتْ . إن الله سريع الحساب $ هذا بلاغٌ للناس وَلِيُنْذَروا به وَلِيعلموا أنما هو إلهٌ واحد وليذّكر أُولو الألباب» [١٤] ، وكذلك الآيات التي تتحدث عن قدرة الله سبحانه علي الانتقام المروع وشمول سلطانه عز وجلّ: « أَفَأَمِنَ الذين مكروا السيئات أن يَخْسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتيَهُم العذابُ من حَيْثُ لايشعرون $ أو يأخذَهم في تقلُّبهم فما هم بِمُعْجِزين $ أو يأخذَهم علي تَخَوُّفٍ ؟ فإن ربَّكم لرءوفٌ رحيم $ أَوَلَمْ يَرَوْا إلي ما خلق اللّه من شيءٍ يَتَفيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّدا لله وهم داخرون ؟ $ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون $ يخافون ربهم مِنْ فوقهم ويفعلون ما يُؤْمَرون»[١٥] ، أو هذه الآيات من سورة « طه» : «....وقد آتيناك من لَدُنّا ذكرا $ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وِزْرا $خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حِمْلا $! يوم يُنْفَخ في الصُّور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقا $ يتخافتون بينهم : إنْ لبثْتُم إلا عَشْرًا $ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة : إنْ لبثتم إلا يوما $ ويسألونك عن الجبال ، فقل : يَنْسِفُها ربي نَسْفا $ فَيَذَرُها قاعا صَفْصَفا $ لا تري فيها عِوَجًا ولا أَمْتا $ يومئذ يتَّبعون الداعيَ لا عِوَجَ له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا $ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَنْ أذِن له الرّحمنُ ورَضِيَ له قولا $ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علما $ وعَنَتِ الوجوه للحيِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما» [١٦]، أو الآيات التالية من سورة« غافر»: « الذين يحملون العرش وَمَن حوله يسبحون بحمد ربهم

---

[١٢] الأعراف / ١١ ــ ١٨ .
[١٣] الرعد / ١٣ ــ ١٥ .
[١٤] إبراهيم / ٥٢ ــ ٥٤ .
[١٥] النحل / ٤٥ ــ ٥٠ .
[١٦] طه / ٩٩ ــ ١١١ .

ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وَقِهِمْ عذاب الجحيم $ ربنا وأَدْخِلْهم جناتِ عَدْنٍ التي وعدتهم ومن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم $ وقِهِم السيئات . ومن تَقِ السيئاتِ يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم $ إن الذين كفروا يُنَادَوْن : لَمَقْتُ الله أكبر من مَقْتكم أنفُسَكم إذ تُدْعَوْن إلي الإيمان فتكفرون $ قالوا : ربنا ، أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلي خروج من سبيل؟ $ ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم ، وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا ، فالحكم لله العليِّ الكبير $ هو الذي يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من يُنيب $ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون $ رفيع الدرجات ذو العرش يُلْقِي الروحَ من أمره علي من يشاء من عباده لينذر يوم التَّلاَق $ يَوْمَ هم بارزون ، لا يخفي علي الله منهم شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار $ اليومَ تُجْزَي كلُّ نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب $ وأَنْذِرْهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدي الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاع $ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» [١٧] .ثم نختتم هذه الباقة بهذه الآيات التالية: « كلُّ مَنْ عليها فانٍ $ ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام $ فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان ؟ $ يسأله من في السماوات والأرض . كلَّ يوم هو في شأن $ فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ $ سَنفْرُغ لكم أيها الثَّقَلان $فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ $ يامعشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تَنْفُذوا من أقطار السماوات والأرض فانفُذوا . لا تنفُذون إلا بسلطان $ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ $ يُرْسَل عليكما شُواظ من نارٍ ونُحَاسٌ فلا تنتصران» [١٨] .

إن آيات القرآن تشع جلالا إلهيا ، ومن الصعب حقيقة بل من المستحيل أن أصدق أن محمدا قد افتراها من لَدُنْه ، فأين هو من هذا الجبروت الذي يعكس السلطان المطلق والقدرة اللانهائية والإرادة التي لا تَنِدُّ عن قبضتها شاردةٌ ولا واردة ؟ إن المسألة ليست كما يقول المستشرقون من أنه عليه السلام كان يوجه الكلام إلي نفسه ، مستخدما فعل الأمر « قُلْ » ليوهم الناس أن الله هو الذي يخاطبه ، بل هي مسألة هذا النَّفَس الإلهي ، فمن أين لمحمد به ؟

واسمع كيف يخاطب الله ذو الجبروت نبيه في بعض المواضع من القرآن المجيد: « وإما يَنْزَغَنّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستَعِذ بالله . إنَّه سَمِيعٌ عليم» [١٩] ، « وإما يَنْزَغَنّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله .إنه هو السميع العليم» [٢٠] ،« وقل : ربِّ ، أعوذ بك من هَمَزَات الشياطين $ وأعوذ بك ، ربِّ ، أن يَحْضُرون» [٢١] ، « فلا تكونَنَّ ظهيرًا للكافرين» [٢٢] ، « يا أيها النبي ، اتق الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما» [٢٣] . واسمع كذلك كيف كان محمد يخاف معصية ربه خوفا شديدا ،

---

[١٧] غافر / ٧ ــ ١٩ .
[١٨] الرحمن / ٢٦ ــ ٣٥ .
[١٩] الأعراف / ٢٠٠ .
[٢٠] فصلت / ٣٦ .
[٢١] المؤمنون / ٩٧ ــ ٩٨ .
[٢٢] القصص / ٨٦ .
[٢٣] الأحزاب / ١ .

وهو رسول الله الذي ينزل عليه الوحي من السماء والذي يبشر الناس وينذرهم: «قل :إني أخاف إن عَصَيْتُ رَبي عذابَ يومٍ عظيم» [٢٤] .ولذلك كان من دعائه لربه: « ربّ ، إما تُرِيَنِّي ما يوُعَدُون $ ربِّ ، فلا تجعلني في القوم الظالمين . » [٢٥] وحتي في أخريات حياته صلي الله عليه و سلم وبعد أن نجح في الامتحان الإلهي نجاحا رائعًا فنزل قوله تعالي:« إنا فتحنا لك فتحا مبينا $ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» [٢٦] ظل عليه السلام يقوم الليل ويَنْصَبُ في العبادة والتهجد والدعاء .ولما سألته بعض زوجاته عن سر هذا التعب ما دام الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان جوابه: « أفلا أكون عبدا شكورًا ؟ . » ولو كان عليه السلام هو الذي اخترع هذه الآية فلماذا أجّلها إلي أخريات حياته؟ [٢٧] ولماذا استمر بعدها يقوم الليل ويتهجد في العبادة والدعاء بدلا من أن يغط في نوم هانئ لذيذ؟ ومع ذلك فإن الله سبحانه يأمره عليه السلام في سورة لاحقة(هي سورة « النصر») بالاستغفار.

وقد ظل هذا الصوت الإلهي مع الرسول عليه السلام لم يفارقه لحظة ، فكان كلما حزن بسبب عناد قومه [٢٨] وكفرهم وركوبهم رؤوسهم بالباطل وخوفه عليهم مما ينتظرهم من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك لما طبع عليه صلي الله عليه و سلم من حب للحق وغيرة عليه ورحمةٍ للبشر ، كان هذا الصوت دائما في أذنيه يخفف عنه أحزانه: «ولا يَحْزُنْك الذين يُسارعون في الكفر ، إنهم لن يَضُرّوا الله شيئا . يريدُ اللهُ ألاّ يَجْعَلَ لَهُم حظا في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم» [٢٩] ، « يا أيها الرسول ، لا يَحْزُنْك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا: « آمنّا » بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا» [٣٠] ، « قد نعلم إنه لَيَحْزُنُك الذي يقولون . فإنهم لا يُكَذّبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدون» [٣١] ، « ولا يَحْزُنْك قولُهم . إن العزة لله جميعا . هو السميع العليم» [٣٢] ،« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون $ فَسبِّحْ بحمد ربك وكن من الساجدين $ واعبد ربك حتي يأتيك اليقين» [٣٣]، «ومن كفر فلا يَحْزُنْك كُفره» [٣٤] ، وينصحه بالصبر« اصْبِرْ علي ما يقولون» [٣٥] ، « واصْبِرْ لحُكْم ربك ، فإنك بأعيننا» [٣٦] ، « فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادي وهو مكظوم $ لولا أن تَدَارَكَه نعمة من ربه لَنُبِذ بالعَراء

---

[٢٤] الأنعام / ١٥ ، و الزمر / ١٣ .
[٢٥] المؤمنون / ٩٣ – ٩٤ .
[٢٦] الفتح / ١ – ٢ .
[٢٧] بعد صلح الحديبية
[٢٨] المقصود بقومه هنا كل من دعاهم إلي الإسلام ،فيدخل فيهم اليهود و النصاري .
[٢٩] آل عمران /١٧٦ .
[٣٠] المائدة / ٤١ .
[٣١] الأنعام / ٣٢ .
[٣٢] يونس / ٦٥ .
[٣٣] الحِجر / ٦٧ – ٩٩ .
[٣٤] لقمان / ٢٣ .
[٣٥] ص / ١٧ .
[٣٦] الطور / ٤٨ .

وهو مذموم» [٣٧] ، « فاصبر صبرا جميلا» [٣٨] ، « ولِربِّك فاصْبِرْ» [٣٩] ، « واصْبِرْ لحُكْم ربك ، ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفورًا» [٤٠] .وحينما يشتد به الضيق وتطبق الأحزان علي صدره حتي لتكاد تخنقه أسفا علي مصير قومه ينهاه الوحي عن ذلك : « فلعلك باخعٌ نفسك علي آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا» [٤١] ، « لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين» [٤٢] .ذلك أن الله لم يُنزل عليه القرآن ليشقيه ، وإنما تذكرةً لمن يخشي: « طه $ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي $ إلا تذكرةً لمن يخشي» [٤٣] .كذلك فليست مهمته أن يحمل الناس علي الإيمان حملا ، إذ إن مسؤوليته تنتهي عند حدود الإبلاغ والتذكير: « وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل» [٤٤] ، « وما أنت عليهم بجبّار» [٤٥] ، « لستَ عليهم بمسيطر» [٤٦] .ومن هنا نجده يقول لقومه: « وما أنا عليكم بحفيظ»[٤٧] .

وفي ضوء هذا يمكننا أن نفهم قوله تعالي: « وقال الذين كفروا :لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة . كذلك لنثبِّتَ به فؤادك، ورتَّلناه ترتيلا» [٤٨] . وفي هذا الرد القرآني علي اعتراض الكفار ما يدل علي أن قائل هذا الكلام لا يمكن أن يكون محمدا عليه السلام ، فالكاذبون المزيفون لا يمكن أبدا أن يعترفوا أمام خصومهم بحاجتهم إلي من يثبت لهم أفئدتهم ، لأن هذا ضعف ، وكل إنسان ، وبخاصة إذا كان مدّعيا ملفقا ، يحرص علي أن يستر نقاط الضعف في نفسه أشد الحرص ويبذل في ذلك كل ما في يديه . كذلك لو كان محمد هو مؤلف هذا القرآن وأحرجه قومه بهذا الاعتراض لكان رد فعله هو مراجعة نفسه والعكوف في بيته أياما أو أسابيع يؤلف لهم كتابا كاملا ثم يخرج به عليهم قائلا: «هاكم ما طلبتموه . أما هذا الذي كان ينزل عليَّ من القرآن منجَّما قبلا فقد كان القطرات الأولي من الغيث التي تسبق الانهمار . فما رأيكم الآن؟». وقد كان باستطاعته عليه السلام أن يأخذ حذره مبكرا فيضمّن قرآنه آيات تؤكد أنه مهما يفعل من شيء فهو مقبول عند الله ، لأن الله قد جعله فوق المساءلة والحساب وأعطاه الحرية المطلقة في الفعل والترك حسبما يحلو له ، وبذلك يَضْمَن ألا يعترض عليه أحد بعد ذلك علي أي فعل يأتيه أو يَدَعُه ، فإن بعض المستشرقين

---

[٣٧] القلم / ٤٨ ـ ٤٩ .
[٣٨] المعارج / ٥ .
[٣٩] المدثر / ٧ .
[٤٠] الإنسان / ٢٥ .
[٤١] الكهف / ٦ .
[٤٢] الشعراء / ٣ .
[٤٣] طه / ١ ـ ٣ .
[٤٤] الأنعام / ١٠٧ .
[٤٥] ق / ٤٥ .
[٤٦] الغاشية / ٢٢ .
[٤٧] الأنعام / ١٠٤ .
[٤٨] الفرقان / ٣٢ .

يزعمون أنه عليه السلام قد تعمَّد أن يكون القرآن منجَّما كي يستطيع الرد علي مفاجآت الحوادث حسب رغبته وهواه وظروفه [٤٩].
ولم يقف تثبيت القرآن له عليه الصلاة و السلام عند حد التخفيف من أحزانه ونُصْحه ألا يَدَع أسفه علي قومه يقضي عليه ، بل كان الله سبحانه يحذره من أن ينتابه أي شك فيما ينزل عليه من وحي: « فلا تكوننّ من الممترين» [٥٠] ، « فإن كنتَ في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكوننَّ من الممترين $ ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله فتكونَ من الخاسرين» [٥١] ، « فلا تَكُ في مِرْيَةٍ منه . إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» [٥٢] أو في ضلال قومه من عَبَدَة الأصنام والأهواء : « فلا تَكُ في مِرْيةٍ مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قَبْلُ» [٥٣] . كما كان سبحانه وتعالي يحذره من فِخاخهم وألاعيبهم التي يهدفون بها إلي أن يَحْرفوه عن صراط الله العزيز الحميد: « وأنِ احْكُمْ بينهم بما أنزل الله ، ولا تتَّبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك» [٥٤] ، « وإن تطع أكثر مَنْ في الأرض يُضِلّوك عن سبيل الله» [٥٥] ، « وإن كادوا لَيَفْتِنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره . وإذن لاتَّخذوك خليلاً» [٥٦] ،« ولا يصدُّنَّك عن آيات الله بعد إذ أُنْزِلَتْ إليك» [٥٧]، «ولا تَدْعُ مع الله إلها آخر» [٥٨] . تُرَي أيمكن أن يفكر محمد في نهي نفسه عن الشك فيما ينزل عليه من وحي ؟ إن ذلك ، فضلا عن أنه يكشف ما كلُّ إنسانٍ حريصٌ علي ستره ، وبخاصة إذا كان مدعيا كاذبا ، لا يمكن أن يخطر له علي بال.
أم تراه عليه الصلاة والسلام(لو أنه ، حسب زعم الكافرين ، هو صاحب القرآن) كان يمكن أن يخاطب نفسه بهذه اللهجة الشديدة؟ : « ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوبَ عليهم أو يعذّبَهم، فإنهم ظالمون» [٥٩] ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لايحب من كان خَوّانًا أثيما» [٦٠] «فَبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم . ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» [٦١] ، « يا أيها الرسول ، بَلِّغْ ما أُنِزْلَ إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسالته» [٦٢]، «وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم

---

[٤٩] انظر تعليقنا علي ما قاله المستشرق الفرنسي سافاري في هذه النقطة في كتابنا « المستشرقون و القرآن» / ١١ .
[٥٠] البقرة / ١٤٧ .
[٥١] يونس / ٩٤ ـ ٩٥ .
[٥٢] هود / ١٧ .
[٥٣] هود / ١٠٩ .
[٥٤] المائدة / ٤٩ .
[٥٥] الأنعام / ١١٦ .
[٥٦] الإسراء / ٧٣ .
[٥٧] القصص / ٨٧ .
[٥٨] القصص / ٨٨ .
[٥٩] آل عمران / ١٢٨ .
[٦٠] النساء / ٦١ .
[٦١] آل عمران / ١٥٩ .
[٦٢] المائدة / ٦٢ .

فإن استطعت أن تبتغي نَفَقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السماء فتأتيَهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم علي الهدي ، فلا تكوننّ من الجاهلين»[٦٣] ، « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردَهم فتكونَ من الظالمين» [٦٤] ، « ولولا أن ثبَّتناك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا $ إذن لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا» [٦٥] ، « ولئِنْ شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا» [٦٦]، « وتخشي الناس ، والله أحق أن تخشاه» [٦٧]، « ولو تَقَوَّل علينا بَعْضَ الأقاويل $ لأخذنا منه باليمين $ ثم لقَطَعْنا منه الوتين $ فما منكم من أحد عنه حاجزين» [٦٨].

أم تراه كان يتحدث في قرآنه عن أخطائه ليرددها الآلاف في عصره وملايين الملايين علي مدي العصور بدلا من سترها(هذا إن عَدّها هو نفسه أخطاء أصلا) ؟ : «ما كان لنبيٍّ أن يكون له أَسْرَي حتي يُثْخِن في الأرض . تريدون عَرَض الدنيا ، والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم $ لولا كتاب من الله سَبَقَ لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم» [٦٩] ، « عَبَس وتولَّي $ أن جاءه الأعمي $ وما يُدْريك لعله يَزَّكَّي $ أو يَذَّكَّر فتنفعَه الذكري $ أما من استغني $ فأنت له تَصَدَّي $ وما عليك ألا يَزَّكَّي $ وأما من جاءك يسعي $ وهو يخشي $ فأنت عنه تَلَهَّي $ كلا ، إنها تذكرة $ فمن شاء ذكره $ في صحف مكرَّمة $ مرفوعة مطهَّرة $ بأيدي سَفَرة $ كرام بَرَرَة»[٧٠] . ومنذ أن نزلت هذه الآيات والرسولُ حريصٌ علي أن يقرّب إليه ابن أم مكتوم(الذي يدور حوله هذا الوحي) ، بل لقد خلَّفَه علي المدينة مرارًا حين كان يخرج مع المسلمين للغزو.

كذلك لو كان عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام مؤلفَ القرآن فلِمَ يكشفُ عواطفه علي هذا النحو في الآية التالية : « لا يحلُّ لك النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ولا أن تَبَدَّل بهن من أزواجٍ ولو أعْجَبَكَ حُسْنُهُنّ» [٧١]؟ لماذا « لو أعجبك حسنهن » هذه ؟ إن إصدار التشريع السابق(ويصعب علي أن أعتقد أن محمدا هو مَصْدَرُه) لم يكن ليتطلب إشارة إلي إعجاب الرسول عليه السلام بحسن من يراهنّ من النساء . كذلك لو صح الافتراض المستحيل بأنه هو مؤلف القرآن فلِمَ يجعل أمور بيته الخاصة وسيرة زوجاته مضغة في أفواه الكافة هكذا ؟ : « يا أيها النبي ، قل لأزواجك : إن كنتنّ تُرِدْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْنَ أمتّعْكُنّ وأسرّحْكنّ سَراحا جميلا $ وإن كنتنّ تُرِدْن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيما $ يا نساء النبي

[٦٣] الأنعام / ٣٥ .
[٦٤] الأنعام / ٥٢ . و ثمة آية مشابهة في سورة «الكهف » هي الآية / ٢٨ .
[٦٥] الإسراء / ٧٥ .
[٦٦] الإسراء / ٨٦ .
[٦٧] الأحزاب ٣٧ .
[٦٨] الحاقة / ٤٤ ــ ٤٧ .
[٦٩] الأنفال / ٦٧ ــ ٦٨ .
[٧٠] عَبَسَ / ١ ــ ١٦ .
[٧١] الأحزاب / ٥٢ .

، من يأتِ منكنّ بفاحشة مُبَيِّنة يضاعَفْ لها العذابُ ضعفين ، وكان ذلك علي الله يسيرا» [٧٢] ، « يا أيها النبي ، لِمَ تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ؟ والله غفور رحيم $ قد فرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم . والله مولاكم، وهو العليم الحكيم $ وإذ أسَرّ النبي إلي بعض أزواجه حديثا ، فلما نبّأتْ به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا؟ قال : نبأني العليم الخبير $ إن تتوبا إلي الله فقد صَغَتْ قلوبكما ، وإن تَظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير $ عسي ربه ، إن طلقكن ، أن يُبْدِلِه أزواجًا خيرًا منكن : مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائباتٍ عابدات سائحات ثيباتٍ وأبكارا» [٧٣] .إن التفسير الواضح والمستقيم لكل هذا هو أنه قرآن كريم من لدن عزيز حكيم.

ولا أحب أن تفوتني الإشارة إلي أن القرآن ، برغم حملته علي بني إسرائيل لكفرهم وصلابة رقابهم وقساوة قلوبهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه وكتابتهم بأيديهم ما يقولون إنه من عند الله وقولهم علي مريم بهتانا عظيما وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسي بن مريم ، يعترف لهم بأن الله قد فضّلهم يوما علي العالمين وآتاهم أنبياء وجعلهم ملوكا . وقد كان باستطاعة سيدنا رسول الله ، لو أنه مؤلف القرآن ورأي منهم الكفر به واللَّدَد في خصومته والسخرية منه ومن دينه وأتباعه والتآمر علي قتله وتأليب الكفار ضده والغدر بالدولة التي كانوا يستظلون بحمايتها ، أن ينكر هذا التفضيل .لكنه ، وهو الرسول المأمور من ربه ، لم يفكر في تغيير هذه الحقيقة الإلهية أدني تغيير . صحيح أن القرآن قد حمل عليهم كما سلف القول ، لكنه قد فعل ذلك لانحرافهم عن الصراط المستقيم ، إذ إن فضل الله ليس ضربة لازب ، وإنما هو يدور مع الإيمان وفعل الخيرات ، لا تشذ أُمّه عن ذلك . وها هو ذا القرآن ، حين يقول للمسلمين أنفسهم : « كنتم خير أمة أُخْرِجت للنــاس » ، ينصّ علي شروط هذه الخيرية فيقول: « تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله » [٧٤] .وفي موضع آخر نراه يحذرهم من ذات المصير الذي آل إليه أهل الكتاب: « ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقَسَتْ قلوبهم ؟ وكثير منهم فاسقون» [٧٥] ، مما يتبين معه أن القربي من الله ليست حكرا علي أمة دون أمة ، بل إن فضل الله بابه مفتوح لمن يستحقه ، فإذا تَوَلّي تَوَلّي عنه الله وحرمه من فضله ونعمته.

كذلك لو أن محمدا هو الذي اخترع القرآن لما أشار من قريب أو من بعيد إلي معجزات السابقين من إخوانه الأنبياء أبــدا ولأصَرّ علي أن ما ورد فيها من روايات مكتوبة أو متناقَلة شفاها إنما هو أساطير الأولين ، سواء في ذلك معجزات أنبياء بني إسرائيل أو أنبياء العرب . ولقد كان من المستحيل علي أي إنسان أن يثبت العكس كما قلت في موضع سابق من هذا الكتاب . أما اعترافه بهذه المعجزات في الوقت الذي

---

[٧٢] الأحزاب / ٢٨ ــ ٣٠ .
[٧٣] التحريم / ١- ٥ .
[٧٤] آل عمران / ١١٠ .
[٧٥] الحديد / ١٦ .

كان يقول فيه لكل من يطلب منه معجزة تبرهن علي صدقه ورسالته:« سبحان ربي !هل كنت إلا بشرا رسولا؟» [٧٦] فذلك مما لا يفعله بشر.

ومثل ذلك حرص القرآن علي أن ينفي عنه عليه السلام معرفته بوقت قيام الساعة: « إليه(أي إلي الله) يُرَدّ عِلْم الساعة» [٧٧] ،« يسألونك عن الساعة : أَيّانَ مُرْسَاها $فِيمَ أنت مِنْ ذِكْراها ؟ $ إلي ربك منتهاها $ إنما أنت منذرُ من يخشاها» [٧٨] .ولو أنه هو صاحب القرآن لضرب لهم موعدا بعيدا بعد مماته ، كأن يقول لهم إنها ستقع بعد ألف سنة مثلا . بل إن متنبئة الهنود مثلا في زماننا ليحددون موعدا لها بعد أسابيع فيخرج المغفلون من ديارهم بعيدا عن العمران وينامون في الخلاء ، ثم تأتي الساعة الموعودة ولا ساعة ولا يحزنون .

---

[٧٦] الإسراء /٩٥ .

[٧٧] فُصِّلَتْ / ٤٧ .

[٧٨] النازعات / ٤٢ – ٤٥ .

المراجع

أولا : باللغة العربية

* القرآن الكريم وعدد من كتب التفاسير المختلفة.

*"الكتاب المقدس.

المعاجم والموسوعات:

*الأعلام / الزركلي / دار العلم للملايين / بيروت ط ٦ / ١٩٨٤ .

*قاموس علم الاجتماع / د . محمد عاطف غيث / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٩ .

*معجم العلوم الاجتماعية / تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٥ .

*الموسوعة الثقافية / دار الشعب.

الكتب الأخرى (مرتبة حسب أسماء مؤلفيها) :

* د . إبراهيم عوض / المستشرقون والقرآن / دار الحقوق.

*آرثر جفري / مقدمتان في علوم القرآن(انظر «ابن عطية ») .

*ابن حزم / الفِصَل في الملل والأهواء والنحل / مكتبة السلام العالمية / القاهرة.

*ابن عطية / مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة كتاب « المباني » ومقدمة ابن عطية) / نشر آرثر جفري ، وتصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي / مكتبة الخانجي/ القاهرة / ١٩٧٢ .

*ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة.

*البخاري / صحيح البخاري بحاشية السندي / دار إحياء الكتب العربية.

*بلاشير / القرآن / ترجمة رضا سعادة / دار الكتاب اللبناني / بيروت / ١٩٧٤ .

*توماس كارلايل / الأبطال / ترجمة محمد السباعي / كتاب الهلال(العددان٣٢٦، ٣٢٧) / فبراير ومارس١٩٧٨ .

*السيوطي / الإتقان في علوم القرآن / ط ٤ / مصطفي البابي الحلبي /القاهرة / ١٩٧٩.

*السيوطي / تنوير الحوالك علي شرح موطإ مالك / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة.

*سيجموند فرويد / الموجز في التحليل النفسي / ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش / ط ٢ / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧٠ .

* سيد سابق / فقه السنة / دار الكتاب العربي / بيروت /١٩٧١ .

*الشهرستاني / الملل والنحل / تحقيق محمد سيد كيلاني / مصطفي البابي الحلبي / القاهرة/ ١٩٧٦ .

*الشوكاني / نيل الأوطار / دار التراث / القاهرة.

*العقاد / مطلع النور / كتاب الهلال(العدد ٥٠) / مايو١٩٥٥ .

*الإمام مالك / الموطأ (انظر « السيوطي »)

* مالك بن نبي / الظاهرة القرآنية / ترجمة عبد الصبور شاهين / مكتبة دار العروبة /القاهرة/ ١٩٥٨ .
*د .محمد حسين هيكل / ط ٣ / حياة محمد / دار القلم / القاهرة.
*د .محمد عبد الله دراز / النبأ العظيم / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٦٠.
* محمود الشرقاوي / القرآن المجيد / دار الشعب / القاهرة / ١٩٧١ .
*الإمام مسلم / صحيح مسلم / دار إحياء الكتب العربية /القاهرة.
*موريس بوكاي / القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم(مترجم عن الفرنسية) / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٢ .
*الإمام النووي / رياض الصالحين / مراجعة وتعليق محمد الأنور البلتاجي / دار التراث العربي / القاهرة/ ١٩٨٠.

ثانيا : باللغات الأوروبية

*Chamber's Biographical Dictionary, 1911.
*A Critical Dictionary of Psychoanalysis , Charles Rycroft ,Penguin Books,1973.
*Dictionnaire de Biographie,d'Histoire ,de Geographie,des Antiquites & des Institutions, Librairie Ch. Delagrave , Paris, 1983 .
*Dictionary of Islam ,T.P. Hughes, Oniental Books, New Delhi , 1976 .
*A Dictionary of Psychology , James Drever , Penguin Books , 1977 .
*A Dictionary of Philosophy, edited by Antony Flew, Pan Books , 1979 .
*Encyclopedia Britannica, 14th edition .
*The New Bible Dictionary ,edited by J.D.Douglas, Inter-Varsity Press , London , 1972 .
*New Medical Dictionary , Baker & Margerison , Associated Newspapers Ltd.
*Philosophical Dictionary , Voltaire , translated and edited by Theodore Besterman , Penguin Books , 1971 .

الكتب الأخري (مرتبة حسب اسماء مؤلفيها) :

أ - بالإنجليزية .

* عبد الله يوسف علي / ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الإنجليزية / نشر جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية / الرياض .
*Ali , Moulana Charles , A Critical Exposition of The Popular Jihad , Calcutta , Thacker , Spink & Co ., 1885.

*Appleton ,E.R., An Outline of Religion for Children , Hodder & Stoughton , London .
*Bouquet , A.C,. Comparative Religion, Pelican Books, 1958.
*Gibb , Mohammedanism , Oxford University Press , 1949.
*Gore, Charles (editor), A New Commentary On Holy Scriptures , Society of Promoting Christian Knowledge , London ,1929.
*Guillaume, Alfred, Islam, Pelican Books, 1964.
*Irving, W., Mahomet and His Successors, edited by Pochmann & Feltscog, The University of Wisconsin Press, Milwaukee , London , 1970.
*Kellett, E, E,. A Short History of Religion, Gollancz, London , 1933 .
*Margoliouth, D ,S,. Mohammedanism, Williams &Norgate , London, 1921.
*Menzis , Allan, History of Religion ,John Murry , London , 1911.
*Mirza Abul Fazl , Life of Mohammed, Asian Publication Services . New Delhi , 1980 .
*Rodinson , Maxime, Mohammed , translated from French by Anne Carter , Penguin Books , 1977.
*Rodwell , The Koran , Dent , London ,1909 .
*Wells , H.G., Experiment in Autobiography ,Gollancz, London , 1934.
* Wells , H.G., The Outline of History , Cassell , London, New York, 1920.

ب - بالفرنسية

*Blachere, R., Le Coran , Librairie Orientale et Americaine , Paris, 1957 .
*Blachere, Histoire de Litterature Arabe, Libraire d'amerique et d' Orint ,Paris ,1964.
*Fahmi, Mansour , La Condition de la Femme dans la Tradition et l'Evolution de l'Islamisme, Librairie Felix Alcan , Paris, 1913.
*Gheorghiu , Virgil , La Vie de Mahomet , traduit du Romain par Livia Lamoure , Plon , 1970 .

*Hubby, Joseph ,Christus: Manuel d'Histoire des Religions , Beauchenese et ses Fils, Paris, 1946.
*Kasimirski, Le Coran , Garnier –Flammarion, Paris , 1970.
*Ledit , Charles- J., Mahomet , Israel et le Christ , la Colombe ,1956.
*Masson, Le Coran , Gallimard , Paris , 1980.

ج - بالألمانية .

*Henning, Max, Der Koran , Reclam, Stuttgart ,1981.
*Maulana, Sadr-ud-din , Der Koran , Die Moschee , die Muslimische Mission ,Berlin, 1964.
*Paret , Rudi , Der Koran , W.,Kohlhammer, Stuttgart ,Berlin , Kolan, Mainz, 1983

الفهرست